شتيفان فايدنر Stefan Weidner

كابول الجديدة

صيف الفوضى الطويل

كل شيء في أفغانستان يعيش في الوقت الراهن حالة ازدهار، ولا يقتصر ذلك على حقول الخشخاش المبتلة بعد جني محصولها فحسب، وهي التي تزود الجميع بمداخيل مالية مفيدة ابتداء من أمراء الحرب وحتى المزارعين الصغار وإنما يشمل ذلك أيضاً اقتصاد المحسوبية وظاهرة الارتشاء، باعتبار أنه لا يستطيع حتى وزير مسؤول أن يضمن بقاءه بدونهما. كما تزدهر الاشاعات التي تبثها المخابرات السرية الغربية وأنبائها المتعلقة بضربات جديدة وتنظيمات طالبان والقتامة الوحشية المهيمنة على الروح الأفغانية. ولا يقتصر الازدهار على ما سلف ذكره في العاصمة الأفغانية فحسب، وإنما يزدهر فيها أيضاً ما هو جميل وممتع. وعلى سبيل المثال في يوم الجمعة الذي يعتبر يوم عطلة رسمية نجد الكل يشتغل: إما لأنه يتحتم عليهم الشغل، أو لأنهم يريدون ذلك أو يستطيعونه. في هذا اليوم تزدهر سماء كابول بالطائرات الورقية «التنين»، ذات الألوان السارة التي صنعها الأطفال من مواد بدائية، هي أوعية البلاستيك القديمة وأوراق الصحف المتهالكة وأغصان الشجر إلى جانب العُصيات الصغيرة، وقد ربطوها بخيوط جعلتها تحلق عالياً في سماء كابول، ذات التلال المرتفعة. وقد يصل علوها إلى حدود المئة متر، مع العلم أنهم كانوا ممنوعين بشكل مطلق من ممارسة هذه الألعاب خلال حكم طالبان الذي استمر ست سنوات. لكن هذه الألعاب انتعشت الآن وازدهرت من جديد عبر نوع من الابداع والدقة وكأنها لم تتوقف نهائياً من قبل، حسب ما وصفه الكاتب خالد حسين، المنتمي أصلاً إلى مدينة كابول ويعيش حالياً في أمريكا. فقد جاء في روايته التي تحمل عنوان: «اللاعبون بالطائرات الورقية The Kite Runner»، ونشرت في برلين ٢٠٠٣، وصفٌ بارعٌ لذلك، حيث صنع تمثالاً أدبياً رائعاً لأطفال الطائرات الورقية في كابول. أما التحليق العالي لها في أجواء كابول، الذي لا يمكن تجاهله فله ما يناسبه على أرض المدينة نفسها، حتى بالرغم من كون ادراك ذلك يعتبر أقل سهولة عبر أزقتها وشوارعها المكسوة بالأتربة، والسخام والهباب.

وللمقارنة، فالذي قد يكون ضل طريقه يوماً ما وتوغل في الأحياء الشعبية في القاهرة أو المدينة القديمة في الدار البيضاء أو في ضواحي بيروت المدمرة يعثر على ارتسامات مألوفة لديه في مدينة كابول. ففي هذه المدينة التي بقيت إلى ما قبل سنتين فقط يُنظر إليها وكأنها في أقصى نهاية العالم جموداً، يرى الانسان في كل زاوية من زواياها في الوقت الراهن متاجر ودكاكين صغيرة مليئة بمختلف السلع والبضائع، وفيها يتجول بائعو الخضر والفواكه بعرباتهم اليدوية عارضين أنواع العنب والتفاح والاجاص التي اشتهرت بها كابول منذ القدم. وتبدو ورشات الحرف اليدوية المطلة بنواصيها على الشوارع والتي غالباً ما احتلت جزءاً من طريق السير على الأقدام، تبدو وهي تعج وتموج بنشاط محموم يسمح للانسان بالاعتقاد في حدوث معجزة اقتصادية. إذ غالباً ما يكفي استخدام مفتاح الصمولة وقطعة قديمة من المطاط ومنفاخ هواء لتتحول بقعة صغيرة من الشارع

إلى ورشة مزدهرة لتصليح الدراجات الهوائية. فالحفر الناجمة عن ضربات القذائف والصواريخ الدائمة الحضور في الشوارع تجبر السيارات على تخفيف السرعة إلى ثلاثين كيلومتراً في الساعة، أي إلى السرعة الطوباوية التي يحلم بها أنصار البيئة بصفة دائمة. وفيما عدا ذلك يتحتم على الزائر الغربي لكابول بطبيعة الحال رفع سبابته للتحذير والإنذار: الأفغان مازالوا لم يسمعوا شيئاً عن حماية البيئة. وتبعاً لدراسة للأمم المتحدة فإن سكان كابول يستنشقون يومياً هواءً ملوثاً يعادل استهلاك خمسة وخمسين سيجارة، بل حتى الدقة البارعة نفسها التي تحوّل نفايا البلاستيك والصحف القديمة إلى طائرات ورقية لا تزدري بدورها قيمة احراق تلك المواد، مع الاشارة إلى أن دورة اعادة استخدام المواد القديمة لها طابع شمولي عام، لدرجة أن القمامة لا تبقى لفترة طويلة ملقاة في الشوارع لأن الجزء الذي لا يريد الانسان استهلاكه منها تتولى الفئران أو القطط استخدامه. وإذا حدث، رغم ذلك، وتجمعت أكوام القمامة والفضلات بشكل ثابت مستقر فإنها سرعان ما تنمو وتتحول إلى هضبة حقيقية تستخدم إما لقضاء حاجة الانسان دون خجل وإما كمرعى المدينة. أما الشخص الذي مازال يتذكر ويعرف منذ الستينات والسبعينات صور مجموعات الأوز وهي تهدهد نفسها على متن مياه نهر كابول التي كانت آنذاك تتدفق بغزارة يتحتم عليه اليوم اعفاء نفسه من إلقاء نظرة على ذلك الجدول الآسن المنتن الرائحة داخل مجرى النهر المحاصر بالفضلات والقمامة من جميع الجهات.

كل شيء ممكن في عاصمة أفغانستان

ففيها تم اتخاذ قرار نهائي في صيف الفوضى الطويل بوضع دستور قار للبلاد في نهاية العام الحالي أو بداية العام المقبل. وبينما يتحتم غالباً على العاملين في السفارات الغربية وعلى الكثيرين من العاملين في منظمات الإغاثة الدولية غير الحكومية، أن لا يتحركوا داخل المدينة إلاّ بعد الحصول على إذن خاص مسبق، كما لا يجوز لهم أن يتجولوا دون صحبة سائق وسيارة جيب عسكرية لأسباب أمنية كما يقال، نجد الأفواج الأولى من السواح تتقاطر على شارع متاجر السجاد والزرابي ذي الترصيف الأنيق وهم يحملون بأيديهم قطع الآكر والسقاطات. لقد امتلأت كابول بالأجانب لدرجة أن

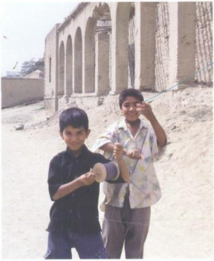


مدينة كابول، تصوير : Knut Müller



أصحاب الفنادق المتواضعة التي تم تأسيسها على أنقاض الفيلات القديمة، صار بمستطاعهم الآن مطالبة النزلاء بسبعين دولاراً للمبيت ليلة واحدة فوق سرير بسيط. أما الصحفيون والعاملون مع المنظمات غير الحكومية ورجال المال والأعمال فإنهم ينزلون بها للأقامة لمدة قصيرة وأحياناً لشهور عدة. وقد تم الحفاظ على الأسعار المرتفعة بشكل اصطناعي عبر الأموال المخصصة لمساعدة أفغانستان من جميع أنحاء العالم. لذا فإن القسم الأكبر من تلك الأموال لا يصرف في الواقع في مجال خدمة مشاريع البناء والتنمية وإنما يتم ابتلاعه من طرف تكاليف المواد اللوجستية أو في معظم الأحوال من طرف رواتب الموظفين الغربيين ذات الارتفاع الصاروخي بشكل مبالغ فيه. فهؤلاء وبدافع من الحرص على المكاسب المالية يعملون بكل قواهم على ترسيخ صورة الوهم القائل بأنهم يتعرضون للأخطار في كابول، وبناءً عليه يتحتم حصولهم على كل ما يمكن من تعويضات مقابل الأخطار المزعومة. ويجدر القول بأن حالة الخطورة هناك يجري تقديرها رسمياً بشكل مبالغ فيه، لدرجة أن وزارة الخارجية الألمانية على سبيل المثال لا تسمح لعائلات المبعوثين من طرفها إلى هناك في مهمة بالالتحاق بهم أو السكنى معهم، كما حدث مع المعلمين الستة الذين كُلفوا بتعليم اللغة الألمانية بمدرسة «أماني»، مع الاشارة إلى أن رواتب أغلبية المعلمين الأفغان بهذه المدرسة لا تتجاوز حدود ثلاثين دولاراً في الشهر، وبالتالي فهم غير متحمسين لأداء مهامهم بشكل أفضل. صحيح أن ألمانيا أنفقت مبلغ مليوني يورو لترميم ذلك المبنى المدرسي الفخم الذي تم بناؤه عام ١٩٢٤، لكن مع ذلك نجد قانون الميزانية الألمانية لا يسمح برفع أجور المعلمين الأفغان إلى خمسين دولاراً في الشهر. في الوقت الراهن تحاول إحدى الهيئات التشجيعية تقديمالمساعدة لإزالة هذا الوضع المزري، لا سيما وأنه منذ الآن أصبحت الصفوف المدرسية مكتظة بالتلاميذ الذين قد يصل عددهم إلى خمسين تلميذاً في الفصل الواحد، ولا أمل في تحسين الوضع. أما تدشين هذه المدرسة الذي وقع يوم ٢٢ أيلول/ سبتمبر وحضره عدد من الشخصيات السياسية الألمانية البارزة ضمن إطار من الأبهة والاطراء فإنه لم يستثن نفسه من مظاهر النفاق إلاّ بنسبة قليلة بسبب العناصر الآنفة الذكر. إن وزارة الخارجية الألمانية وفي نطاق عرضها للوضع العام في أفغانستان لم تنصح المواطنين بالتخلي عن السفر نهائياً إلى هناك بصفة عامة فحسب، وإنما نصحتهم أيضاً بعدم التجول ليلاً في شوارع كابول، بل وبعدم التجول نهاراً أيضاً خارج الشوارع الرئيسية للمدينة. أما العاملون في السفارة الأمريكية المرابطون في حاويات معدلة من السفن ولفترات تتراوح بين ستة وتسعة شهور وكأنهم في حظيرة دجاج لإنتاج البيض، فهم لا يجوز لهم مطلقاً مغادرة منطقة السفارة إلاّ بإذن خاص. لكن من لم تتح له أي فرصة للتجول في شوارع كابول فهو لن يستطيع تأكيد الحقائق التالية مثلما فعل كاتب هذا المقال. إذ أنه أكدً بالممارسة والتطبيق أنه في واقع الأمر ليس من الخطورة بمكان أن يتجول الانسان في شوارع كابول سواء أكان ذلك ليلاً أم نهاراً، وسواء أكان ذلك في الشوارع الرئيسية أم الأزقة الفرعية، أو حتى لو تعلق الأمر بالتجول وسط الأكواخ الطينية الممتدة على طول هضاب كابول، حيث تشاهد النساء فوق سطوح المنازل وهن ينشرن الغسيل ويبتسمن لشخص ما دون خوف أو انزعاج، وهذا ما يمكن الانسان من التقاط صور لأطفالهن وهم يلعبون بالطائرات الورقية. إن شوارع المدن الآتية، نابولي واسطنبول وموسكو تعتبر أشد خطورة من شوارع كابول، أما المناطق التي لم يكن يُسمح فيها للأطفال، وإلى ما قبل سنتين بممارسة اللعب، فإنها صارت الآن

أطفال يلعبون بالطائرات الورقية، كابول، أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣
تصوير: Stefan Weidner



مناطق يمكن الحصول فيها على كافة أنواع الخمور، كما تشاهد بها صفوف من المومسات ذوات الأصل الصيني والروسي. في ذات الوقت يحتفل العاملون مع بعثة الأمم المتحدة المصابون بكوابيس الاحباط والرعب مساء كل خميس داخل فيلاتهم الخاصة وهم محاطون بحراسة مشددة وكأنهم يعيشون في نيويورك أو برلين. إنه أمر لا يعدو أن يكون مجرد مبالغة في اشباع النزوات الجامحة وارضائها. وكل من يحمل معه قدراً من المال يستطيع ارتياد المطاعم الفاخرة المنتشرة في كابول، سواء منها الصينية أو الهندية، أو الألمانية أو الايطالية، بل وحتى الأفغانية كذلك لتناول وجبات فاخرة. هذا ويلاحظ المراقب جملة من العوالم المتوازية تحكم كلاً منها قوانينه الذاتية الخاصة والصارمة. يبدو أن من يتمكن من التنقل بين ربوعها يستطيع أن يجني ثمار الفوضى في كابول، وبمقدار لا مثيل له في أي بقعة أخرى من العالم في الوقت الراهن. وعلى سبيل المثال: هل يود أحد إجراء حديث مع وزير الثقافة؟ هو لا يحتاج سوى إلى نزهة مشي على الأقدام ليصل إلى مبنى وزارة الثقافة.

المكتب في الطابق الأول يأتي هذا كجواب على السؤال القائل: أين يقع مكتب الوزير؟ وبدون أية مراقبة أو تفتيش. وعندما لا يجد الزائر الوزير في مكتبه فيمكنه التحدث مع المستشار الأقرب للوزير.

إنه: راهناوارد زرياب، أحد الكُتّاب المشهورين في بلده ويكتب بلغة الداري «الفارسية». فبعد أن أمضى فترة منفاه في فرنسا، خلال عهد طالبان، عاد إلى بلاده بصفة نهائية، مثلما فعلت أقلية من المثقفين الأفغان المغتربين. وقد عكف خلال الشهور الأخيرة على إعداد قانون جديد للإعلام، سيكون أعظم القوانين ليبرالية في العالم الاسلامي على الإطلاق، إذا حظي بمباركة الحكومة وموافقتها، حسب ما ورد في حديثه، لأنه لايلحظ فيه أي وجود للرقابة. وحتى لو سلّمنا جدلاً بوجودها فإنه من الجائز أن لا يتم تطبيقها في الظروف الراهنة وتحت المعطيات القائمة. إذ أن هناك أكثر من ١٨٠ صحيفة ومجلة تملأ أسواق كابول في الوقت الحاضر. ويتحتم ظهور هذا الكمّ بانتظام وبنسبة تقل أو تكثر، بل وحتى لو كان الأمر يتعلق بجرائد تتراوح صفحاتها المطوية مابين أربع وثمان صفحات فقط، فإن هذا السيل المتدفق من الصحف غير قابل للمراقبة على الإطلاق، لا سيما وأن الدولة الأفغانية مفلسة تماماً، كما قال زرياب. لأن مليارات الدولارات المرصودة للمساعدة على بناء أفغانستان، تكاد تمنح بالكامل للمنظمات غير الحكومية، أي أنها تبقى في الأيادي الغربية، تبعاً لما احتج عليه الكاتب وانتقده. فالحكومة الأفغانية لم تُتح لها أي فرصة للبرهنة على قدرتها على العمل لأنها لا تحصل على الأموال، وهي لا تحصل على تلك الأموال لأنها ما زالت لم تبرهن بوضوح على قدرتها على العمل والانجاز.

وهكذا، وحسبما يقول زرياب، تبقى الحياة الثقافية في مرحلة الطفولة دون تقدم أو ازدهار، لأن جميع الصحافيين الموهبين المتمكنين من اللغات الأجنبية يشتغلون مع منظمات الإغاثة الدولية التي تمنحهم زواتب وأجوراً أفضل، وهي تستخدمهم إما كسائقي سيارات أو مترجمين، بدلاً من اشتغالهم في حقل مهنتهم الأصلية. ومن المفهوم بداهة أن تكسب القوى الرجعية داخل حقل الصحافة الأفغانية المتناحرة وزناً لا يتناسب مع حجمها الحقيقي. وحسبما يراه عالم الآثار الأفغاني ظافر بايمان، الذي أنهى دراسته بفرنسا، فإن تقاعس المثقفين الأفغان الذين غادروا بلادهم في الخمس والعشرين سنة الأخيرة عن العودة واحجامهم عن الالتزام ببناء وطنهم يعتبر أمراً غير مفهوم لديه وغير مقبول، لأنه شخصياً كان يزور أفغانستان بانتظام حتى في فترة حكم طالبان. كما أن المخاوف التي يعبّر عنها المهاجرون الأفغان بسبب التطورات الجارية بالبلاد هي أمور غريبة عنه. لذا فهو يحذرهم قائلاً: "بمقدار ما تتأخر العودة ستكون القدرة مستقبلاً على التكيف مع الأوضاع الجديدة المتطورة بسرعة مذهلة والتماهي مع الوطن والاندماج فيه أضعف وأقل."

أما الاستثناء الوحيد المشهور في هذا السياق فيمثله الروائي الشاب والمنتج السينمائي عتيق رحيمي، الذي يعيش حالياً بفرنسا (انظر صفحة ٨ مقابلة مع رحيمي)، وهو قد اشتهر في السنوات الأخيرة على الصعيد الأوروبي كذلك عن طريق كتابين أصدرهما، وهما: «أرض ورماد» و «الحرب والحب». وبدعم فرنسي تمكن من تأسيس دار للطباعة والنشر في كابول، ويقوم حالياً بانتاج فيلم سينمائي شمالي البلاد بناء على نص حوار كتبه بنفسه. ويتهمه بعض الزملاء في المنفى بالسذاجة، لأنه لم يتراجع أمام النكسات والتطورات المنحرفة في أفغانستان، وإنما على العكس من ذلك هو يتمسك بالتأكيد على الدلالات والاشارات المشجعة. ويقول رحيمي في هذا السياق: "لقد سنحت فرصة فريدة من نوعها لأفغانستان عقب اعتداءات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، وهي فرصة لا يجوز السماح بضياعها." ويضيف قائلاً: "يكاد يكون من غير المفيد على الإطلاق أن يمضي أكثر المثقفين الأفغان مراحل عمرهم في المهاجر والمنافي." ثم يتساءل: "لماذا لا يعودون إلى بلادهم؟" ويضيف: "إن السلام والديمقرطية وحقوق الانسان والرفاهية مطالب يجب الكفاح من أجلها على أرض الواقع في البلد، ولا يستطيع الانسان الحصول عليها عبر الخيالات والأوهام الشاعرية."

ترجمة: محمد المراكشي

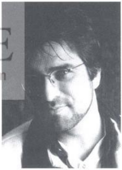
أفغانستان: الثقافة أولاً

حوار مع عتيق رحيمي

عتيق رحيمي روائي أفغاني شاب مقيم في فرنسا، نال شهرة واسعة في أوروبا في السنوات الأخيرة بفضل عملين روائيين صدرا له مؤخراً بعنوان «أرض ورماد» و «الحرب والحب». وبعد سقوط حركة طالبان قام رحيمي بعدة زيارات إلى أفغانستان. ولإلقاء المزيد من الأضواء على الحركة الثقافية في أفغانستان وموقف مثقفي المنفى من العودة إلى بلادهم تنشر «فكر وفن» هذا الحوار مع رحيمي:

سيد رحيمي، إنك من الأدباء الأفغان القلائل الذين لا يزلون يعتقدون أن للعملية السياسية القائمة بعد سقوط طالبان مستقبلا ويقفون موقفا يعزز مسيرتها. هل أنت ساذج، كما يدعي منتقدوك أم أن زملاءك الكتاب متشائمون جدا؟

رحيمي: (ضاحكا) لا اعتقد، أنني ساذج. زرت أفغانستان في السنتين الماضيتين خمس مرات وسأعود بعد فترة قصيرة إلى كابول وغيرها من المدن لعدة شهور. إذن، أنا أتحدث عن وقائع عشتها شخصيا في أفغانستان واستخلص من ذلك، أن وطننا قد مُنح فرصة جديدة وعظيمة ونحن لا ينبغي أن نتهاون مع من يريد انتزاعها من أيدينا. على العكس من ذلك ينتقد زملائي الكتاب، ربما بحكم المهنة، أوضاعا، هي في الحقيقة من بنات أفكارهم. معظمهم لم يكونوا في السنوات الخمس الماضية في أفغانستان، أي أنهم ليسوا على دراية بالأوضاع القائمة هناك.


عتيق رحيمي، تصوير: Claassen Verlag

ليس من الضروري أن يجوب المرء أفغانستان، لكي يعرف أن الحكومة المركزية ضعيفة وأن القادة العسكريين الشماليين أقوياء جدا، لدرجة أن المواطنين ما زالوا عرضة للاضطهاد وليس هناك تقدم في عملية إعادة إعمار البلد والأمريكيون، على ما يبدو، يقفون موقف المتفرج على الأوضاع، بلا خطة؟

رحيمي: لا أحد يدعي، أن أفغانستان بلا مشاكل. لكن، حين ننتظر، أن تنتفي الصعوبات من تلقاء نفسها، فإن علينا أن ننتظر طويلا. ماذا نعمل؟ ماذا يعمل السادة والسيدات الذين أصبحوا متخصصين منذ عقود بانتقاد الأوضاع السيئة في أفغانستان، كي تنقلب الموازين؟ فالسلام والديمقراطية وحقوق الإنسان والرفاهية ينبغي انتزاعها، فهي لا تستحضر شعريا. كلنا نعرف، أن مشكلتنا في أفغانستان ليست سياسية، بالدرجة الأولى، إنما ثقافية.

هذا يعني، علينا أن نتعلم أن نوفر لكل موقف معارضة، بل إنه ينبغي وجود ذلك. حين تراقب تاريخ أفغانستان طيلة الثلاثين سنة الماضية، سوف تستنتج أن كل نظم الحكم التي سادت في هذه الفترة، سواء كانت جمهورية، شيوعية، ديمقراطية أو إسلامية، كانت حكومات تعسفية غير شرعية. أي بكلمة أخرى: ممارسة القوة الغاشمة ضد أصحاب الرأي المغاير ذات تقاليد عريقة في بلادنا، وهي تترك بصماتها على أعمالنا باستمرار. هذه التقاليد التي ترجع إلى العصور الوسطى وإن شئت فهي الثقافة السياسية التي علينا مكافحتها بهدف دحضها على المدى البعيد.

كيف تود القيام بذلك؟

المثقفون والأدباء والعلماء وكل المبدعين بشكل عام هم المعنيون بذلك، بالدرجة الأولى. علينا الآن أن نشمر عن سواعدنا، بدلاً من أن نأنف من عنف القادة العسكريين الشماليين وننقسم في أجنحة مختلفة. فالمدارس والجامعات وهيئات تحرير الصحف والوزارات بحاجة إلى أشخاص أكفاء. هناك الكثير من الأفغان الذين يعيشون، في الوقت الحاضر، في المنفى الأوروبي أو الأمريكي، إن جاز لي أن أقول، فإنهم يكادون يمضون حياتهم هناك في ضنك ومن غير جدوى. فلماذا لا يعودون إلى الوطن؟

إن أفغان المنفى الذين يعودون من أوروبا أو أمريكا، تنعتهم صحافة كابول بأنهم منحطون يدعون أنهم أدرى الناس بكل شيء وهم ليسوا بأكثر من منظفي كلاب للغربيين الكفرة. ويتم تهديدهم وتحذيرهم علنا من أن يلوثوا بنقدهم سمعة المجاهدين. وهذه ليست بالأخبار المشجعة!

رحيمي: دعنا من هذا، لنقتصر في حديثنا على الوقائع . إن هناك عدداً ضئيلاً جداً من الصحف في كابول التي في تتعرض، بناءً على أوامر من بعض الأوساط، للعائدين إلى الوطن، وبالذات من الغرب، وتوجه لهم، في الغالب، نقدا لاذعا غير مبرر . بيد أن هناك ـ في كابول وحدها ـ زهاء ١٨٠ جريدة ومجلة، إن عدداً هائلاً كهذا لم يكن معروفا قط في تاريخ بلدنا. يدعو أغلب هذه المطبوعات إلى أفغانستان ديمقراطية ويعقد آمالا كبيرة على أفغان المنفى .لماذا ياترى لا يشير، أولئك المطلعون من مواطني بلدي المقيمين في باريس وبرلين أو نيويورك، إلى هذه الأصوات؟

ما مدى معرفتك للوسط الصحفي في أفغانستان المعاصرة أو بكلمة أفضل في كابول وما مدى الحرية المسموحة للعمل الصحافي؟

رحيمي: في الواقع جيدة. بالطبع، أن اغلب الإصدارات في كابول، ولكنها ليست بالإصدارات الوحيدة. كذلك الحال في باريس، حيث هناك إصدارات أكثر من أي مكان آخر في فرنسا. إذن ينبغي ألا ننسى، أننا نتحدث عن أفغانستان، وهكذا يجب علينا أن نقوّم الظروف هناك وفقا للمقاييس المحلية المتبعة. فأوساط الصحافة في كابول ديناميكية جدا ومتنوعة. في السنين الماضيين تأسست صحف على مستوى جيد جدا، وهي تنتقد، على سبيل المثال، الحكومة علناً. وأصبحت تشكل قاعدة مشجعة للأدباء الشباب والمثقفين في عموم الوطن. ألا يعد إصدار مئة وثمانين جريدة ومجلة، في كابول وحدها، في بلد تبلغ نسبة الأمية فيه تسعين بالمائة شيئاً هائلا؟

أثناء إقامتك في كابول، جرى اعتداء، يعتقد أن أعوان قادة تحالف الشمال كانوا من ورائه، على الشاعر سامه حامد، إذ طعن بسكين ست عشرة طعنة، كما منعت مجلة «افتاب» عن الصدور، لأنها وجهت نقدا بصورة علنية إلى "الدين الإسلامي".

رحيمي: أنا مطلع على كلتا الحادثتين بشكل جيد ومن الطبيعي أن أجد أنهما مؤسفتان للغاية. لكن لهذا بالذات ينبغي دعم القوى الديمقراطية في أفغانستان. لقد استخلصت درساً من خلال العديد من الحوارات التي أجريتها مع ثلة من الأدباء الشباب، وهو أن الجيل الجديد في أفغانستان، متعطش لنظام ديمقراطي، على الرغم من أنه شب في ظل الحرب. يتميز الشباب بنشاط حاد وسبق لهم تأسيس إتحاداتهم، يعملون بطريقة براغماتية للغاية من دون التوجس خيفة من أية أيدلوجية، كما يمارسون التنوير في أعمالهم. فقد نشرت في كابول قصة قصيرة لكاتب شاب، أصبحت مثاراً للاهتمام. إنها تتحدث في صفحة واحدة عن خواطر امرأة أثناء المخاض، من وجهة نظر الراوي ـ يكاد يكون هذا ثورة صغيرة بالنسبة إلى الأوضاع السائدة في أفغانستان. الكثير من الصحف أعادت طبع هذه القصة القصيرة وأثير حولها نقاش لعدة أسابيع. لو قلت لي قبل سنتين، أنه سيدور الحديث ذات يوم في كابول عن الحب، لاعتبرتك معتوها. بيد أنه أصبح اليوم



احدى دور السينما في كابول
تصوير : Stefan Weidner

كل شيء ممكناً. فهل يمكننا في هذا الوقت بالذات أن ننتظر الكثير؟

هل تحقق تقدم في مشاريعك الخاصة في أفغانستان؟

رحيمي: نعم، ستباشر دارنا للنشر المسماة «اسباند»، في غضون فترة قصيرة، مهماتها. يهدف عملنا إلى نشر حوالي ستة كتب لمؤلفين أفغان سنويا ولتشجيع القراء على قراءة المزيد. سنسعى للتعاون مع الإذاعات الناجحة ومؤسسة التلفزيون الحكومية، للتعريف بالمؤلفين في كافة أنحاء البلاد. إن مشروعنا، الذي يلقى دعما من الحكومة الفرنسية وأوساط المثقفين، ينص على ترجمة روايتين لكاتبين أجنبيين إلى كل من لغتي البلد الرسميتين (الباشتو و الداري)، وبالمقابل ترجمة كتابين لمؤلفين أفغانيين إلى اللغة الفرنسية كل عام.

هل كان باستطاعتك، في السنتين الماضيتين، أثناء تجولك في مناطق كثيرة من أفغانستان أن تتلمس تحسنا مستمرا في حياة الناس؟

رحيمي: بكل وضوح. لكني أريد أن أؤكد مرة أخرى، أنه ينبغي علينا ألا ننسى، أننا في أفغانستان. تأكد ليّ في زيارتي الأخيرة، قبل كل شيء، أن الناس أخذوا يشعرون بشيء من الاطمئنان. من أين ليّ أن أعرف ذلك؟ لأنك لم تعد ترى في عيونهم ذلك الوجل والقنوط والاستعداد للعنف، الذي كان يلحظه المرء قبل عام من ذلك. من الطبيعي أن هناك أحياء سكنية حتى في كابول ينبغي على المرء تحاشيها بمجرد حلول الظلام، لكن هل يختلف هذا عما هو في باريس أو نيويورك؟

ما هو رأي رجل الشارع في حكومة الرئيس حامد قرضاي ووجود الجنود الأجانب في بلده؟

رحيمي: يشعر الناس بأمل كبير، في أن حياتهم ستكون أفضل على المدى البعيد ويسرهم الدعم الذي يقدمه الجنود الأجانب. حدثني اسكافي عجوز، بأنه شهد، خلال الثلاثين سنة الماضية، الجحيم بعينه، وإنه مسرور، لأن ذلك العهد قد ولى. إن أبناء وطني في أوروبا وأمريكا لا يستطيعون أن يتصوروا تماما حجم معاناة الناس في أفغانستان. لذا ينبغي أن ننظر إلى أفغانستان بعيون الناس القاطنين هناك.

هل تعتقد أن أبناء بلدك في أوروبا وأمريكا قادرون على ذلك؟

رحيمي: دعني أرو لك حكاية من حكايات الملا الشهير نصر الدين. لاحظ الملا الحكيم ذات ليلة في طريقه إلى البيت، أن رجلا يبحث عن شيء ما في ضوء أحد مصابيح الشارع. سأل الملا الرجل الذي أعيته الحيلة، عمّ تبحث؟ فرد الرجل قائلاً: لقد أضعت مفتاحي هناك، في مكان بعيد عن مصباح الشارع وآمل في العثور عليه هنا. اندهش الملا الفطن وقال، أيها الرجل الطيب، إن كنت فقدت مفتاحك في مكان آخر، فلماذا تبحث عنه في هذا المكان بالذات؟ رد الرجل بعصبية، لأنه لا يوجد ضوء هناك. بذلك أردت أن أقول، أن على أبناء بلدي وزملائي الكتاب ألا يبحثوا عن مفتاحهم في أوروبا وأمريكا، لأنهم لم يفقدوه هناك.

أجرى الحوار: راتبيل اهانغ شامل

ترجمة: علي أحمد محمود



لعبة بوشكازي

تصوير: Knut Müller

Mostafa Danesch مصطفى دانيش

التصدي للكفار بالمخدرات

الأفيون الأفغاني في مواجهة السلاح الغربي



جمال مدمن، حقول الأفيون في أفغانستان، تصوير: Knut Müller

شذا مُسْكِرٌ يملأ هواء البراري الجافة التي تسودها، في ظهيرة الصيف هذه، حرارة تبلغ الخمسين تقريباً. ويكاد شعاع الشمس، في هذه الساعة التي يتوسط فيها قرص الشمس كبد السماء، أن يخترق أغصان الأشجار الخمس أو الست الناشرة ظِلالها على هذه الواحة الصغيرة الواقعة على مشارف مدينة بلخ وأن يشق طريقه، من خلال غبار الصحراء المختلط برائحة الحشيش والأفيون، والمحيط بالضيوف من كل جانب. ويتربع، على أحد التلال القريبة، مقام يُزعم أنه يتسم بالقدسية؛ وكان صاحب مطعم فَطِن قد وعى الأهمية التجارية للموقع، فاغتنم الفرصة، فشيد، بالقرب منه، مكان الاستراحة هذا الذي لا يشتمل على أكثر من بيت مبني بالطين وبئر وساحة مربعة لا تزيد مساحتها على ستة عشر متراً مربعاً. في هذه الساحة وتحت ظلال أشجار أحاطها صاحب المطعم بخرسانة من الإسمنت يرقد الضيوف على الوسائد المتناثرة على الأرض. إلا أن الضيوف الشباب المستكينين للراحة هنا ليسوا حجاجاً؛ أو أن الكشف النوراني، الذي ينشدونه في هذا المكان هو، وعلى أدنى تقدير، ليس ذا طبيعة دينية. ومع أن زراعة الأفيون والحشيش ـ هذان المحصولان اللذان ينتجهما المزارعون في هذا الإقليم بكميات وفيرة وبجودة عالية ـ محظورة في أفغانستان رسمياً، إلا أن متعة تعاطيهما تقليد جار منذ قرون،

فتعاطيهما في سياق جلسات الهناء والصفاء أمر مستساغ كاستساغة شرب الشاي.

وتقع دار الاستراحة المتواضعة في قلب مكان عمه الخراب والدمار؛ إلا أن الأمر الذي تجدر ملاحظته أن هذا الموضع لم يدمر، لا من قبل الطالبان ولا القوات الأمريكية. في سالف الزمن وقبل أن يدمرها الإسكندر الكبير، وهو في طريقه إلى غزو أواسط آسيا قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون تقريباً، كانت تقف هنا شامخة مدينة بلخ التاريخية التي شاخت على أرضها خمسة آلاف من السنين والتي كان العالم الإسلامي يسميها «أم المدائن». ولم يكتشف المنقبون الأثريون، بَعدُ، آثار هذه المدينة التاريخية إلا بالكاد. فتحت الأنقاض توجد كنوز تستقطب مطامع لصوص القبور.

وتحت ظلال الأشجار تتناقل الأيدي النرجيلة وأقداح الشاي الأخضر. ويشارك المضيف، أيضاً، ضيوفه في هذه الحلقة؛ وهكذا راح ينشد أبياتاً شعرية لحافظ الشيرازي بين كل نَفَس دخان بارد يمتصه بمتعة وتلذذ. ولو غفل المرء عما يحيط به فإنه سيشعر، بلا ريب، وكأنه يعيش الأجواء التي تصورها قصيدة الشاعر الفارسي الكبير. إلا أن النظرة الممعنة سرعان ما تعيده إلى أرض الواقع، فالنراجيل المتداولة ليست سوى قنان بلاستيكية حولتها يدا عامل هاو إلى ما هي عليه الآنَ، أضف إلى هذا أن الفحم الخشبي والقضيب المعدني المستخدمين في عملية التدخين، قد سخنا على مَوقِد بالغاز وأن بعضاً من الضيوف البالغ عددهم ما يقرب من الثلاثين، قد طرحوا جانباً مدافعهم الرشاشة. وما هؤلاء الرجال إلا حفنة من قوات غير نظامية يقودها آمر إقليمي يسكن في بلخ، المدينة التي أمست صغيرة في يومنا هذا.

ويرتدي صاحب المطعم اللباس الأفغاني التقليدي: بنطلون فضفاض وفوقه قميص طويل. وكان هذا الرجل قد تحلى بعدد لا يحصى من سلاسل تنتظم عليها حبات لؤلؤ زجاجي كثير الألوان؛ وهكذا، فبهذه السلاسل وبقدميه العاريتين المتحجرتين من عظَم ما عليهما من وسخ وبشعره الطويل الذي لم يمر عليه المشط في يوم من الأيام وبلحيته الطويلة المتدلية على صدره أمسى هذا الرجل يترك لدى الزائر الغربي الانطباع بأنه يواجه هاهنا خليطاً سريالياً جمع بين صفات الدراويش والهيبيين. وبمتعة بينة يرينا المضيف طريقة تدخين الأفيون: لا يجوز للمرء أن يتصور أن الطريقة المثلى للتدخين تكمن، وبكل بساطة، في إشعال النار في المادة الشبيهة بالصمغ أولاً وفي ابتلاع الدخان المنبثق عنها ثانياً، فالدخان لا يتصاعد من الأفيون إلا بعد تعريضه لدرجات حرارة كبيرة جداً، أضف إلى هذا أنه سيتحول، إذا ما تعرض لدرجات الحرارة هذه، إلى سائل. ولإثبات ما يقول فإنه يضع حبة أفيون خام بنية اللون على قضيب معدني ويعرضها للنار المنبعثة من الموقد الغازي تاركاً الأفيون يذوب فوق عنق الزجاجة؛ وبالتزامن مع عملية الذوبان يبدأ يمتص، عبر خرطوم رفيع أدخل في الفتحة الجانبية الموجودة في جدار القنينة، الدخان الذي يبرده الماء الموجود في القنينة.

وبالرغم من نظرته الشاردة لا يفوته شيء أو يخفى عليه. فهو يقطع حديثه مراراً وتكراراً ويقفز من مكانه لتلبية ما يطلبه الزبائن. يجلب من كوخه كيساً صغيراً يحتوي على الحشيش والأفيون، وعلى ما يبدو فإنه يتوافر في كوخه هذا على خزين كاف. وحسب ما يقوله بفخر واعتزاز، يأتي إليه الزوار من مناطق بعيدة، مناطق كمزار الشريف، مثلاً، كبرى المدن في هذا الإقليم، ويضيف قائلاً: "الآن لا تزال الحال تتصف بالهدوء طبعاً"، "ينبغي عليكم أن تأتوا في إحدى الأمسيات. فأنا أمتلك مولدة كهرباء، إننا نقيم حفلات صاخبة ننتشي فيها حتى الثمالة. لن يعترضكم أحد هنا؛ إن أفغانستان بلد تسوده الحرية."

إنها الحقيقة بعينها، فالحفلات المتهورة في هذا المكان المدمر الخرب تقام على مرأى من الآمر العسكري لهذه المنطقة، هذا الآمر الذي لا يبعد مقر قيادته سوى مائتي متر عن مركز مدينة بلخ، تماماً عند ساحة المرور الواقعة في وسط المدينة. ويجلس نفر من قواته على سطح بناية متقدمة الموضع لكي يسجلوا بكل دقة كل من يدخل إلى المدينة الصغيرة أو يغادرها. ومع أنه لم يكن هناك إذن مسبق، إلا أن القائد سرعان ما وافق على إجراء محادثة صحفية قصيرة، وبالتالي وبعد مضي دقائق وجيزة خرج الآمر من الدار الرئيسية وجاء مسرعاً للرد، طواعية، على أسئلة الزائر. كلا، كلا، رد قائلاً فوراً وبلا تردد، في المنطقة الواقعة تحت إمرته لا تزرع المخدرات. وأراد أن يؤكد ذلك فراح يقول: "لقد أشعلنا النيران في الكثير من حقول الخشخاش"، وواصل حديثه مؤكداً "أنه سينزل أقصى العقاب بكل من تسول له نفسه بيع أو تعاطي المخدرات."

ومع هذا تظل الشكوك تحوم حول كلماته التي ترن في الأذن كما لو كانت قد انبثقت من أعماق الحقيقة. فمن ناحية دورية الحراس، الذين راحوا يراقبون المكان من على بعد أمتار قليلة ويدخنون السجائر التي لفوها بأيديهم، ينتشر دخان تفوح منه رائحة الأفيون.

ولو خلع بزته العسكرية، لبدا الجنرال حمزة، آمر بلخ وما يحيط بها، بلحيته السوداء التي تخللها الشيب كثيراً، فلاحاً من فلاحي المنطقة. وفي الساعة الواحدة ظهراً تبدو عيناه المحمرتان كما لو كان النومُ قد جفا جفنه. وينتمي حمزة إلى مجموعة المجاهدين المسماة «الجمعية الإسلامية»، التي قادت حرب عصابات، في بادئ الأمر ضد المحتلين السوفييت، ومن ثم ضد الحكومة الشيوعية، وأخيراً وفي إطار التحالف الشمالي ضد حركة طالبان أيضاً. إلا أن الحقيقة تشهد على أن الأبطال الأفغان، أيضاً، يتعبون ويخمدون في يوم من

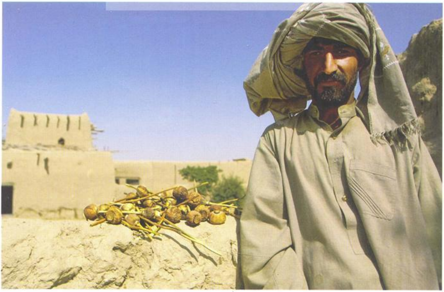
الأيام. ففي السنوات الأخيرة، ترهل جسم الجنرال وزاد وزنه كما هو باد للعيان، وهكذا صار الجنرال ينعم بالأرباح التي تدرها عليه وظيفته الرسمية.

ويخضع آمر بلخ، بدوره، إلى أستاد عطا، الذي هو أحد المهيمنين على مصائر الأمور في مزار الشريف. فبعدما طردت الولايات المتحدة الأمريكية الطالبان، هجم القائد الطاجيكي على نحو مفاجئ على مزار الشريف فصارت تخضع لإمرته وإن كانت قد خضعت، لأمد طويل، لإمرة الجنرال الأوزبيكي عبد الرشيد دوستم. وفي الوقت الذي يُظهر فيه الجنرال عطا وجنده، بشيء من الفخر والتحدي، سيطرتهم على الشوارع، ينزوي جنود دستم حابسين أنفسهم في معسكراتهم. ولكن، ومع هذا، فإن التوتر حقيقة قائمة يدركها كل من يتمعن في الأمور؛ ففي أية لحظة يمكن أن يندلع القتال بين الخصمين اللذين سادت بينهما حرب ضروس في التسعينات، أي قبل أن يوحدا جهودهما في إطار التحالف الشمالي. ويكمن الأساس المتين الذي يستمد منه الأوزبيكي قوته في مقره العسكري الواقع في «شابارغان» الواقعة إلى الشمال من مزار الشريف وفي قلعة «كالاهه يان»، أي في الحصن العسكري الواقع خارج المدينة والذي كان مدار العناوين الرئيسية في الصحافة عام ٢٠٠١ وذلك بسبب مقتل أسرى ينتمون إلى حركة طالبان قدر عددهم بحوالي ٦٠٠ رجل. وكان هؤلاء الأسرى قد قتلوا بنيران الطائرات الأمريكية التي جاءت لإخماد تمردهم على سجانيهم.

وكما هو الحال مع باقي القادة العسكريين، ارتقى عطا، الذي كان قد حارب ضد الاحتلال السوفيتي، أيضاً، من مجاهد بائس معدم رث الثياب إلى أمير حرب ثري، يحتفظ لنفسه بحوالي ٦٠٠٠ رجل. فحينما يراه المرء وهو يطوف في شوارع المدينة وبصحبته قافلة تتكون من عشر سيارات جديدة مصنعة للمناطق الوعرة يجلس فيها رجاله المحاربون المسلحون بأحدث الأسلحة، عندئذ يدرك المرء، على نحو تقريبي، أن الحرب في أفغانستان قد غدت تجارة وفيرة الربح. ونشر عطا نفوذه فأمسى نافذ الكلمة في مناطق تمتد إلى ٢٥٠ كيلومتراً جنوب «نفق سالانغ». في منطقته هذه يتصرف عطا كما لو كان أميراً لا سلطان لأحد عليه، فهو يعين حكام الأقاليم والقادة العسكريين، وإن كان يخضع، كما يزعم هو نفسه، إلى الحكومة المركزية في كابول. وفي الواقع فإن المخدرات هي التي جعلت منه شخصاً ثرياً. في أفغانستان يحصل المرء على الربح الوفير من خلال المتاجرة بالأفيون في المقام الأول، هذه المادة التي يجري تنقيحها في كافة أرجاء البلاد في معامل لا يحصى عددها والتي تهرب من هناك إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

وصار عطا يواجه الأمم المتحدة بنفس الصيغة التي يواجه بها حكومة كابول، فهو معتد بنفسه ويرفض أي تدخل بشؤونه. فحينما أراد مفتشو الأمم المتحدة في ربيع هذا العام منع زراعة الأفيون في الشمال، حال عطا دون ذلك وراح يعلن أن على المجتمع الدولي أن يعوض المزارعين أولاً عن الخسائر التي ستلحق بهم من جراء هذا المنع.

أحد مزارعي الأفيون، تصوير: Knut Müller



ويجمـع استاد عطا، فـي شخصـه، بين الإقطاعي الكبـير والقـائد العسكري وبارون المخـدرات. إن اجتـمـاع هذه الصفات المشؤومـة في شخص واحد ليس حالة نادرة، بل هو البلوى والمرض الخطيـران اللذان يفتكان بأفـغـانسـتـان المعاصرة .فنفوذ كـارتلات المتاجرين بالمخـدرات أمست له اليـد الطولى في الحكومة ذاتهـا. وللدلالة على ذلك دعنا نتحدث عن عبد الرسول سياف. لقد كان نجم هذا الرجل الأصولي النزعة قد برز إبان الحرب الأهلية حيث قام بإلقاء القنابل على العاصمة بلا رحمة أو هوادة؛ ولا ريب في أن ادعاءه الساخر المستهزئ بأن على المرء أن يدمر سطوح كل المنازل في كابول للقضاء على الإثم والمعـصية، قد رن في آذان سكان المدينة المدمـرة رنيناً يتم عن عِظَم ما يواجـهون من امتهـان واحتقار. أما في أيامنا الحاضـرة فإن سياف، الذي يقود ستة آلاف محارب أيضاً، قوة فعالة تقف خلف الحكومة وإن كان قد شاخ وغزاه الشيب. فإلى مجموعته ينتمي رئيس المحكمة العليا وعدد من الوزراء وحاكم مدينة كابول. وحتى الرئيس حامد قرضاي نفسه لا يرى مندوحة من الحصول على تأييده عند اتخـاذ أية قرارات هامة، كما أنه يزوره باستمرار في مقر إقامته في «باغمان»، التي تبعد ٢٠ كيلومتراً عن كابول باتجاه الغرب.

وتكاد منـاطق نفـوذ سيـــاف أن تتناثر في طـول البـلاد وعـرضـهـا. إلا أن مـصـدر ثروته الرئيسـي يكمن في «باداخشان»، على وجه الخصوص. ففي هذه المدينة الواقعة في الشمال الشـرقي من أفغانستان يـزرع القادة العسكريون المؤتمرون بأمره الأفيون في مساحات واسعة جداً؛ فالأفيون المنقح في معاملهم يصدر حتى إلى روسيا وأوروبا. وبسبب تدفق مـبـالـغ طائلة من الدولارات أمـسى السكان هناك يطلقون على باداخشان لقب «كويت الأفغانية».

وفي هذا كله لا يرى هؤلاء المسلمـون الأتقيـاء أي تناقض بين تدينهم وبين تصـديرهم للمخدرات ومـا ينشأ عن هذا التصدير من إدمان وشقاء. وفي الواقع، فإنهم بهذا الصنيع إنما يواصلون السيـاسة التي درج الطالبـان على انتهاجـها: مـحاربة الكفـار من خـلال تصدير المخـدرات. وفي هذا السيـاق يقول وكـيل عبـد الوهاب: "لقد زودنا الـغرباء بالأسلحة لكي يقتل بعضنا البعض الأخر"، وواصل حديثه فـمضى يقـول: "أما الآن فـإننا نزودهم بالمخـدرات التي يسممون بها أطفالهم." وفي الواقع، فإن «رجل الشارع»، هذا المصدر الذي كثيراً ما يُستشهد به، قد أمسى يعـتقد بصواب هذا الرأي. "نحن، ذاتنا، لا نتناول الحشيش. إن هذا يتنافى مع الإسلام." هذه هي الكلمات التي سمعناها من المزارع الذي راح يحصد المحاصيل من مـزرعته الواقعة على الطريق بين مـزار الشريف وبلخ والذي تقـوس ظهره بفعل العمل المرهق في الزراعة. ومضى الرجل قائلاً: "إن المخدرات للكفار." وهكذا، وإذا كانت منطقة نفـوذ استاد عطا قد اشتملت في السـنين الخوالي، على براري لا غير، فإن مـزارع المخدرات قد اتسـعت الآن فوصلت إلى حـافة الطريق. وبوسع المزارع هاهنا أن يحصـد مرتين في العام: في أيار/ مايو تكون زهرة الخشخاش قد نضجت وأصبحت جاهزة لأن تتحول إلى أفيـون خام؛ من ثم يُزرع الحشيش. أمـا الآن، أي في الصيف، فـقـد نمت شـجيـرات القِنب وزادت كثـافتـهـا، فـصار طول الشـجيـرة يزيد على طول الرجل. ومع أن المزارعين يتنازلون للقائد العسـكري، لقاء حمايته لهم، عن نصف محصولهم أو عوائدهم المالية، إلا أن ما يتبقى بحوزتهم يكفي لأن يتمتعوا بمستوى معاشي لا بأس به. وفي حين ينقطع التيار الكهربائي في مزار الشريف باستمـرار مساء، تتوافر القرى المحيطة بالمدينة على الوفير من التيـار الكهـربائي وذلك لأن العوائد الماليـة التي تدرها زراعة المخـدرات أمست تمكن المزارعين من اقـتناء المولدات الكهربائية وما سوى ذلك من معدات.

من هنا، لا عجب أن تتكاثر مزارع القنب المعتمة الخضرة، على مـدى البصـر، على جـانبي الطريق المؤدية من مـزار الشـريف إلى بلخ وتركمـانسـتـان. ويحدث هذا كله على مـرأى من الأمـريكيين والبـريطانيين المعـسكرين في مـزار الشريف والمنظمات التابعة للأمم المتـحدة المناط بها المساعدة في تعمير البلاد، علمـاً بأن العديد من هذه المنظمات يعمل في مزار الشـريف أيضا. فالسـيارات تتنقل هنا بكثـافة لا تخـفى على العين. أضف إلى هذا أن مزارع الخـشخـاش وشجيـرات الحشيش بينة واضحـة لا يمكن للمرء أن يخلط بينها وبين نباتات أخرى. هذا ولم يعد، هنا، مزارع واحد يزرع الحبوب؛ فحـتى وإن تطلع المزارعون لذلك، فإنهم لا يستطيعون منافسة القـمح المستورد من البلدان الصناعية لأن أسعـاره مدعـومة دعمـاً كبيـراً من موارد حـكومات هذه البلدان. من هنـا، وإلى جـانـب المخـدرات، يزرع المرء الفاكهة والخضار، فـقط، وذلك سداً للحاجة الذاتية؛ فمن بين أدغال الحشـيش، التي تفصح حالتهـا عن مدى العناية الفـائقـة التي بذلهـا المرء من أجلهـا، نعم من بين أدغـال الحشيش هذه يرى المرء هنا وهناك مزارع البطيخ وقد تميزت بمحصولها الأصفر اللون وبجفاف أوراق نباتاتها.

"ما الذي يدعـوني لأن أزرع الحبوب؟"، راح يسـأل غلام رضا، الفـلاح الذي يزرع مخـدراته للكفار. "يبلغ العائد الذي أحصل عليـه لقاء كيلو من القمح، بالكاد، خـمسة أفغاني، أمـا عائد كيلو الأفيـون فإنه يصل إلى ١٢٠٠٠. حينما يتعلق الأمر بـالمال، لا مراء في أن كل واحد سيفكر بنفسه أولاً. والأمر الذي تجـدر ملاحظتـه هو أن الفلاح، المجبر على اقتسام عوائده مع "ولي أمره وحاميه" الجشع، يحتـل أدنى مرتبـة في السُّلم؛ فإلى أن يتـحول الأفـيـون،

الذي يدر على المزارع مبلغاً يساوي ٢٤٠ دولاراً للكيلو غرام الواحد، إلى هيروين وإلى حين وصوله ليد المستهلك في الغرب، ستغرف زمر غفيرة من الوسطاء أرباحاً خيالية. وكانت أسئلتي قد استرعت انتباه صاحبنا فصار يرتاب من أني، شخصياً، أود اقتناء الأفيون. ومع أنه كان قد أكمل حساباته الخاصة بالإنتاج الأخير مع مندوبي القائد العسكري، إلا أن هذا لم يمنعه من الاحتفاظ بكمية يختزنها لمواجهة الطوارىء. لكن غلام رضا لا يزال مرتاباً في الأمر: فماذا سيحدث يا ترى لو أن الغريب قد أراد أن يتجسس عليه؟ وماذا لو وصل إلى سمع القائد العسكري أنه لا يزال يتوافر على شيء يريد بيعه وطالبه بحصته إثر ذلك؟ وبحذر وخوف شديدين اصطحب غلام رضا، أخيراً، الزائر إلى قريته المحاطة بالمزارع والتي تبعد عن الشارع العام مسافة غير قصيرة. وكان هناك منزل يتصف بكل صفات منازل الفلاحين: من الخارج لا يرى المرء سوى جدار عال مشيد بالطين ويحيط بالمنزل الصغير من كل الجهات؛ أما في الداخل، فهناك عدة غرف مفتوحة على فناء الدار وملتصقة بالجدار يميناً وشمالاً. وترتع، في فناء الدار، بسلام ووئام بقرة وعدد من الماعز وكثير من دجاج راح يدخل ويخرج من الغرف بين الحين والآخر. وتكومت في إحدى زوايا غرفة النوم، تبعاً للعادة الأفغانية، فرش النوم: لُحُف من كل لون تُطوى في النهار ويَلتحف بها القوم في الليل وهم يتمددون على الأرض. وبتأوه مسموع ينحني رضا غلام فيخرج من أسفل الكومة، بعناء بيِّن، لِفافة ربطت بالخيوط بمهارة بالغة. وبعدما راح يرفع عنَ اللفافة عدة طبقات قماش، ظهر للعيان، أخيراً، قالب أفيون خام بني اللون يميل إلى السواد ويزن حوالي أربعة كيلو غرامات. بهذه الهيئة يبيعها المنتج؛ وللاستهلاك المحلي تُمط الكتلة ثانية حتى تتحول إلى هيئة حبال يستطيع المدخن، من بعد، أن يستقطع منها قطعاً صغيرة. وبناءاً على السعر الذي طلبه الشيخ العجوز تبلغ قيمة الأفيون الموجود أمامنا حوالي ١٠٠٠ دولار. ولكن، أهذه هي كل الكمية الموجودة لديه؟ كلا، أجاب غلام رضا وراح يقول شارحاً أنه باع خمسة عشر كيلو غراماً في هذا العام. وأنه يريد، في العام القادم، مضاعفة المساحة التي يزرعها ثانية. وللمقارنة: في أفغانستان يحصل المعلم على راتب يبلغ ما يساوي ٣٣ دولاراً في الشهر؛ المزارع الطاعن في السن يجني من الأفيون الذي ينتجه في العام الواحد عائداً يبلغ قرابة ٣٨٠ دولار في الشهر. وحتى لو تقاسم العائد مع قائد المجاهدين، لتبقى لديه خير وفير بكل تأكيد. ولا مراء في أن هذا يوضح بجلاء سبب فشل كل الجهود التي بذلتها الأمم المتحدة، حتى الآن، للحد من زراعة الأفيون: فالمبلغ الذي يريد المفتشون دفعه للمزارعين الذين يدمرون حقولهم التي يزرعون فيها زهرة الخشخاش يبلغ، بالعد والتمام، خمسمائة دولار فقط.

في عام ١٩٩٩، أي في السنة التي سبقت آخر سنوات حكمهم، أنتج الطالبان ٤٨٠٠ طن من الأفيون. بالنسبة للعام ٢٠٠٢ تقول الأمم المتحدة إن الإنتاج حطم الرقم القياسي، إذ بلغ ٥٠٠٠ طن؛ أما بشأن العام الحالي فإن المنظمات الدولية المناط بها المساعدة على إعادة أعمار البلاد تهمس بأن الإنتاج سيزيد على ٧٠٠٠ طن. إلا أن ضابط الشرطة كبير المقام في مزار الشريف يقول، بعدما أصر على أن يبقى اسمه مجهولاً، بأن على المرء أن يأخذ في الحسبان أن الكمية المنتجة ستزيد على ١٠٠٠٠ طن، وأنها ستتضاعف في العام القادم، مرة ثانية، على ما يبدو. وأدلى ضابط الشرطة بملاحظاته وذلك لأنه كان قد جلب على نفسه مصاعب جمة في سياق خلافاته مع بارونات الأفيون المحليين. فهو كان قد وثق بالبلاغات التي أعلنتها الأمم المتحدة ولذا فإنه أراد أن يكون في مقدمة المتصدين للمتاجرة بالمخدرات. وكان قد عثر في مخزن «إسرار تاج غورجهاني»، رجل الأعمال المعروف والذي يقال عنه أنه يمتلك ثروة تقدر بعدة ملايين من الدولارات، على كمية هيروين صاف تزن ١٣٠ كيلو غراماً وبقيمة تقدر بما يزيد على مائة مليون دولار في السوق العالمية. ومع أنه كان قد أبلغ الأمريكيين والقنصليات الأجنبية، إلا أن مافيا المخدرات المحلية استطاعت أن تغطي على الفضيحة. وهكذا فلت رجل الأعمال من الأمر سالماً آمناً، أما الشرطي الساذج فقد جنى الزجر واللوم وأمراً صارماً مفاده ألا يتدخل، مستقبلاً، في مثل هذه المسائل.

وإذا ما افترض المرء أن الإنتاج المتحقق في هذا العام سيساوي ٧٠٠٠ طن، فسيبلغ عندئذ الربح، المتواضع، الذي سيحققه صغار مزارعي الأفيون ما يقرب من ١,٧ مليار دولار. وفي المحيط الديبلوماسي يتحدث المرء بأن في أفغانستان فقط تدخل في كل عام - وبغض النظر عن الأرباح التي يجنيها التجار المحليون والأجانب - خمسة مليارات من الدولارات في جيوب الأفغان المهيمنين على مصائر الأمور المحلية وذلك من خلال زراعة الأفيون وإنتاج الهيروين وتهريب المخدرات. ومقارنة بهذا، فقد بلغت قيمة المبالغ التي تعهدت بدفعها الجهات المانحة في مؤتمر طوكيو الأخير والمخصصة لإعادة أعمار البلاد ٤,٥ مليار دولار - ولكن للسنوات الخمس القادمة؛ هذا وسيوزع ثلثا هذا المبلغ على منظمات الإغاثة وثلث فقط سيكون من حصة الدولة الأفغانية. وإذا ما أخذ في الاعتبار أن جزءاً من هذا المبلغ سيتوارى عن الأنظار ويختفي في جيوب بعض القوم، عندئذ سيتضح للمرء مغزى ما يقصده الأفغان

حينما يزعمون بسخرية تشوبها المرارة أن جهود إعادة الأعمار ترمم الطبقات العليا من دارهم فقط.

وتطورت في أفغانستان ثقافة مخدرات شملت كافة فئات الشعب. وبخليط من الإحباط والاحتجاج العنيد ـ لمَ لا يشاركون هم أيضاً بالثروة التي تدرها الأرض حقاً وحقيقاً ـ بدأ المواطنون يكيفون أنفسهم مع الحال السائدة. وبفخر واعتزاز يتحدث والدا معصومة عن البراعة والمهارة اللتين تحظى بهما ابنتهما البالغة من العمر تسع سنوات. فالصبية كانت تتطلع للحصول على جهاز فيديو، إلا أن العوز المادي حال دون تحقيق تطلعها. وهكذا راحت الصبية الصغيرة تزرع الخشخاش في فناء المنزل. وتتحدث الصبية عن نفسها فتقول: "كنت في صبيحة كل يوم وقبل ذهابي إلى المدرسة أسقي الزرع بالماء وأزيل عنه الأعشاب الطفيلية." في عملية الحصاد، فقط، ساعدها والداها. وتواصل الصبية حديثها فتقول: "أما الآن فإنني أود الحصول على كاميرا وجهاز تسجيل صوتي. ولذا فإني سأزرع ما هو أكثر من هذا في العام القادم."، وتعين على بشير، البالغ من العمر سبعة عشر عاماً والطالب في الصف الحادي عشر من المدرسة الإعدادية، أن ينهض، بعد والده على نحو مفاجئ، بتدبير لقمة العيش للوالدة وللأخوة والأخوات الأربعة الصغار. ولكن، ولما كان الأب قد أورثه بضعة أراض صغيرة، لذا فإنه أقبل على زراعة الأفيون، فحقق عائداً بلغ ٨٠٠٠٠ دولار في هذا العام.

ولم يقتصر الازدهار العظيم الذي حققته زراعة المخدرات على الشمال فحسب، بل هو عم البلاد قاطبة. ويكاد أن يخصص هذا الإنتاج الكبير للتصدير فقط. وهناك العديد من المسالك الكبيرة للتهريب تمر من شمال أفغانستان إلى طاجيكستان ومن الشمال الغربي إلى هيرات وتركمانستان وإيران، حيث يشارك حراس الثورة بجني أرباح عظيمة من تجارة المخدرات، بالإضافة إلى هذا هناك مسالك أخرى تقود، عبر قندهار أو عبر الطرف الشرقي، إلى باكستان. وعبر قوندوز وتاخار وبواسطة قوافل الجمال يُنقل غالبية الأفيون القادم من منطقة مزار الشريف إلى طاجيكستان، حيث تكون مافيا المخدرات الروسية بانتظار الأفيون.

وكان مقصدي التالي هو قوندوز. وكان أحد القوم في مزار الشريف قد قال ليَّ ناصحاً، بأني إذا كنتُ أريد أن أرى بأم عيني أحد مسالك التهريب هذه، فإنه يتعين عليَّ أن لا أسلك طريق «سالان»، بل يجب علي أن أسلك طريق القوافل المسمى «إيرغاناك»، الذي يوصلني، بعد ١٣٠ كيلو متراً، إلى قوندوز. وفي هذا الاتجاه، وحالما يغادر المرء المدينة، لا شيء هناك سوى الصحراء. الزراعة هنا غير ممكنة وذلك لعدم توفر الماء. وهكذا يعم اللون البني الفاتح الشبيه بلون الطين التلال المتزايدة الارتفاع رويداً رويداً والوديان العميقة. وكانت معالم الدرب، غير المعبد والذي بانت معالمه من جراء مرور السيارات المخصصة لقطع الطرق الوعرة، تختفي عن الأنظار باستمرار. فهذه الأرض، المقفرة الخالية من البشر والتي لا تزال توجد فيها ألغام خلفتها حروب العقود الأخيرة من الزمن، لا أثر فيها لأحد غير المهربين. فليس هناك سبب آخر يغري المرء بعبور هذه المنطقة، فلا قوى الشرطة الأفغانية ولا مقدمو العون الأجانب يجرؤن على القدوم إلى هنا. بهذا لا أحد يُخضع هذه المنطقة للتفتيش.

ومن حين لآخر يرى المرء من على البُعد قافلة جمال محملة بمتاع ثقيل الوزن؛ كما ويشاهد الجمال وهي تتسلق، بتؤدة، التل أو تنحدر في الوادي. وعلى مسافة تبعد عشرين أو ثلاثين كيلو متراً من قوندوز يقود الدرب الوعر إليها، وبشكل مفاجئ حادت القافلة، التي كنت أراقبها منذ حين، عن الطريق، فمالت باتجاه أحد الوديان: على هذا النحو تجنب المهربون المدينة فداروا من حولها. ومن هنا يواصلون سيرهم باتجاه نهر آموداريه، الذي يشكل الحدود مع طاجيكستان.

وإذا كان هدف مافيا المخدرات الأفغانية يكمن فعلاً، لا في جني عوائد تبلغ المليارات فحسب، بل وفي تسميم الكفار أيضاً، فلا ريب في أنها قد أحرزت نجاحاً باهراً في السنوات الأخيرة: فحسب ما يقوله مفتشو الأمم المتحدة المختصون بالمخدرات، تصدر أفغانستان حالياً ٧٠ بالمئة من المخدرات المستهلكة في أوروبا و٤٠ بالمئة من الهيروين المتداول في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي الواقع، لم يستثنى من ذلك ولا حتى الأخوة في الإسلام. ففي البلد الجار باكستان هناك، حسب ما يقال، خمسة ملايين مدمن على تعاطي المخدرات، أما في إيران فإن الإدمان ينتشر انتشار النار في الهشيم، فالهيروين أزهد ثمناً ها هنا من الحشيش. وحتى في البلدان الإسلامية الواقعة في أواسط آسيا، وهي بلدان ما كان بها مدمن إلا بالكاد قبل انهيار الاتحاد السوفيتي، انتشر تعاطي المخدرات فبلغ عدد المدمنين فيها عدة ملايين، حسب ما يُقال.

إثر نشوء الفراغ السياسي الذي خلفته الضربة العسكرية الغربية، تطورت أفغانستان إلى معمل المخدرات العالمي. لقد ظلت التصريحات بشأن إعادة الإعمار والديمقراطية كلمات جوفاء. فالمروج المزدهرة التي وعد بها جورج بوش الأفغان، تتكون من مزارع الخشخاش الكبيرة ومن حقول القنب المتموجة.

ترجمة: عدنان عباس علي

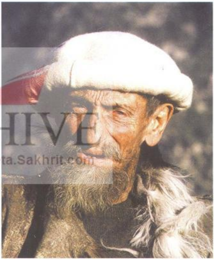
ماكس كليمبورغ Max Klimburg

بين الأسطورة والواقع

من كافرستان إلى نورستان

"ليس الكافر قاسيا بالسليقة، رغم اعتقاده بأن قتل المسلم فضيلة تنسجم مع مبادئ دينه ورغم أنه لايستثني حياة امرأة أو طفل في غاراته على الأراضي المعادية ولا يقيم لحياة الإنسان قيمة تذكر. ويصاب بالدهشة كل من يعرف مبلغ وحشيته ويقارنها بتحرره النسبي من القسوة".

هذا ما كتبه الطبيب البريطاني (السير) جورج سكوت روبرتسون بعد أن قضى سنة بين هؤلاء «الكفار»، الذين





رجال نورستان، تصوير: Max Klimburg

ذاعت شهرتهم بين التضاريس الجبلية لشمال - شرق أفغانستان كوثنيين قساة تواقين لقتل المسلمين.

تقرر مصير هؤلاء "الكفار المتوحشين" في شتاء ١٨٩٥/٩٦ حينما غزا الجيش الأفغاني كافرستان، "أرض الكفار"، بهدف تحطيم هذه الثقافة القديمة، التي تضرب جذورها في الماضي ما قبل المسيحي البعيد، وتحويل الكفار إلى مسلمين. ولم توفر النيران، بعد أن أتت ألسنتها على المعابد والأضرحة وأماكن العبادة والأصنام الخشبية، سوى بضعة أصنام وعدد وافر من تماثيل الأسلاف التي وثقها روبرتسون. (تم نقل اكثر من ثلاثين تمثالا خشبيا منها عام ١٨٩٦، أو بعد هذا التاريخ بقليل، إلى البلاط في كابول بمثابة «غنائم»، وجرى خزنها في قصر الأمير. منح ١٤ منها بعد ذلك إلى متحف كابول و ٤ إلى متحفي «غيميه Musée Guimet» و «دي لاهوم Musée de l'homme» في باريس. وأرسل الملالي إلى المنطقة كي يعيدوا تثقيف سكانها الذين كشفوا، في غالبيتهم، عن تشبث كبير بمعتقداتهم التقليدية ونظامهم الاجتماعي. تمرد الكفار الذين يقطنون شمال غرب المنطقة، والمعروفون باسم «كاتي Kati» الغربيين، على أسيادهم الجدد، فتم نفيهم في الحال إلى مناطق غير بعيدة عن كابول وحظرت عليهم العودة إلى وطنهم طوال عشرين سنة. ومنح وطن الكفار، كافرستان السابقة، اسما يشي بالتنوير الذي نشره الإسلام هو «نورستان» أو «بلاد النور» أو «أرض التنوير».

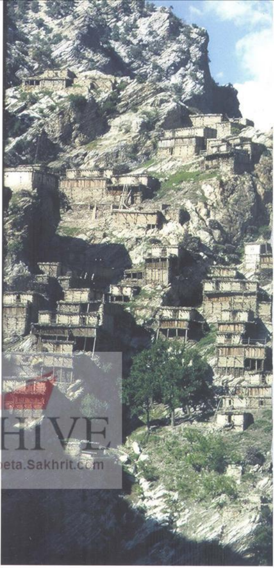
ظهر إلى الملأ كتاب روبرتسون الشهير «كفار الهندوكوش» بالصدفة في تلك السنة المصيرية بالذات. عاش هذه الانكليزي المغامر والشجاع، الذي يعمل لحسابه الخاص ولكن بتفهم من الحكومة البريطانية - الهندية ، سنة كاملة تمتد بين ١٨٩٠- ١٨٩١ مع كفار كاتي الشرقيين في



قرية جبلية في نورستان، تصوير : Max Klimburg

وادي «باشغال» حاضر عنهم بعد ذلك في لندن عارضا الصور التي التقطها بـ «الفانوس السحري» ـ التي فقدت مع كل أسف ـ، ومدونا العديد من القصص الشخصية الحكوية المفصلة والمزوقة بالملاحظات عن نظام معتقدات الكفار المحليين وعاداتهم وحياتهم اليومية. وحقق كتابه هذا نجاحا كبيرا وقتئذ لكونه وصف شاهد العيان الأول والأخير للكفار. ولهذا فقد استقبلت الأخبار التي بلغت انكلترة، بعد فترة قليلة من نشر الكتاب، عن قسر الكفار على الإسلام بمظاهر عالية من الاحتجاج والحزن. إذ نجح روبرتسون في تقديم صورة ساحرة عن الكفار فشلت كافة مشاهد سفك الدماء التي سردها عنهم في تجريد خسارة كافرستان من معنى التفريط بثقافة «بدائية» حيوية ومثيرة.

اسدلت الستائر بعدئذ على الموضوع بعد أن أوقف حكام أفغانستان إجراء المزيد من الأبحاث الانثروبولوجية في نورستان. سمح في نهاية المطاف عام ١٩٣٥ لبعثة ألمانية متعددة الاختصاصات العلمية، رعتها مؤسسة الأبحاث الألمانية، في سبر غور المنطقة بحرية. وتمخض عمل البعثة عن اكتشاف الكثير من المعطيات الأنثروبولوجية الطبيعية والإثنية العامة. ولم يظهر أي بحث ميداني متخصص إلى



الوجود إلا بعد الحرب العالمية الثانية على يد علماء دنماركيين قادوا مجموعة صغيرة من علماء الأعراق البشرية واللغات. ويأتي عالم النبات الدنماركي لينارت ايدلبيرغ Lenart Edelberg وعالم اللغات الهندية النرويجي ج. مورغنشتيرنه G. Morgenstierne، عالم اللغات الهندية الألماني جورج بودروس Georg Buddruss وكاتب هذه السطور، الذي يعتبر مؤرخا وعالم أعراق، في مقدمة العلماء المهتمين بالدراسات والأبحاث الميدانية حول كافرستان/ نورستان. وبدعم من مؤسسة الأبحاث الألمانية، أخذ الكاتب عام ١٩٧١ على عاتقه مهمة مسح معظم أنحاء نورستان تقصيا لآثار ماضيها الكافر ثم تابع العمل لاحقا من خلال البحث المحلي المكثف.

إنها لحقيقة مذهلة بالفعل أن ينجح من يطلق عليهم لقب الكفار بالاحتفاظ بمعتقداتهم الضاربة في القدم وبتقاليدهم «البدائية» حتى نهاية القرن التاسع عشر رغم العالم الاسلامي المحيط بهم. ولا شك بأن سر ديمومتهم الثقافية يعود في الأساس إلى عزلتهم في الوديان الملتفة الأشجار والشديدة الانحدار بعيدا عن طرق التجارة الهامة التي تربط آسيا الوسطى بالهند. هذا إضافة إلى سمعتهم كبشر نازعين للقتل التي أسهمت بالتأكيد في ردع الغزاة المحتملين.

يحتل وطن الكفار، كافرستان/ نورستان، المكسو جزئيا بالغابات الكثيفة، مساحة تبلغ نحو ١٢ ألف كم مربع من الأرض الممتدة بين الجزء الجنوبي من جبال الهندوكوش وشمال شرق أفغانستان، وبين الحدود الباكستانية في الشرق ووادي بانجشير في الغرب. ويخدد هذه الأرض، التي تسيل فيها مياه أنهر «اليشنغ» و «الينغار» و «بيتش» و «باشغال» وفروعها (من الغرب إلى الشرق)، عدد لا يحصى من الوديان البالغة الانحدار والمحاطة بالجبال التي ترتفع باطراد كلما توغلنا باتجاه قمة سلسلة جبال الهندوكوش الرئيسية.

ويبلغ عدد سكان المنطقة في الوقت الحاضر نحو ١٥٠ ألف نسمة يعيشون في خمس قرى كبيرة هي: «كامديش»، (حيث عاش روبرتسون) و «نيشيغرام» و «وايغال» و «واما» و «زهونشيغال»، التي يشتمل كل منها على نحو ٣٠٠ ـ ٥٠٠ منزل، إضافة إلى عدد وافر من المستوطنات الأصغر، والأخرى البالغة الصغر. وبنيت معظم هذه القرى بشكل مدرج على السفوح المنحدرة و بما يوفر ما يكفي من الأرض الصالحة للزراعة. وللبيوت المربعة الأحادية الغرف عادة (مع قبو)، والمبنية من خشب أشجار الأرز التي كانت جبال الهمالايا مصدرا غنيا لها يوما، هياكل من الخشب تمنحها في مختلف المناطق شكل سقالات لولبية. وهذا يعني أن تصاميم البيوت مناسبة تماما لمقاومة الهزات الأرضية. يرتكز الاقتصاد في المرتبة الأولى على الرعي والزراعة القائمة على موسم حصاد واحد في الوديان العليا. يعتني الرجال هنا بالمواشي التي تتألف في الغالب من الماعز الذي يعتاش في الشتاء على أوراق شجر السنديان المقدس. أما في الوديان العليا فيسود اقتصاد تنسيل الماشية. وينتقل الرجال مع حيواناتهم كل صيف إلى المروج العليا ليعودوا بعدها في الخريف إلى واديهم. وكان القوم يتمتعون عادة بموسم الهجرة المذكور بسبب غناء مصادره من الحليب والزبدة والجبنة، إلا أن الاهتمام بحياة الرعي قد علاه بعض الصدأ هذه الأيام. ونادرا ما يشارك الرجال في أعمال الزراعة التي تقوم بها النساء عادة.

ويزرعون في الوديان الجنوبية (الأوطأ) سطيحات منحدرة صغيرة من الأرض غير الصالحة لاستخدام المحراث فيها.

ان الخصائص الثقافية للكفار، بدءا بلغتهم ومعتقداتهم الدينية، وانتهاء بأشكال فنونهم وهندستهم البنائية، محلية ضيقة، وتفوق في ذلك توقعات المرء وإن وضع في عين الاعتبار العزلة النسبية للوديان عن بعضها. ويمكن تمييز أربعة اشكال من الثقافات المحلية المتميزة وفقا للغات الأربع المختلفة السائدة في المنطقة. وهي ثقافات كفار «الويغال» و «الاشكون» في جنوب المنطقة، ثقافة «الكاتي» في شمال ـ غرب وشمال ـ شرق المنطقة وثقافة «البارون» بين ثقافتي مجموعتي «الكاتي» المذكورتين. وهناك ثقافة محلية خامسة هي ثقافة كفار «الكلاشا»، الذين يتحدثون لغة شمال غرب الهند. وقد نجا الأخيرون من حملة القسر على الإسلام التي قادها الجيش الأفغاني بفعل استيطانهم في «شيترال» الواقعة في شمال ـ غرب باكستان، خارج مناطق كافرستان/ نورستان. ويوفر هؤلاء للباحثين مثالا حيويا عن العادات المماثلة إلى حد ما للتقاليد الثقافية المتميزة الحالية لمجموعة كفار كاتي الشرقية التي تعيش على الجانب الآخر من الحدود بين باكستان وأفغانستان.

وواقع الحال أن كفار كاتي الشرقية، من سكان وادي باشغال، هم المجموعة التي طغت شهرتها آفاق كل العالم من خلال تقرير روبرتسون التفصيلي. عدا عن ذلك، فقد قام روبرتسون بزيارة قصيرة إلى كفار البارون، وهي زيارة لم تنجح، لشدة قصرها، في تقديم اكثر من بعض الملاحظات، ناهيكم عن الوصف التفصيلي لمعبد كافرستان الرئيسي الذي كان ينتصب مرة في قرية «كوشتيكي» في قلب البارون. واكتنف الغموض ثقافة كفار الويغال والاشكون إلى أن شرع البعض في بحث ميداني هناك عام ١٩٦٠. اما كفار كاتي الغربية، الذين عاشوا بحدود مشتركة مع الطاجيك في وادي «بانغشير»، فقد ظلوا خارج نطاق البحث. هذا، لأنهم لم يثيروا اهتمام أحد بعد أن فقدوا جزءا عظيما من تقاليدهم القديمة جراء حياة المنفى الطويلة التي عاشوها اثر تمردهم على أسيادهم المطلقين الجدد.

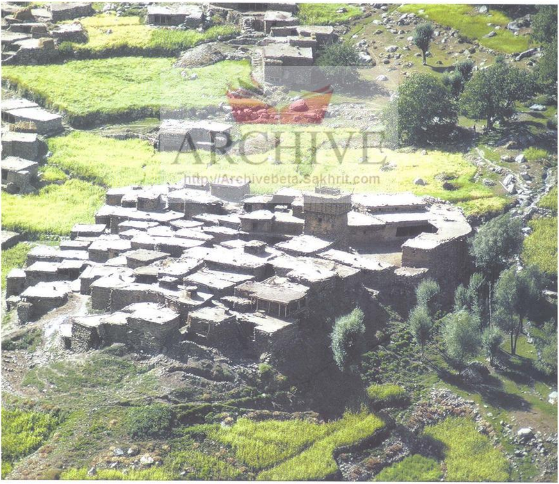
تتميز ثقافات الكفار المختلفة عموما بالإلحاد، بمفاهيم متزمتة عن الطهارة والنجاسة وبمنظومة عالية التطور من احتفالات ـ الاستحقاق الدينية المرتبطة بثقافة المحارب التي تعبر عن طقوس صيد رؤوس الأعداء. إلا أن دور الدين وأهمية الحالة الاجتماعية للفرد تختلفان بوضوح بين مختلف الثقافات المحلية. بل أن بوسع المرء هنا الحديث عن تباين قطبي إذا ما ناظر ثقافة كفار البارون بثقافتي كفار الويغال والاشكون. وينبغي هنا وضع ثقافة الكاتي بين الثقافتين المذكورتين بحكم اشتراكها بخصائص هامة مع الاثنتين.

آمن الكفار بعدد وافر من الآلهة التي غالبا ما تذكرنا أسماؤها بمصادر آلهة الايرانيين والفيداويين Vedic والهندوس القديمة. كانوا يؤمنون بإله أعلى هو «مارا» أو «إمرا»، إضافة إلى عدد كبير آخر من الآلهة والآلهات الأقل شأنا المعروفة محليا بأسماء: «ماندي» أو «ماني»، و «وشوم» أو «شومدة»، «غيش» أو «غيويش»، «باغيشت»، «إندر»، «زوزوم»، «ديساني»، «كشومايي» أو «كيمة»، ...إلخ. وكان لكل قرية ولكل عشيرة إلهها الحامي بالإضافة إلى كهنة «شاما»، يسدون المواعظ للباحثين عن الحظوة عند الإله ورهبان يقومون على الخدمات الدينية. وركزت العبادة على التضحية بالحيوانات، التي يشكل الماعز معظمها، وعلى التطهير تقربا من الإله بتأثير دخان المشعلات (وهي نيران كبيرة تضرم في الهواء الطلق) الذي ينطلق عن حرق أوراق العرعر الممتزجة برائحة الدم المحترق وزبد الحليب.

واكتسب وادي كفار البارون، الذي يسكنه اليوم نحو ٣٠٠٠ إنسان متوزعين على ست قرى، "أجواء دينية متميزة"، لشدة اهتمام سكانه بأفكارهم الدينية وأساطيرهم (روبرتسون). فقد سادت ذهنية عامة من الاهتمام بالعالم العلوي الذي كان يجري تصوره في الغالب، كما تخبرنا ذلك العديد من الأساطير المطولة، كعالم يحكمه عدد كبير من الآلهة والعمالقة المشاكسين. ويحتل معبد «مارا» في كوشتيكي مركز الوادي، وهو أكبر معابد كافرستان الدينية على الإطلاق ويجتذب الحجيج الراغبين بتقديم الأضاحي إلى الإله من كل أرجاء المنطقة. هذا إلى جانب العديد من المعابد الأصغر والأضرحة ومعابد ـ العشائر، التي تحمل اسم «أمول»، والتي تنتشر في كل مكان. والـ «أمول» هي بيوت تمتلكها العشائر ويسمح لكاهن العشيرة «مونت» بالسكن فيها وتقديم الخدمات الدينية للسكان إلى أن يفقد شعبيته يوما ويجرى استبداله بكاهن آخر. والمدهش في الأمر هو أن معظم هؤلاء «المونت» عاشوا حتى السبعينات ولم يصبهم أي مكروه، ونقلوا معهم ألواحا منحوتة بأشكال الآلهة، وإن كانت قد شوهتها ضربات الفؤوس. احتوت معابد «أمول» في كافرستان، في الماضي، على تماثيل خشبية منحوتة قائمة بذاتها تصورالآلهة، الآلهات في العادة، وتؤدي وظيفة التماثيل الدينية المعبودة. وتصور الآلهة عادة وهي جالسة على الماعز أو على الكراسي عدا عن الإله الأعلى «مارا»، الذي يصور ممتطيا صهوة جواد. وكتب روبرتسون أن الأشكال المنحوتة على الألواح، وكذا التماثيل الحرة، بدت غريبة برؤوسها الضخمة الجالسة على أجسادها البليدة العديمة الأعناق، بل غريبة إلى حد "المفارقة المدهشة".

وفي تباين قطبي تقريبا مع الحماسة الدينية لشعب البارون، المنطوي على الذات بعض الشيء، نرى أن الاهتمام الأساسي لكفار الويغال والاشكون، المنفتحين بالأحرى، ينصب على الحالة الاجتماعية. ونجد الرجال، البالغي الاهتمام بمظاهرهم ورجولتهم (يرفضون كمثل حمل أي شيء على ظهورهم)، يزايدون على بعضهم بإقامة الولائم الكبيرة في الأعياد الدينية وفي اجتراح مأثر المحاربين بهدف اكتساب الاحترام اللائق "برجل عظيم". ويتسنى للمحاربين العظام، المعروفين باسم «باتور» أن يمجدوا أنفسهم من خلال نصب منحوتات انتصارية بارتفاع الأشجار يتوجها شكل بشري نمطي، وذلك بعد أن ينجحوا في الإيفاء باحتياجات ولائم الأعياد الدينية الكبيرة. وتثبت الأوتاد على جانبي المنحوتة لتصوير أعداد البشر الأعداء الذين فتك الباتور بهم أو عدد ضحاياه العاديين من نساء وأطفال. وكانوا يبتنون لأنفسهم البوابات والأضرحة البسيطة ويغنون واجهات ودواخل بيوتهم بالمنحوتات. وتستخدم المنحوتات الأساسية الأربع التي تحيط بالموقد والتي تعلق على الجدار الخلفي للبيت كحافز يعرف بالمرتبة الاجتماعية لصاحب البيت. وأبرز هذه المنحوتات هي ديكورات الرؤوس البشرية الشبيهة بالقرون، والتروس أيضا في اكثر هذه المنحوتات جدة. ومن الممتلكات الأخرى الباعثة على الهيبة هي «كراسي الشرف» الشبيهة بالعروش والمزودة بظهر مزدوج، طاولات الحديد المطاوع المزودة بثلاث قوائم او أربع، التي تذكر بالأشياء المصنوعة في اليونان القديمة، وكؤوس النبيذ الفضية الكبيرة التي تعتبر من أهم معالم ثقافة الكفار

قرية في نورستان، تصوير: Max Klimburg



الاحتفالية. ونالت هذه الكؤوس، التي اكتشفت عام ١٩٥٥ ونشر عنها لأول مرة عام ١٩٦٥، اهتماما ظاهرا ليس بسبب فنها الرفيع فحسب، وإنما بسبب تماثلها مع الكؤوس المرسومة على جدران آسيا الوسطى والتي تمثل مآدب الارستقراطية «السوغادية» في الفترة التي تسبق القرنين الخامس والثامن. وبهذا تكون المادة الثقافية بأسرها مكرسة للتعريف، وبأكثر قدراتها على الاقناع، بالمرتبة الحقيقية التي حققها الفرد من خلال مآثره.

وتستعرض الحالة الدنيوية والبطولية في ثقافة الكاتي في الجزء الشرقي من المنطقة بطريقة أرفع شأنا ترتكز إلى إبراز النخبوية القائمة على الأساس العائلي. فبيوت «العوائل الكبيرة» تبنى كي تؤثر في الآخرين من خلال حجمها وديكوراتها المنحوتة الغنية بتعقيداتها وتشابكها وليس بتأثير المنحوتات الخاصة بالكشف عن مرتبة الفرد. وتتمتع تماثيل الأسلاف من الرجال والنساء هنا بأهمية خاصة بلغة التعبير عن الغنى والتقاليد العائلية والحالة الاجتماعية الراسخة.

وفي حين تسود في غرب منطقة الكاتي صورة ثقافية مماثلة، نجد بالمقارنة، أن تماثيل الأسلاف غير معروفة عند الويغال والاشكون لأن الحالة الاجتماعية قد فقدت ببساطة، بسبب احتلال عائلة واحدة في البارون للمركز الاجتماعي الحقيقي، بعد أن خصها الإله الأعظم بالحظوة بالطبع، وفشلت العوائل الأخرى في منافستها.

ويعتبر النحت المحفور الذي يمثل شكلين متشابكين أو منتصبين في حالة عناق جنسي من أهم المعالم المتفردة لثقافة الاشكون والكاتي الغربية أيضا. ويصور هذان الشكلان بوضوح في العديد من الحالات كذكر وأنثى وكشكلين غير متميزين جنسيا في حالات أخرى. ويزن هذان الشكلان، اللذان يتراوح حجمهما عادة بين ٥٠ ـ ٦٠ سنتمترا، تيجان «كراسي شرف» أو «دكات شرف» ذات حجوم تتجاوز المعتاد. ولأن أيا من هذه الكراسي لم يسلم من الدمار كي نراه، فيمكن الافتراض بأن الشكلين المنحوتين كانا جزءا من «كراسي شرف» هدفها تمكين الزوجة، إذا كانت نفسها أهلا للتقدير، من الجلوس إلى جانب زوجها «الرجل الكبير».

يمثل تصوير هذين الحبيبين الرمزية الجنسية الكلية الوجود التي سادت يوما بين الكفار. وهو تصور نشأ من صلب النظم الإيمانية التي تعتقد أن العالم وليد الممارسة بين الجنسين، والذي يفسر أيضا ثنائية الطقوس القائمة على تناقض «الطاهر» و«النجس»، أو على نفس الشاكلة تناقض «الجبل» و «الوادي». وعلى هذا الأساس كان الرجال والماعز، وخصوصا الماعز الجبلي من نوع «مارخور» يصنفون كطاهرين، ويعامل الصبيان الذين لم يمارسوا الجنس مع النساء بعد كأطهر المخلوقات. أما النساء عموما فكن يصنفن كـ «نجسات» لأنهن يصبحن بانتظام عامل «تلوث»، للطقوس أيضا، في أوقات الحيض والولادة. وكان عليهن في هذه الأوقات أن ينتقلن إلى بيوت معزولة مخصصة للحيض والولادة تم بناؤها في ضواحي القرية ويحظر على الذكور دخولها.

فالكفار في هذه الحالة يعزون أي نجاح مادي أو اجتماعي إلى التفاعل الخيّر بين هذين العالمين وإلى التقيد بقوانين الطهارة. بل ينفرد الرجال حتى اليوم بوظيفة تربية الحيوانات، ولا يحق سوى للرجال مرافقة الماشية، وخصوصا الماعز، إلى المراعي الجبلية وإلى عالم «المارخور» البري الذي تسود سمعته كحيوان بالغ الطهارة والفحولة. ويقع على النسوة البقاء داخل الوديان «النجسة»، وأن يشغلن أنفسهن بالزراعة والأعمال المنزلية «القذرة».

وكان العمال اليدويون يصنفون كأفراد «نجسين»، يختلفون اثنيا وجوهريا عن غيرهم. ويطلق على العامل منهم اسم «باري»، يعيشون في حالة تشبه الاسترقاق، يلزمون بالبقاء معزولين إلى حد كبير عن حياة القرية ويقيمون في بيوت تقع جغرافيا تحت مستوى بيوت الكفار «الحقيقيين». ولم يشتغل بمهنة الحرف اليدوية بشكل طبيعي غير كفار البارون. وهذا يعني أن الثقافة المادية للكفار، وخصوصا منحوتاتهم و تماثيلهم المحفورة على الخشب وأدواتهم المعدنية المتقنة، باستثناء عدد كبير من التماثيل والأواني الخشبية والأباريق التي صنعها البارون، هي من منتجات الحرفيين اليدويين «النجسين». وبعد كل الدمار الذي رافق حملة نشرالإسلام، وبيع التحف لتجار الأنتيكة طوال عقود، والاهمال المقصود لكثير من الآثار، لم يسلم منها على المستوى المحلي سوى عدد قليل من هذه الشواهد الهامة على حضارة الكفار المدهشة.

أشرق فجر الإسلام إذا في نورستان، وما عاد المرء يجد فيها هذه الأيام غير عدد يزداد باطراد من الحجاج، إضافة إلى غالبية من العاطلين وعدد غفير من الملالي الذين تتلمذوا في مختلف المدارس الباكستانية. بل إن شمال المنطقة شهد حملة لـ "إعادة نشرالاسلام" أيضا، بعد ان اعتنق سكانها الوهابية. وتوفر المدارس الوهابية وبقية مدارس القرى شيئا من التعليم للناس، مع وجود بعض الملالي الذين يفخرون باتمام دراساتهم الدينية العليا في المملكة العربية السعودية. اختفت الموسيقى عمليا واختفى معها الرقص، الذي كان يوما يؤدى بشغف وعلى مدى واسع، من معظم أرجاء نورستان.

ترجمة: ماجد الخطيب

يِنس اوفه هارتمان Jens-Uwe Hartmann

البوذية في أفغانستان

ازدهارها وأفولها

كانت أفغانستان على الدوام بلداً إسلامياً. فحتى زمن قريب كان هذا هو التصور السائد فعلاً، ولايكاد يخطر على البال، أن هناك ديانات أخرى كانت منتشرة في هذا البلد قبل ظهور الإسلام. ولم يكن أحد على بينة، من أن الديانة البوذية كانت من ضمن تلك الديانات، سوى المهتمين اهتماماً بالغاً بتاريخ أفغانستان أو بتاريخ الديانة البوذية، أو بعض السياح الذين وجدوا أنفسهم بالصدفة وجهاً لوجه مع نصبي بوذا أثناء تجوالهم في هذا البلد. قبل سنتين ونيف، أي في آذار/ مارس ٢٠٠١، حين شرعت طالبان بتحطيم تمثالي بوذا العملاقين في وادي باميان، حينذاك وعت فجأة أوساط واسعة من الرأي العام العالمي، بأن الإسلام، على كل حال، ليس الدين الوحيد الذي طبع هذا البلد بطابعه. كما يحصل في أغلب الأحيان، أفضت الخسارة التي لحقت بتراث حضاري بطريقة لا رجعة فيها، إلى وعي عام بوجود هذا التراث. إن نسف نصبي بوذا أدى على الأرجح إلى عكس ما كان يأمله المبادرون من ذلك العمل، وهذا ما يبعث على الارتياح فعلاً. لكن ما لا يبعث على المواساة في مثل هذه الحالة هو تدمير أثرين حضاريين عالميين من معالم التراث الحضاري بطريقة لا رجعة فيها. لذا تساورني الشكوك بمدى فائدة كل المحاولات القائمة الآن والهادفة إلى إعادة ترميم نصبي بوذا. ومكمن هذه الريبة أخيراً وليس آخراً هو كثرة المشاكل الملحة التي تعاني منها أفغانستان اليوم والتي تتطلب حلولاً أكثر بكثير من مسألة إعادة النصبين الحجريين إلى وضعهما السابق، مع أن النصبين الضخمين قد يكون لهما تأثير مشجع على السياحة المنتظرة في يوم ما.

وهناك ظاهرة ثانية ساهمت في السنوات الأخيرة في أن تعيد إلى الوعي ماضي أفغانستان البوذي، وهذه الظاهرة الثانية مرتبطة يقيناً بتأثيرات الحرب الأهلية. فمنذ ما يقارب العشر سنوات يجري باستمرار عرض مخطوطات بوذية من أفغانستان في أسواق الفن في الغرب والشرق الأقصى.

ربما كانت تلك المخطوطات اكتشافاً تم العثور عليه بالصدفة، في تلك الأديرة القديمة المقامة في الكهوف والتي قد يكون اتخذ منها مقاتلون ومدنيون ملجأ لهم. من المؤسف أنه لم يتم لحد الآن التوصل إلى معلومات دقيقة حول منشأ وطريقة اكتشاف هذه المخطوطات. لم تكد تصل المخطوطة الأولى إلى أسواق الفن في الغرب، حتى عد الخبراء تلك اللقية عملاً هائلاً، وفي الحال ذاع خبر ما يسمى بـ «البحر الميت من مخطوطات البوذية». وقد استقبلت بحماس في وسائل الاتصال الناطقة باللغة الإنجليزية، وأدت وفرة التقارير الصحفية إلى انتشار واسع لخبر المخطوطة الجديدة.

على حين غرة ارتفعت الأسعار، وفي هذه الأثناء أصبحت تدفع مبالغ سخية لمخطوطات كهذه. وهذا أفضى بدوره إلى تواصل الإمدادات المستمرة عبر باكستان إلى الغرب واليابان حتى يومنا هذا. من الطبيعي أن تسود آراء متناقضة حول هذه المسألة. فمن ناحية يكون مبعثاً للسرور أي تنام في المعرفة تتيحه لنا المخطوطات عن تاريخ الأدب البوذي وتاريخ أفغانستان. من ناحية أخرى تبقى الظروف الدقيقة لهذه الاكتشافات مغلقة أمامنا وبذلك تفلت من أيدي المؤرخين، معلومات لا تعوض. فالمؤرخ تحدوه الرغبة في معرفة المكان الذي جاءت منه هذه المخطوطات، وفيما إذا تم اكتشافها في أديرة قديمة مقامة في الكهوف أو من المعابد أو من آثار المقابر البوذية، وإن كان تم العثور عليها كلقى منفردة أو ضمن مجموعات، وأسئلة كثيرة غيرها. كل هذا قد يكشف لنا شيئاً عن الحياة الدينية في أفغانستان قبل أكثر من ألف سنة، بيد أننا لم نحصل لحد الآن إلا على المخطوطات فقط، من دون الإطار، الذي خلدت فيه لأكثر من ألفي سنة.

كيف وصلت البوذية إلى أفغانستان؟ إن الكيان السياسي الذي نربطه اليوم باسم «أفغانستان»، يعد حديثاً نسبياً. وخلف هذه التسمية لا تكمن أية وحدة ثقافية أو لغوية، ذات تاريخ عريق. ففي الماضي، كانت الأراضي الخاضعة للدولة، اليوم موزعة بين عدة ممالك. هذا يصح على القرون السابقة للتاريخ المسيحي، رغم أننا لا نعرف الكثير عن ذلك. إن الاحتكاك الأول المؤكد لحد ما مع البوذية يسمح بتحديد تاريخه في منتصف القرن الثالث قبل التاريخ المسيحي. في هذه الحقبة أسست أسرة ماوريا

الهندية إمبراطورية كبرى في الهند، شملت، إضافة إلى ذلك، في الشمال الغربي باكستان وأجزاء من أفغانستان الحالية. أوعز «أشوكا»، أهم حكام هذه الأسرة باستعمال نقوشه في عموم الإمبراطورية وتم اكتشاف نقشين له في مدينة قندهار. مما له معنى في هذا الصدد أنه لم يتم صياغة هذين النقشين لا في اللغة الهندية ولا باستخدام الحرف الهندي، إنما ترجما إلى اليونانية والآرامية ودونا بالحرف اليوناني. هذا يعني أن إمبراطورية أشوكا امتد نفوذها ليصل إلى تخوم منطقة تستخدم فيها، على ما يبدو، اللغة اليونانية كلغة للاتصالات أو الإدارة. يعود هذا النفوذ اليوناني إلى أيام الاسكندر الكبير، الذي قام باجتياح الهند في عام ٣٢٦ ـ ٣٢٧، ووسع إمبراطوريته لتمتد إلى البنجاب. لكن هذه الحملة لم تترك آثاراً تذكر في بلاد الهند بالذات، إذ أخذت إمبراطورية الاسكندر الكبير بالانحلال عند موته. بيد أن نفوذ الحضارة اليونانية في الدول الشرقية التي خلفت إمبراطورية الاسكندر الكبير بقي يشكل عنصراً حاسماً. إن المدينة اليونانية الواقعة في أقصى الشرق، هي التي نعرفها اليوم، إذ تم اكتشافها وحفرها في ستينات القرن العشرين من قبل بعثة آثار فرنسية في أقصى شمال أفغانستان، أي في ايكانوم الواقعة على نهر امودريا. إن تأثيرات الحضارة اليونانية وفيما بعد الرومانية أيضاً استمرت لعدة قرون ونحن مدينون لهما بعد الميلاد بمساهمة رائعة في نشوء الفن البوذي، الذي سنتحدث عنه لاحقاً.

يبدو أن البوذية شهدت في عهد أشوكا أول عصر ازدهار لها في الهند، ولهذا فإنه من المحتمل أن يكون استقرار الوضع السياسي والذي أدى بدوره إلى تقدم التجارة الخارجية، شجع على انتشار البوذية في شمال غرب الإمبراطورية. غير أنه لم يتم التعرف على آثار مؤكدة لانتشار هذه النقوش باستثناء تلك التي تعود إلى القرن الأخير قبل التاريخ الميلادي، وبشكل خاص تلك النقوش المثبتة تواريخها. لكن العديد منها موثقة في القرون اللاحقة للتاريخ الميلادي وهذه بالدرجة الأولى نقوش أصحاب المذهب الديني، التي تظهر عليها، على سبيل المثال، أسماء الطوائف البوذية على انفراد أيضاً. وقد شهدت البوذية نهضة عظيمة، حين أقيمت مملكة كبيرة جديدة في الشمال الغربي في القرن الأول بعد الميلاد. استولى على الحكم في باكترين (إحدى الممالك القديمة حول العاصمة بالكه، التي كان شمال أفغانستان من ضمنها) شعب مهاجر من آسيا الوسطى، مجهول المنشأ. كان ينتمي حكامه إلى قبيلة «الكوشاناز» التي أطلق اسمها على الأسر الحاكمة وعلى المملكة. وقد نجحوا في توسيع مناطق نفوذهم باستمرار، لتشمل أخيراً أفغانستان وباكستان وأجزاء كبيرة من شمال الهند، ومناطق أخرى من أوزبكستان، وترامت أطرافها لأبعد من ذلك حتى وصلت إلى آسيا الوسطى. ومن جديد ساهم الاستقرار السياسي في تعزيز ازدهار التجارة الخارجية. كان أحد أهم الطرق التجارية «طريق الحرير»، هذا يعني شبكة من طرق التجارة تربط في امتدادها الأقصى بين الإمبراطورية الرومانية في الغرب وإمبراطورية قيصر الصين في الشرق. وتصل بفروعها الكثيرة الممتدة إلى جنوب شبه القارة الهندية مع محور الشرق والغرب، حيث تمر تلك المسالك عبر أفغانستان أيضاً. لا يقتصر استخدام هذه الطرق التجارية على التجار فحسب، بل أفلح الرهبان البوذيون عبر «طريق الحرير» في الوصول في البداية عبر باكستان وأفغانستان إلى آسيا الوسطى ومن ثم إلى الصين، حيث كانوا ينشرون دينهم في كل مكان يمرون به.

في عهد حكام كوشاناز حققت البوذية، على ما يظهر، نهضة عظمى. تم في أثناء ذلك إنشاء أول الأديرة، وغالباً ما كان يتبرع بها أعضاء الأسرة الحاكمة، كما جرى بناء الـ «شتوباز»[1]. كان أعظم حكامهم كانيشكا الذي ارتقى العرش في حوالي عام ١٢٥ بعد الميلاد، حسب المعلومات المتوفرة لنا حالياً، ويشار إليه في المراجع البوذية باعتباره مشجعاً بارزاً للبوذية. وهذا يصح بالتأكيد لحد ما؛ إن أقدم صورة تشبيهية لبوذا ترد على ظهر عملة معدنية لكانيشكا. من ناحية أخرى تظهر العملات المعدنية بالذات، أن حكام الكوشاناز قد مارسوا، على ما يبدو، سياسة دينية معتدلة وشجعوا في مملكتهم كل الأديان الممثلة هناك.

شجع الاستقرار السياسي التجارة وبدورها خلقت التجارة ازدهاراً اقتصادياً، لم يوفر لممثلي الأديان الأخرى فحسب، بل كذلك للحرفيين والفنانين مورد رزق. وبهذا يكون قد تم وضع حجر الأساس لإقامة «فن غانداهارا»[2]. وغانداهارا هي التسمية القديمة للمنطقة الواقعة حول بيشاور، ثم تم استخدام هذا الاسم بشكل موسع، بالأساس، على طبيعة فن عظيم جداً، أي أطلق على منطقة، اتسمت بأسلوب فني موحد نسبياً. وهكذا، كما يستخدم هذا المصطلح اليوم في علم الفن الهندي، فإنه يشمل أجزاء من أفغانستان، والجزء الشمالي من باكستان وأقصى ركن في شمال غرب الهند. طيلة قرون لم يتم تصوير بوذا، بل كان يعرض بطريقة رمزية، كان يكون من خلال آثار أقدامه. اعتبرت هذه الفترة «مرحلة الانيكوني» في الفن البوذي. لكنه تم في عهد الكوشاناز تقديم صور تشبيهية لبوذا في كل من منطقتي شمال الهند وغانداهارا بشكل متزامن. وقد أخذ الفنانون في شمال الهند بمعاودة استخدام النموذج الهندي، وبذلك خلقوا

تمثال بوذا الكبير ـ باميان، ١٩٣١، من كتاب: "Gandhara" by Bérénice Geoffroy-Schneiter.
With kind permission by Knesebeck Verlag, München



فن غانداهارا لم يقتصر تأثيرها على الهند وعلى تحديث النماذج القائمة هنا في تصوير بوذا، بل تم كذلك نقلها عبر طريق الحرير إلى آسيا الوسطى ومن ثم وصلت إلى الصين، حيث أصبحت نموذجاً للفن البوذي برمته في شرق آسيا. تم اندماج مكثف لعناصر هندية ويونانية ـ رومانية، فانبثق عنها أسلوب جديد أخاذ ومستقل. لكن على العكس من ذلك تماماً جرى الحال، على ما يظهر، في الأدب البوذي، كما نستطيع أن نلاحظ ذلك اليوم وبدقة. فمنذ ما يقارب العشر سنوات وصلت إلى الغرب واليابان عشرات الآلاف من أجزاء المخطوطات البوذية. بيد أن هذه المخطوطات لا تتضمن أي تاريخ، ولكن من خلال تطور الخط يتضح أنها دونت ما بين القرن الأول والقرن الثامن بعد الميلاد. باستثناء حالة واحدة حررت كل هذه الأجزاء باللغة الهندية ودونت بالحرف الهندي. يستنتج من ذلك، أن البوذية على صعيد الأدب لم تحاول، على الأغلب، أن تتواءم مع الظروف المحلية، على سبيل المثال من خلال ترجمة الأعمال القادمة من الهند إلى اللغات المحلية، كما هو الحال في الصين والتّيبت مثلاً. إن أقدم أجزاء المخطوطات تعود، على ما يظهر، إلى النصف الأول من القرن الأول، أي أنها أُنجزت بعد التاريخ الميلادي بفترة قصيرة. وهذا شيء مدهش. إن لأفغانستان الآن أن تدعي، أنها لم تحافظ على أقدم المعابد البوذية فحسب، وإنما كذلك على أقدم المخطوطات قاطبة مع مراجعها باللغة الهندية. وقد أضيف، لحد الآن، إلى مجد بقايا المخطوطات، تلك التي اكتشفتها بعثة ألمانية قبل مئة عام في طريق الحرير في آسيا الوسطى. فهي بالطبع أحدث من تلك اللقى الجديدة من أفغانستان لفترة تتراوح بين مئة إلى مائتي سنة. كانت هذه اللقية الجديدة عبارة عن لفائف يبلغ طولها متراً ومصنوعة من قشرة شجرة البَتُولا. تم تدوينها بالحرف الكاروشتي، أحد أنواع الأحرف الهندية، التي تكتب من اليمين إلى اليسار. إذ جرى استخدامه لبضع قرون قبل وبعد التاريخ الميلادي،



صورة بوذا، من القرن الرابع قبل الميلاد.
من كتاب: *'Gandhara' by Bérénice Geoffroy-Schneiter. With kind permission by Knesebeck Verlag, München*

نموذجاً لصورة موحدة. على العكس من ذلك اقتدى الفنانون في غانداهارا بالصيغ الماثلة آنذاك للفن اليوناني ـ الروماني متخذين منها نموذجاً، ليخلقوا من ذلك تكويناً فريداً غربياً في شكله وهندياً في مضمونه، أصبح مشهوراً عالمياً باسم «فن غانداهارا». استخدموا في تصوير بوذا الإله الإغريقي «أبولو» نموذجاً وللشخصيات المرافقة بقية الآلهة كـ «هرمز»، وآلهة «الحظ» الرومانية أو «العراب»، ولتصوير جوهر الكشف، والفئة المهمة من شخصيات المنقذين تم استخدام الغلام الروماني نموذجاً. كان المثال الرائع للغاية والأكثر شهرة شاخصاً في التماثيل المقامة في منتزه دير هادا (غير البعيد من جلال آباد)، تم ترميمها منذ مدة، بيد أنه، كما قيل، تم تدميرها بشكل نهائي بسبب الأحداث الأخيرة. إن صياغة الصورة المميزة في

وبالدرجة الأولى، في الشمال الغربي من شبه القارة الهندية وقد اقتبس ليستعمل في المعاملات الرسمية في مملكة كوشاناز، لكنه اندثر تماماً، في الحال بعد أن بادت المملكة. عثر على هذه اللفائف في منطقة جلال آباد، حيث وجدت ملفوفة في قدر كبير، ومن المحتمل، أنه قد تم دفنها. إن قشرة البَتُولا تجف بمرور الوقت ومن ثم تصبح سهلة الكسر. لهذا اقتضت عملية ترميم شاقة، قبل أن تصبح الحروف مستوية ومن ثم التمكن من قراءتها. قام بإجراء عملية الإصلاح هذه خبراء المكتبة البريطانية في لندن، حيث تم كذلك، الآن، حفظ هذه اللقية هناك. عند حل فحوى النصوص اتضح أنه جرى حفظ أعمال محددة في هذه اللفّائف تقتصر على بوذية هندية. ويعد هذا في منتهى الأهمية، لان هذه الأعمال كانت تعتبر في عداد المفقودة. بيد أننا، للأسف، لم نحصل على معلومات تاريخية يمكن أن تكشف لنا بالتفصيل تاريخ البوذية في هذه المنطقة، لا في لفائف المخطوطات الحديثة ولا في تلك المدونة على الورق أو على قشرة البَتُولا أو على الخُوص الهندي. لذلك ستبقى معلوماتنا عن تاريخ البوذية في أفغانستان، مستقبلاً، مجتزأة للغاية. فنحن نعتمد، بالأساس، على تقويم الوثائق الأثرية. وهي مع ذلك تظهر لنا، أن البوذية قد لقيت دعماً كبيراً لردح من الزمن. كان بوذا العظيم في باميان الذي يكاد يصل ارتفاعه إلى ثلاثة وخمسين متراً، أضخم نصب لبوذا في العالم. إن إنجاز عمل كهذا قد اقتضى أدوات جسيمة. وباميان الواقعة على الطريق التجاري الذي كان يربط طريق الحرير بالهند، قد انتفعت غاية الانتفاع من التجارة؛ لكن من هم الرهبان الذين عاشوا في أديرة الكهوف حول نصبي بوذا العظيمين، وأية احتفالات دينية وطقوس أقيمت هناك وكم من معتنقي البوذية كانوا يؤمّون هذين النصبين، كل هذا يبقى في عداد الغيب.

إلا أن هناك وثيقة فريدة، وهي أقرب إلى تقرير شاهد عيان، إذ تم الحفاظ في هذا التقرير على بعض المعلومات عن باميان وعن البوذية في أفغانستان. في الفترة ما بين عام ٦٢٩ ـ ٦٤٥ قام راهب صيني يدعى اكسوان تسانغ برحلة حج إلى هذه الأماكن البوذية المقدسة في الهند، وبهذا دون ما هو أشبه بيوميات عن الرحلة، ثبت فيها الأمكنة والمسافات وما هو مميز. في رحلته من الصين سافر عبر طريق الحرير إلى الغرب ومن ثم اتخذ طريقاً فرعياً، يفضي عبر باميان وبيشاور إلى الهند. وقد وصف باميان وعبر عن إعجابه بنصبي بوذا، لكنه أشار كذلك إلى التزمّت الديني الذي يتسم به الناس هناك، وهو ما يميزهم عن جيرانهم. لكنه لاحظ في أماكن مختلفة ظاهرة، سبق أن أشير إليها، تنبىء ببدء انحلال البوذية. ربما كانت أسباب ذلك اقتصادية: لأنه يحرم على الرهبان البوذيين ممارسة عمل وهم بذلك يعتمدون على الملة المنتمين إليها في دعمهم مادياً. وحين تؤدي الإضطرابات السياسية، على سبيل المثال، إلى القضاء على الرفاهية، فإن ديناً كالبوذية يواجه، على حين غرة، موقفاً حرجاً.

ومما هو جدير بالأهمية، أن تدهور البوذية قد بدأ، على ما يبدو، قبل وصول الإسلام إلى أفغانستان بفترة طويلة. إن الإشاعة السائدة، التي تقول إن الزحف الحربي للإسلام هو الذي أدى إلى القضاء على البوذية في كل مكان من أفغانستان إلى شمال الهند، غير صحيحة على الإطلاق. إن هناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى أن عوامل اقتصادية وكذلك دينية شكلت، قبل ذلك بفترة طويلة، بداية التدهور. غير أنه من غير الممكن لحد الآن إعطاء تاريخ محدد لنهاية البوذية في أفغانستان. لكن يمكن، على العموم، أن يستدل على ذلك، في أنها أخذت في القرن الثامن والتاسع تنتفي بشكل تدريجي، وهذا ما جرى تأكيده من خلال المشاهدات التي حددت تاريخها المخطوطات البوذية الحديثة من أفغانستان في القرن الثامن. وهكذا فإن البوذية قد تركت بصماتها، على امتداد ألف سنة، على حضارة وتاريخ منطقة الهندوكوش، ومثلما نستطيع اليوم أن نؤكد بشغف، أنها خلفت الكثير من الوثائق البالغة الأهمية في أفغانستان، أكثر بكثير مما كان يعتبره المرء ممكناً قبل بضعة سنوات.

ترجمة: علي أحمد محمود

١ ـ معبد بني بالأساس لحفظ الآثار التذكارية لبوذا وفيما بعد آثار قديسين آخرين. (المترجم)

٢ ـ «فن غاندهارا»، فن هندي نشأ تحت تأثيرات الفن اليوناني والبوذي في مملكة غاندهارا الهندية، حيث شهدت ازدهاراً رائعاً للفن من القرن الأول إلى القرن الخامس بعد الميلاد. (المترجم)

Jürgen Frembgen   يورغن فريمبغن

التصوف في أفغانستان

الطرق الصوفية وأثرها في الحياة الاجتماعية والسياسية

يتخذ التدين بالإسلام في أفغانستان، كما في دول إسلامية أخرى، أوجهاً، وتفسيرات، واتجاهات متعددة. وفي ذلك يتعلق الأمر بصور دينية فرعية، بتفسيرات متفاوتة للقرآن الكريم. وأول ما يشمله هذا التنوع، ما يدعو إليه علماء الدين من أحكام دينية مأثورة، تبدو مشتملة على نظام للحقوق، والآداب، والأخلاق، وتتركز الدعوة إليها في المساجد، ومدارس تحفيظ القرآن. ويرتبط بهذا الإيمان القوي بالنصوص المقدسة، موضوع الإسلام السياسي، الذي فرضته جماعة طالبان في الفترة من عام ١٩٩٤ إلى عام ٢٠٠١، وكذلك المجال الواسع للتصوف الإسلامي، وما تأثر به من أشكال محلية لتقديس الأولياء، والمعتقدات الشعبية. ولكن الفوارق بين أوجه التدين بالإسلام هذه هي في الواقع غير محددة، وغير واضحة، بل ومتداخلة غالباً. وفي أفغانستان خاصة يجري الجمع بينها، كما يتمثل ذلك في قيام متصوفة الطريقة النقشبندية بتدريس الأحكام الشرعية في مدارس تحفيظ القرآن.

والتصوف هناك هو اتجاه ديني يقوم على الحب العميق للعقيدة، والإذعان لها. ويسعى فيه المتصوفة، اعتماداً على القرآن الكريم والسنة النبوية، إلى معايشة الجانب الباطني للإسلام. فعلى العكس من اتجاه التمسك الشديد والحرفي بالشريعة، والذي يهتم أكثر بالمجتمع ككل، يُعنى التصوف بالدرجة الأولى بالفرد، وتربية باطنه. وفي سعيهم إلى الحقيقة الروحية يسلك «أولياء الله» طريق التصوف إلى الله، الذي يجدونه في قلوبهم، وهم في حال نشوة الانجذاب إليه. وهدف هذه السياحة الصوفية، التي يلزم فيها المريد أحد المرشدين؛ أحد مشايخ الصوفية، هو إظهار القيم الربانية الكامنة في النفس البشرية، وبالتالي إظهار الوحدة بين النفس الإنسانية وربها. وفي الطريق المتدرج للالتزام في الزهد والأخلاق ينبغي على المريد أن يُفني أنانيته المؤلمة، وينمي محبته لله وللبشر.

لقد حاول المتصوفة، الذين يُبجَّلون في حياتهم وبعد مماتهم كأولياء لله، حاولوا كثيراً التعبير عن إدراكاتهم في القرب من الله ومحبته، بمنظومات شعرية، تُقرأ، وتُنشد، ويُتغنى بها، وتنتشر بذلك بين عامة السكان غير المتجانسين. وفي العصور الوسطى ظهر عديد من المتصوفة المتميزين، والشعراء في خراسان، التي كانت تسمى آنذاك بلاد المشرق، وهي المنطقة، التي تشمل أفغانستان الحالية، وشرق إيران، وآسيا الوسطى المتاخمة لهما، والتي تعتبر مهد التصوف في العالم الإسلامي. لقد ازدهر التصوف والفن في بعض مدن هذه المنطقة بخاصة، مثل مدن هيرات، وغزنة، وبلخ. وإلى بلخ، موطن العلماء، الواقعة في براري شمال أفغانستان، ينتسب إبراهيم بن أدهم (المتوفى عام ٧٧٦ أو عام ٧٩٠)، وهو الزاهد الصارم، الذي هجر حياته كأمير، وأصبح متصوفاً خالصاً. وفي هيرات غربي أفغانستان عاش عبد الله الأنصاري (١٠٠٦ ـ ١٠٨٩) شيخ هيرات وحاميها. وكان أولاً من علماء الفقه الإسلامي الخلص على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ثم أصبح شيخ الصوفية المشهور هناك. وألف بالفارسية كتابه المشهور في التصوف «منازل السائرين»، وكذلك كتاب «المناجاة»، الذي يشتمل على أدعية في نثر فارسي مسجوع. وفي غزنة وُلد الهجويري. ويُعد كتابه، الذي ألفه بالفارسية، وسماه «كشف المحجوب» أول مؤلَّف منظم للتصوف. وفي مدينة لاهور، التي كانت مقر السلاطنة الغزنويين، وفي عام ١٠٧١ تُوفي الهجويري، الذي يُبجَّل اليوم كأعظم الأولياء في باكستان. وبعد موته بأعوام قليلة عاش في بلاط الغزنويين الشاعر المبدع، حكيم الصنعائي (١٠٦٠ ـ ١١٣١). ومساهمته البالغة الأهمية في الأدب الصوفي هي ملحمته الشعرية «حديقة الحقيقة». ولكن درة التصوف في خراسان كان بلا شك، جلال الدين الرومي (١٢٠٧ ـ ١٢٧٣)، الذي يُسمى في أفغانستان مولانا البلخي. وكان قد نزح مع أسرته، وهو في الثانية عشرة من عمره، من منطقة البراري المحيطة بمدينة بلخ، إلى مدينة قونية في وسط منطقة الأناضول، حيث أسس ابنه طريقة الدراويش المولوية. ومؤلَّفه الخالد هو كتاب المثنوي، الذي يتألف من أكثر من ستة وعشرين ألف بيت شعري، يرددها محبوه في شمال أفغانستان، وفي مناطق القرم الجبلية، حيث يبجل الشيعة الإسماعيلية هناك آثاره ويحفظونها.

وإلى جانب هؤلاء المتصوفة، هناك متصوفة وشعراء مشهورون، أمثال الجامي (١٤١٤ ـ ١٤٩٢)، وبيدل (١٦٤٤ ـ ١٧٢١)، اللذين ألفا بالفارسية. وكذلك رحمان

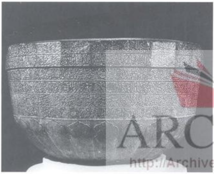
بابا (١٦٥٣ ـ ١٧١١)، وحمزة الشينوري (١٩٠٧ ـ ١٩٩٤)، اللذين يمثلان أدب الباشتونيين. وقد احتفظ المثقفون بمؤلفاتهما إلى اليوم، ويبجلهما العامة كوليين عظيمين.

لقد أضفى التصوف طابعه في عمق على التدين والتقوى لدى سكان أفغانستان إلى اليوم. وفي ارتباط بذلك يقوم الشعر والموسيقى، كشكلين فنيين للتعبير، بدور هام.

ومراكز التصوف في أفغانستان هي مدينة هيرات في غرب البلاد، وشمال أفغانستان، والعاصمة كابول، ومنطقة قبائل «غلزايي» في جنوب شرق البلاد. وينتظم مشايخ الصوفية ومريدوهم وأتباعهم في جماعة دينية، تحظى باحترام واسع، وتسمى الطريقة أو السلسلة. وقد تأسست غالبية هذه الطرق فيما بين القرنين الثاني عشر، والرابع عشر. وإلى هذه الطرق، القائمة على نظام التدرج في الرتب، ينتسب الرجال من فئات السكان المختلفة: من المزارعين، والتجار، والحرفيين، والموظفين، والضباط، والعلماء، والفنانين، بل إن كثيرين من الأفغان ينتسبون إلى أكثر من طريقة. يتميز بعض هذه الطرق الصوفية، نظراً إلى تركيزها على رياضاتها الروحية، بطابع التقوى والانجذاب الصوفي، بينما تغلب على بعضها الآخر الاتجاهات اللاهوتية أو السياسية الاجتماعية. وإلى جانب هذه الطرق الشعبية، القائمة على سكان الريف بالدرجة الأولى، هناك الطرق المرتبطة بالطبقة الراقية، ويحظى الأدب والشعر فيها بمكانة هامة. وهكذا يختص التدين بالإسلام في أفغانستان بتنوع الطرق الصوفية، مع أن رياضاتها الدينية تشتمل على أمور كثيرة من فترة ما قبل الإسلام، أو غير إسلامية. إن معظم هذه الجماعات الدينية الاجتماعية، التي تتنافس فيما بينها، لها اتجاهات سلفية، وتطبق الشريعة الإسلامية. ومن هنا يقوم الكثيرون من مشايخ الصوفية بالتدريس في مدارس تحفيظ القرآن. ومما هو جدير بالملاحظة أنه في داخل هذا الشكل المؤسسي للتصوف يهب شيخ الطريقة لمريده النابه أو نائبه، ما اختص به عبر قربه من الله، من قدرة على الشفاء ومنح البركة، وبهذا تنشأ خلافة روحية تُسمى خلافة الإرشاد. بيد أنه في معظم الطرق الصوفية الأفغانية تتوارث ذرية الشيخ نفسه قوته الخارقة، أي أنها تتميز بالطابع العائلي، والمسمى هناك خانوادغي وفي هذه الحالة يرث الابن الأكبر غالباً منصب والده الشيخ ومكانته.

وكما أشرنا قبلاً، تتبع أهم الطرق الصوفية المنتشرة في أفغانستان مجموعة «باشرع»، التي تطبق الشريعة الإسلامية، وتحترم المأثورات المقدسة، أي تدين بما يسمى ببساطة دين المساجد. إنهم يمثلون التصوف المعتدل، الذي يؤكد على العناصر الأخلاقية، ويسعى أيضاً إلى الوصول إلى تجليات لمعرفة الله، يكون فيها للأفكار الغنوصية، والتأملات، والزهد دور هام. ويحظى ممثلو هذه الطرق داخل المجتمع باحترام فائق، بل إن لهم في الحياة السياسية مناصب قوية وذات نفوذ. وعلى نحو تقليدي كانوا يُتوجون الحكام ويمنحونهم شرعيتهم الدينية. وإلى اليوم لا يزال الشيخ المتصوف في منطقة القبائل الباشتونية يقوم أيضاً بدور الوسيط الهام في تسوية الصراعات والنزاعات.

ويقيم شيخ الطريقة مع أسرته في مبنى يسمى الخانقاه. ويتبع هذا المبنى مسجد ومدرسة لتحفيظ القرآن، ومقابر لأسلاف الشيخ المقدسين. وبذلك يستخدم هذا المبنى للصلاة، وللدراسات الدينية، وكذلك كضريح للأولياء، يقوم بزيارته أتباع الطريقة، وخاصة النساء بأعداد كبيرة. وفضلاً عن ذلك يستخدم الخانقاه كمضيفة، يُقدم فيها الطعام للمريدين، والمسافرين، والدراويش، والمحتاجين.



جرن حجري من قندهار من القرن الخامس عشر

وفي قاعة منفردة تقام حلقات الذكر، ويشترك في هذا الذكر الشعائري أتباع الشيخ أثناء زياراتهم المنتظمة للخانقاه، والتي تتم مرة إلى مرتين على الأقل في العام، حاملين معهم الهدايا لشيخهم.

وتعتبر الطريقة النقشبندية أكبر الطرق الصوفية في أفغانستان إلى اليوم، وأتباعها كثيرون، وعلى الأخص في شمال أفغانستان، وفي هيرات وما حولها، وكذلك بين قبائل غلزايي الباشتونية في جنوب شرق البلاد. وهذه الطريقة المسماة باسم الولي، بهاء الدين نقشبند (١٣١٨ ـ ١٣٨٩)، والمتمسكة بالعقيدة السنية في الإسلام، كانت قد نشأت في بخارى في أوزبكستان، وانتشرت عبر آسيا الوسطى غرباً حتى وصلت إلى شمال إفريقيا، وشرقاً حتى وصلت إندونيسيا. ويسلك متصوفة النقشبندية اتجاهاً صوفياً واقعياً؛ إذ يولون الأهمية للصلاة، والتأمل، وذكر الله في سكينة بعبارات الذكر، والارتباط القلبي بشيخهم، ويرفضون الرقص والموسيقى، والأشكال الشعبية لتقديس

الأولياء، واصفين ذلك بأنه ليس من الإسلام. وهذا التدين المتشدد أدى في القرن الثامن عشر بحركات تجديدية في الطريقة، إلى المناداة بالعودة بالتصوف إلى أصوله في فجر الإسلام. ومن الممهدين لانتشار الطريقة النقشبندية الشيخ الصوفي الخراساني، يوسف الحمداني (ت. ١١٤١)، الذي كان الصنعائي من تلامذته أيضاً. وفي عهد التيموريين، المحبين للفنون، والذين حكموا في سمرقند وبخارى وهيرات، عايشت الطريقة في القرن الخامس عشر فترة ازدهار، أدت إلى انتشارها بين الطبقات الراقية المثقفة. وأما الانتشار الهام لهذه الطريقة في شبه القارة الهندية فيرتبط بالشيخ أحمد سيرهاندي (ت. ١٦٢٤)، وإلى هذا الشيخ، الذي لُقب بمجدد الألفية الثانية للتقويم الإسلامي، يرجع تأسيس فرع الطريقة، الذي يسود أفغانستان إلى اليوم، والمسمى الطريقة المُجدِّدية. وبإشراف من عينهم نواباً له في أفغانستان، الشيخ يوسف، ومولانا أحمد، والشيخ حسن، بُني العديد من الخانقاه في قندهار، وكابول، وفي شمال البلاد. وبعد إقامة الدولة الأفغانية عام ١٧٤٧ بقليل صدرت الدعوة إلى طريقة المجددين لإنشاء مقر لهم في العاصمة كابول. ولقب رئيسهم بـ «حضرة شوربازار»، تبعاً لاسم الحي القديم في كابول، الذي كان يضم مسكن الشيخ، والخانقاه التابع للطريقة. وآنذاك انضم أيضاً الملك الأفغاني، أحمد شاه عبدلي (ح. ١٧٤٧ ـ ١٧٧٣) إلى أتباع الطريقة النقشبندية، التي ارتبطت طوال تاريخها بالحكام، ليس في أفغانستان فقط، وإنما أيضاً في دول أخرى من العالم الإسلامي، والتي قادت في بعض الأحيان مقاومات مريرة ضد الحكام السياسيين غير الشرعيين. فعلى سبيل المثال كان شيخ النقشبندية «هدًا صاحب»، الذي أثر في طرق صوفية أخرى، ذا دور بارز في الكفاح ضد الاستعمار في القرن التاسع عشر، كما كان صاحب نفوذ كبير في شرق أفغانستان. وقاوم بعد ذلك، ومن خلال ثورات قبائل غلزايي في عام ١٨٨١، وفي الفترة من عام ١٨٨٦ إلى عام ١٨٨٨ الأمير عبد الرحمن، الذي كان قد تولى الحكم بمساعدة الإنجليز. وكان هذا الأمير قد دعا إلى التطبيق الصارم للشريعة الإسلامية حسب العقيدة السنية، وألحق الأذى بالصوفية، والدراويش. وفي الحرب الأنجلو ـ أفغانية الثالثة عام ١٩١٩ وقف مشايخ طريقة المجددين إلى جانب الملك أمان الله في الكفاح ضد الإنجليز، إلا أنهم قاموا بعد ذلك ببضعة أعوام بمعارضة سياسته الإصلاحية المتأثرة بالغرب. وظهر التدخل القوي للمجددين في الأحداث السياسية الحديثة في عام ١٩٧٨، متمثلاً في تأسيس الجبهة الوطنية لتحرير أفغانستان، وهي حزب صغير للمقاومة ضد الغزو السوفيتي، أسسه الشيخ صبغة الله مجددي. وفوق ذلك فإن إسماعيل خان، الحاكم المحلي لمدينة هيرات من أتباع النقشبندية. وإلى جانب المجددين هناك فروع أخرى للطريقة في شمال البلاد وغربها.

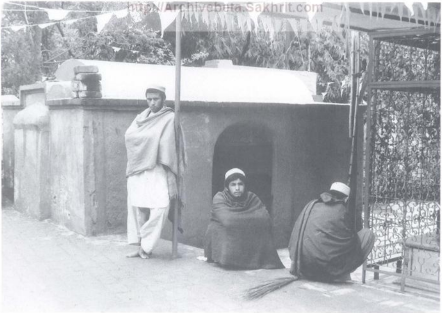
متصوفة من شمال غرب البنجاب، تصوير: Staatliches Museum für Völkerkunde, München



وخلال تاريخ التصوف في أفغانستان قامت الطريقة القادرية أيضاً بدور اجتماعي وسياسي هام. وتعتبر هذه الطريقة أكبر وأشهر جماعة أخوة بين غرب إفريقيا وإندونيسيا. وقد أسسها الفقيه والصوفي البغدادي، عبد القادر الجيلاني (١٠٨٨ ـ ١١٦٦)، ويلقب هذا الواعظ المبجل في الشرق الأوسط، وفي جنوب آسيا بقطب الأولياء، ويمجده العامة لكراماته الكثيرة بالدرجة الأولى. ووهب قواته الخارقة لعدد كبير من ذريته، ويُذكر أنه تزوج بأربع نسوة أنجبن له تسعة وأربعين ولداً. وباتجاهها السلفي في العقيدة حظيت الطريقة القادرية بأتباع لها في المدن، إلا أن لها أتباعاً في المناطق الريفية أيضاً. وانطلاقاً من أوساط الهند المتحضرة اكتسبت الطريقة، وخاصة في القرن السابع عشر، شعبيتها، عندما ارتبطت المنطقة بين نهري الغانج والهندوس في مملكة المغول ارتباطاً وثيقاً بأجزاء كبيرة في أفغانستان. وآنذاك أرسل شيخ الطريقة القادريةالمشهور، نوشاد تلميذه، الشيخ (خوجه) محمد فضيل نائبا له إلى كابول. وفي القرن التاسع عشرعززت الطريقة نفوذها بين قبائل غلزايي الباشتونية في شرق البلاد، وفي بداية القرن العشرين انتقل بطن مشهور من عشيرة الجيلاني من شبه الجزيرة العربية إلى إقليم نانغارهار في شرق أفغانستان. وهناك أقام أفراد هذا البطن، الذين وصفوا أنفسهم بأنهم من آل البيت، صلات قوية، من خلال الزواج، مع العائلة المالكة في أفغانستان، عائلة محمد زاي، واكتسبوا بذلك سلطة دينية وسياسية متميزة. والممثل الرئيسي لهذا الفرع في الوقت الحاضر هو الشيخ سيد أحمد الجيلاني، الذي أسس في ثمانينيات القرن العشرين حزب المقاومة المحافظ. وكما هو شأن النقشبندية، يوجد في أفغانستان، إلى جانب أسرة الجيلاني، فروع أخرى للطريقة القادرية، لها أتباعها الخاصون، وذلك في شمال وغرب البلاد. وأهم جماعة منها، والتي تتبع مبدأ إرث الروحية، هي أسرة الشيخ تاغاب، المسمى باسم مدينة تاغاب الصغيرة في إقليم كابيسا شمال شرقي كابول. ومن الرياضات الدينية للطريقة القادرية في أفغانستان يُلاحظ أنها تؤدي الذكر جهراً.

ويلي هاتين الطريقتين في الأهمية، الطريقة التشيشتية، وتُعد ذات تأثير سياسي أقل بكثير من تأثيرهما. ومن مُثُلها المميزة فقر متصوفيها، والتوكل المطلق على الله. وفضلاً عن ذلك يفضل أتباعها الموسيقى كوسيط لبلوغ حال الروحية، ويسمحون إلى حد ما بالرقص الانجذابي. وبتوجهها إلى الريف تشتهر الطريقة بخاصة في الهند وباكستان، حيث أدخلها معين الدين التشيشتي (١١٤٢ ـ ١٢٣٦)، الذي انتشر تبجيله بين العامة كمعين للفقراء حتى في أفغانستان. وينتسب هذا الشيخ إلى عائلة من الأشراف في وسط إيران. وفي شبه القارة الهندية تحدد هذه الطريقة، بتركيزها على تقديس الأولياء، الشكل المميز

متصوفة أفغان في بيشاور، تصوير: Jürgen Frembgen



لتقديس الأضرحة في الإسلام. وتعود جذور هذه الطريقة الصوفية إلى قرية چشت الصغيرة، الواقعة على بعد ١٥٠ كيلومترا شرقي مدينة هيرات. وفي كابول بالذات يشير كثيرون من الموسيقيين إلى ميولهم إلى هذه الطريقة، وهناك يؤدي أتباعها الذكر مصحوباً بالغناء، وموسيقى آلة القدمية.

وإلى جانب الطرق الصوفية المذكورة توجد الطريقة السهروردية، التي تعود إلى إيران، والتي كان لها في القرن الثاني عشر في الشرق الأوسط، وفي جنوب آسيا نفوذ قوي. كما أن معظم صلات هذه الطريقة، التي تُعد أكثر واقعية، وترفض الشعر والموسيقى والرقص كوسيط للمعايشة الدينية، صلات ولاء وثيقة بأُسر الحكام. بيد أنه لا يُعرف إلا القليل عن دائرة نفوذها في أفغانستان.

وإلى جانب هذه الطرق الصوفية الخالصة، هناك الدراويش السائحون، الذين لا ينتسبون عادة إلى أي طريقة خاصة. إنهم مجاذيب منفردون، يروضون أنفسهم على الحياة في فقر، وفي توكل تام على الله، مضفين صفاته على أنفسهم، وهم في نشوة الانجذاب التام. ويُعد هؤلاء المتصوفة، المعروفون في أفغانستان باسم «مَلَنغ» أو الدراويش، أناساً هامشيين، يمثلون نموذجاً خاصاً من الورع، وتلفت أزياؤهم الأنظار. وفي إطار المعتقدات الشعبية يُعدون غالباً حماة أضرحة الأولياء، ويتنقلون من ضريح إلى آخر. كما يكسبون قوتهم كمعالجين من عضات الثعابين ولدغات العقارب، وكعرافين ومفسري أحلام، وبائعي تمائم، وكمنشدين متجولين. وكمتخصصين في التعامل مع الجن والعفاريت، توجد في ممارساتهم عناصر من شامانية آسيا الوسطى؛ فللتنبؤ بالمستقبل يدخلون بتأثير المواد المخدرة، والموسيقى في حالة من الغيبوبة. ويمارس بعضهم السحر الأسود، كما تخصص بعض الدراويش السائحين، الذين يتعاطفون على ما يبدو مع النقشبندية، في فن العلاج المتنقل بالدخان (البخور)، وذلك بحرق بذور نبات السذاب البري.

ومع ملاحظة الانحطاط العام للأدب الصوفي، والمأثورات الصوفية المنقولة مشافهة منذ القرون الأخيرة في أفغانستان، واضطهاد جماعة طالبان قبل سنوات قليلة لأتباع التصوف، إلا أنه يبدو أن هناك حالياً تنشيطاً للهياكل الدينية، والاجتماعية المرتبطة بالتصوف، وما يتعلق بذلك من أنشطة. وعلى كل، فقد أقيمت شعائر الذكر في سنوات الحرب في العقدين الماضيين بحماس متميز، كما يجري في الأثناء في كابول، وهيرات. إن الصلات العميقة، القائمة منذ زمن قديم بين الطرق الصوفية في أفغانستان، ونظيراتها في الهند وباكستان ستشجع على التفكير في العودة إلى التصوف مستقبلاً. ويرتبط بالتصوف ارتباطاً وثيقاً الاعتقاد العاطفي في تقديس الأولياء، الذي لا يزال يعتبر مقوما أساسيا وحيوياً للثقافة الأفغانية اليومية.

ترجمة: محمد الخشاش

باحة المسجد الكبير في هيرات، تصوير: Knut Müller



ريناتا إلزيسر Renate Elsässer

اعادة افتتاح معهد غوته في كابول

حوار مع مديرة المعهد

تأسس معهد غوته في كابول عام ١٩٦٥ وأغلق عام ١٩٩٢ بسبب الحرب الأهلية. وفي الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٣ أعيد افتتاحه في إطار احتفالي وكأول معهد ثقافي أجنبي. وبهذه المناسبة التقت «فكر وفن» في كابول بمديرة المعهد ريناتا ايلزيسر وأجرت معها الحوار التالي:

■ ما هي المجالات التي سيعمل فيها معهد غوته بعد إعادة افتتاحه في كابول؟

ستتابع العمل في ما بدأناه في السنة الماضية، أعني في مجال السينما، المسرح، الموسيقى، الفن التشكيلي وتجهيز المكتبات وتأهيل المكتبيين. هذه هي النقاط الأساسية في عملنا، ستضاف إليها مجالات أخرى، ولكن ذلك يستغرق بعض الوقت. سيكون أي مشروع مجديا حين نقوم بالعمل بشكل منظم وهذا يحتاج إلى وقت أطول.

■ ماذا يعني العمل المسرحي والسينمائي في الواقع؟ هل يعني أنكم ستدعون أشخاصا من ألمانيا وتقيمون علاقة بينهم وبين شركاء أفغان؟

نعم، هذا صحيح، ندعو فنانين ومتخصصين وخبراء من ألمانيا، ونحاول أيضا أن نقيم ورشات عمل طويلة مع الشركاء الأفغان، فقد ظهر في السنوات الأخيرة أن أسبوعا لأفغانستان هو وقت قصير جدا. وإننا نحتاج هنا إلى وقت أطول لنبني من الأساس فعلا وننقل المعارف إلى الشركاء الأفغان في مجالات كانوا مقطوعين عنها زمنا طويلا جدا.

■ وهكذا فإن عملكم يتشكل بالدرجة الأولى في أن تكونوا وسيطا بين المتخصصين الألمان في المجالات الثقافية والأفغان المهتمين بها والذين يريدون العمل في هذه المجالات أيضا؟

لم تعد توجد سوى نقاط ارتباط قليلة في العمل الثقافي. إننا نحاول من خلال الاتصال بالفنانين والمتخصصين الألمان أن نمكن الشركاء الأفغان من الاتصال بالثقافة والفن في البلدان الأخرى ثانية. إننا ننظر إلى مهمتنا كمساعدة لإعادة بناء الثقافة الأفغانية قبل كل شيء. لن يحتل تقديم الثقافة الألمانية المكان الأول في مهماتنا في الفترة القادمة. إنه مهم جدا لنا أيضا أن يُعرض ما يقوم الفنانون الأفغان بإنتاجه في مجال السينما والمسرح والفن التشكيلي في الخارج، هذا يعني أننا سنأتي بفنانين أفغان إلى ألمانيا أيضا، وقد أقمنا في نيسان / أبريل أسبوعا أفغانيا في المسرح الألماني في هامبورغ، كما أقمنا عروضا سينمائية عديدة للأفلام الجديدة التي أنتجت هنا في كابول. نريد أن نعرض للجمهور الألماني ما ينجزه الأفغان من جديد في هذه المجالات. وسيظهر المستقبل ما إذا كان الفنانون الأفغان يعملون أيضا بشكل مستقل عن هذه المشاريع التي نقدمها لهم، وما إذا كان قد تحقق تبادل فعلي. ولكن لا يزال أمامنا طريق طويل لبلوغ هذا الهدف.

■ هذا يعني أنكم لم تقدموا بعد فعالية مفتوحة للجمهور مثل عروض الأفلام والمناقشات العامة والقراءات وما شابه ذلك؟

بلى. إننا نريد أن نقدم شيئا للجمهور المهتم، نريد أن نقوم بعمل إعلامي ونصبح معروفين. لهذا فإننا سنقدم أفلاما أيضا، ويتوجب على المرء في ذلك أن يختار بعناية بالغة. ربما نرجع الأفلام القديمة، الأفلام الصامتة أيضا، لقد لاقت هذه اهتماما كبيرا جدا من قبل شركائنا في مجال السينما، ولكننا لن نستطيع في الوقت الحاضر أن نستقدم فرقة مسرحية ألمانية. وبدلا من ذلك نريد أن نقدم نتيجة عمل ورشة العمل المسرحي التي تقام منذ أكثر من ثلاثة أشهر في القسم المسرحي في الجامعة إلى الجمهور في النهاية. خطط لثلاث مسرحيات سيقوم بتمثيلها الطلاب الأفغان في قسم المسرح. نريد أن نقيم معارض في القاعة الوطنية ونريد أن نقدم في المركز الثقافي، الذي أعيد افتتاحه منذ ثلاثة أشهر ويتلقى دعما لمدة سنة من البنك الدولي، حفلات موسيقية.

■ هل ستقدمون دورات لتدريس اللغة الألمانية؟

نعم إنها بدأت منذ أيار/ مايو. لدينا الآن أربع دورات، وينتظر أن تضاف إليها أربع دورات أخرى في تشرين

الأول/ أكتوبر. الاهتمام باللغة الألمانية في أفغانستان كبير جدا، بسبب العلاقات الطيبة الطويلة بين البلدين، لا يزال ثمة أفغان كثيرون يرغبون في تعلم الألمانية. نريد أن نكون قادرين على الاستجابة لهذا الطلب، فإنه مفيد بالنسبة إلى الشباب خاصة أن يتعلموا الألمانية، ربما ليستطيعوا الدراسة في ألمانيا فيما بعد أو يحصلوا بذلك على فرصة للحصول على عمل لدى المؤسسات الألمانية الكثيرة هنا.



ريناته إلزيسر، مديرة معهد غوته في كابول، تصوير: Stefan Weidner

وهكذا يستطيع المرء القول إنّ معهد غوته في كابول ينفذ إلى جانب ورشات العمل التي هي نوع خاص جدا من العمل الثقافي، البرنامج الكلاسيكي لمعهد غوته؟

نعم. نحن نقول دائما إن عملنا يقوم على ثلاث دعائم، الدعامة الأولى هي العمل المنهجي، هذا يعني الفعاليات الثقافية، وورش العمل والتبادل بين الفنانين في البلدين.

الدعامة الثانية هي العمل اللغوي بالنسبة لمتعلمي اللغة الألمانية في معهدنا، ولكن أيضا التعاون مع الجهات الأخرى التي تعلم اللغة. تدخل في ذلك أيضا متابعة التعلم بالنسبة لمعلمي اللغة الألمانية، رغم أنه لا يوجد الآن الكثيرون في أفغانستان، بل لم يعد يوجد أحد تقريبا خارج كابول. نحاول أن نغير هذا تدريجيا من خلال قيامنا بمشاريع في مدن المقاطعات مثل هيرات ومزار الشريف وقوندوز. إلا أن هذا صعب ويحتاج إلى وقت، حيث لا يستطيع المرء أن يسافر إلى هذه المدن بكثرة. لهذا فليس أمامنا إلا البحث عن شركاء يعتمد عليهم هناك.

الدعامة الثالثة هي عمل المكتبة في مؤسستنا. ليس لدينا للأسف سوى غرف صغيرة، هذا حل مؤقت للسنتين القادمتين. إذا تطور كل شيء تطورا سلميا نفكر أن نستأجر فيما بعد بناية أكبر. غرف التدريس في الوقت الحاضر متوسطة الحجم، إنها تكفي الآن، ولكن ليس لدينا سوى غرفتين، المكتبة صغيرة جدا، إنها أيضا مكتبة لإثبات الحضور فقط، وهي ليست مكتبة للإعارة. إلا أن هذا ليس سيئا، فلم يعد في البلاد من يستطيع قراءة الكتب الألمانية تقريبا. من هنا أعتقد أننا بهذا المعهد مجهزون تجهيزا جيدا في الوقت الحاضر، ولكننا ندرك أنه يمكن أن نحتاج إلى بناية أكبر في وقت ما.

مع أي الشركاء تتعاونون في الوقت الحاضر؟

لدينا تعاون وثيق جدا مع الشركاء في مجال السينما، إنه أيضا المجال الذي لا تزال تتوفر فيه شروط كثيرة جدا، فقد كان الكثير من العاملين في السينما في المنفى في باكستان وإيران واستطاعوا هناك أن يتابعوا عملهم. يعود القسم الأكبر من الأفغان الذين كانوا في المنفى في باكستان وإيران. من هنا لدينا في هذا المجال شركاء نشيطون حددنا معهم نوع المساعدة بصورة واضحة ـ بالدرجة الأولى في التجهيزات وورشات العمل. في هذا المجال ينجز في أفغانستان الكثير، حيث يجري الآن إنتاج الأفلام ثانية. وقد حصل الفيلم الروائي لسيدي غولا باماي، رئيس مؤسسة الفيلم الأفغاني، على سبيل المثال على جائزة خاصة في مهرجان كان. وقد بيع حتى الآن في بلدان كثيرة وعرض في بعض منها، وسيعرض في ألمانيا ابتداء من كانون الثاني/ يناير. هذه هي أول خطوة كبيرة باتجاه نشاط ثقافي مستقل في أفغانستان. أنتج مخرجون آخرون كثيرون أفلاما قصيرة ويخططون لإنتاج أفلام روائية طويلة أو أفلام وثائقية.

يبدو أن افتتاح فرع لمعهد غوته في كابول مغامرة للذين لا يعرفون الوضع في كابول. كيف تقومين الوضع الأمني والاستقرار السياسي في أفغانستان؟

من الصعب تقويم الوضع الآن، ليس ثمة من يجرؤ على التنبؤ بالطريقة التي سيتطور بها. من المؤكد أن الانتخابات في السنة القادمة التي يعد لها المجلس التأسيسي في كانون الأول/ ديسمبر القادم ستكون حدثا حاسما. مسودة هذا الدستور قد وضعت وستناقش من وجهات نظر متضادة جدا. وقد جرى التفكير بالقيام بعمل توعية في الأقاليم قبل بدء عملية الانتخاب. إلا أن هذا عمل صعب جدا، لأن الكثير من القرى غير آمنة ومن الممكن ألا يكون جميع

الناس قد أبلغوا. أشعر في الوقت الراهن في كابول بالأمان، لم أشعر أبدا أنني مهددة شخصيا. يمنح الأفغان الشعور بالترحيب دون قيد، وهم يتلقون عملنا بايجابية كبيرة. إننا ندرك، نحن الأجانب هنا، وجود مجموعات صغيرة تعارض أي تعاون مع الأجانب وتعتبر الثقافة الأجنبية أداة شيطانية. من هنا لا يستبعد تماما انطلاق أعمال اعتداء من هذه الزاوية. ولكن الخطر في كابول ضعيف نسبيا في نهاية الأمر بفضل الحضور القوي لقوات حفظ الأمن الدولية.

هل هناك مؤسسات ثقافية أجنبية أخرى تخطط لإعادة إفتتاح مراكزها؟

لدي منذ وجودي هنا، منذ عام بالضبط، اتصال بالبريطانيين والفرنسيين الذين كانوا قد فكروا منذ وقت طويل أيضا بإنشاء معهد ثقافي. لم يتحقق هذا حتى الآن، لكنني سمعت الآن من الفرنسيين أن أحد العاملين في المعهد الفرنسي التابع للمعهد الثقافي الفرنسي سيأتي إلى السفارة الفرنسية. ولكنهم لم يفكروا بفتح معهد خاص. أما البريطانيون فهم مترددون على كل حال، حيث يساوى بينهم وبين الأميركيين بأشكال كثيرة، ووضع البريطانيين والأميركيين في أفغانستان يختلف تماما عن وضع الألمان. يقال دائما إن المرء ينظر إلى الأميركيين كمحتلين ويريدهم أن يغادروا البلاد بالسرعة الممكنة، بينما ينظر المرء إلى الألمان كشركاء ومساعدين في إعادة البناء. لنا من خلال هذا وضع ممتاز جدا. لا يحتاج قيام المرء كألماني بعمل ثقافي إلى شجاعة خاصة، فالثقة التي يواجهنا بها الأفغان هائلة، أحيانا كبيرة بشكل مخيف، لأنني أرى في ذلك خطر ألا نكون مستحقين كل هذه الثقة.

ألا ترين أن ثمة خطرا في أن تنفصل كابول ثقافيا وسياسيا أيضا عن بقية البلاد من خلال الحضور الأجنبي الكبير هناك؟

نعم، نحن نرى هذا الخطر أيضا ونحاول أن يكون لنا حضور في بعض المواقع على الأقل في مدن الأقاليم وأن نجد شركاء هناك. كنت في مزار الشريف واطلعت على النشاطات الثقافية الموجودة هناك في الوقت الحاضر. يوجد هناك مركز للثقافة والإعلام، أبدى العاملون فيه استعدادهم للتعاون معنا. إلا أنه يصعب جدا إنجاز هذا العمل من كابول، فالشوارع رديئة للغاية ولا توجد غالبا سوى رحلة جوية أو رحلتين في الأسبوع، والشركاء لم يصبحوا قادرين بعد على العمل المستقل حقا. إلا أن معهد غوته يريد أن يبدأ بفعاليات في هرات على سبيل المثال. فقد كانت هرات دائما مركزا ثقافيا في أفغانستان.

لقد كنتِ في سارايفو أيضا بعد الحرب بوقت قصير، كيف تقارنين بين الوضع هنا في كابول و تجاربك في البوسنة؟

لم أكن في سارايفو بعد الحرب مباشرة. وصلت سارايفو عام ٢٠٠١، كانت الحرب قد انتهت عام ١٩٩٥، هذا يعني أنه كانت قد مرت خمس سنوات على انتهاء الحرب. كان قسم كبير من سارايفو أو النصف على الأقل قد أعيد بناؤه. مركز المدينة قد أعيد بناؤه كاملا. هذا لا يقارن بأفغانستان. يضاف شيء آخر إلى ذلك: لقد خرج من البوسنة حقا أناس كثيرون جدا إلى المنفى عند اندلاع الحرب وازدياد ضراوتها، ولكن عدد الذين عادوا أكبر كثيرا. وهكذا فإن البوسنة لم تنزف ثقافيا تماما كما هو الحال في أفغانستان الآن. لم أر مطلقا شيئا كهذا الذي أراه هنا. كنت في الصين أيضا بعد الثورة الثقافية مباشرة، ورغم قتل عشرات الألوف ممن لهم علاقة بالتعليم والثقافة في الثورة الثقافية، لم تكن الخسارة بالغة الشدة كما في أفغانستان.

هل تعتقدون بأن عملكم يحظى بدعم الرأي العام الألماني والرسميين الألمان؟

نعم، السياسة الألمانية تدعم عملنا هنا، لقد كانت رغبة وزارة الخارجية الأكيدة أن يفتح معهد غوته هنا، وقد حصلنا على أموال كافية من الصندوق المخصص لأفغانستان. بالطبع كثيرا ما يسألنا الأصدقاء والصحافيون عما إذا كانت المشاريع الثقافية هي الحاجة الأكثر إلحاحا لأفغانستان. إنني أدرك أن حاجة أفغانستان إلى الثقافة ليست أكثر الحاجات إلحاحا، عدا هذا لا تزال البلاد فقيرة جدا ولا يزال الكثير من الناس يعيش تحت مستوى الحد الأدنى، وهم يحتاجون إلى غذاء ومأوى. إلا أنني أعتقد أن الثقافة تلعب دورا مهما في إقامة المجتمع المدني، وأن العمل الثقافي، كما يفهمه معهد غوته، يسهم في الديمقراطية وتشكيل الوعي. وهذا ما يؤكده لي أيضا الكثيرون من شركائنا الأفغان.

أجرى الحوار: شتيفان فايدنر

ترجمة: سالمة صالح

راتبيل آهانغ شامل Ratbil Ahang Shamel

المنفى موت الفنّان

الحياة الثقافيّة لأفغان الشتّات

تنطوي الحياة في المنفى على العديد من السلبيّات. وكلّ أولئك الذين وجدوا أنفسهم لسبب أو لآخر مجبرين على مغادرة أوطانهم في يوم ما لا يمكنهم إلاّ أن يؤكّدوا هذا الأمر. إلاّ أنّ الكاتب الأفغاني "راهنا وارد زرياب"، الذي كان عليه حتّى وقت قريب أن "يعيش حياة الضنك" في فرنسا يرى في حياة المنفى عاملاً إيجابياً محدّداً إلى من عرف هذه التجربة: "إنّ من يعيش في المنفى يغدو بإمكانه أن يحيا جذوره وخلفيّات تكوينه الثقافي بوعي وينظر إليها بموضوعيّة أكثر، وأن يُقوِّم بصفة أفضل الجوانب الإيجابيّة والسلبيّة للأصل الذي ينتمي إليه." وهذا أمر لا يقدر عليه المرء طالما ظلّ يعيش في بلده حسب رأيه. إلاّ أنّه يقرّ أيضًا بأنّ خسران الوطن أمر مميت بالنسبة إلى كلّ مبدع ـ يعني الشاعر والكاتب والرسام والموسيقار . .إلخ ـ ونهاية عمله الإبداعي، ذلك أنّه سيجد نفسه مدفوعًا إلى فسح مجال للحدث السياسيّ ليقتحم أعمالَه، ولدعم مقولته الأخيرة هذه يحيل الكاتب الأفغاني (٥٨ سنة من العمر) على تجربة الفنّانين اليهود الذين اضطرّوا للرّحيل عن موطنهم ألمانيا والهجرة إلى الولايات المتّحدة، وكيف أنّهم لم يتمكّنوا هناك بالرغم من الضمانات الحياتيّة التي كانت متوفّرة لديهم من استعادة طاقاتهم الإبداعيّة السابقة.

"داخل أوكارها تغرّد العصافير بأعذب الألحان"، يقول زرياب. إلاّ أنّه شخصيًا كتب روايته الأولى في المنفى، أمّا قبل ذلك فلم يُصدر سوى قصص قصيرة. هل زرياب على حقّ في ما يقول؟ هل استطاع الأفغان الذين اضطرّوا خلال الثلاثين سنة الماضية إلى مغادرة وطنهم أن يوضّحوا بصفة أفضل علاقتهم بجذورهم عن طريق نظرة نقديّة موضوعيّة؟ وهل أنّ الكتّاب والشعراء من بينهم قد غدوا أشخاصاً منكسرين ووحيدين لم يعد لديهم ما يقولونه.

إنّ الإجابة بنعم أو لا عن هذه الأسئلة قد تكون إجابة تعميميّة تهمل الخصوصيّات والفوارق. ولعلّه ينبغي علينا أوّلا أن نرى في أيّة أماكن من العالم تتواجد جاليات أفغان المنفى، وفي ظلّ أيّة ظروف تجد نفسها مجبرة على العيش والتمسّك ببقائها.

شعب من اللاجئين

عندما انطلقت موجات رحيل الأفغان الأولى باتّجاه البلدان المجاورة خلال السبعينات من القرن المنصرم كان عدد سكّان أفغانستان حسب إحصائيّات الأمم المتّحدة حوالي مليونين. والآن، هناك حوالي ستة ملايين من الأفغان مازالوا يعيشون حتّى يومنا هذا خارج وطنهم، مليونان منهم في إيران وما يزيد عن الثلاثة ملايين في باكستان وقرابة الـ ٤٠٠ ألف في بلدان العالم الغربي (أوروبا، أميركا، كندا، أستراليا)؛ وفي ألمانيا وحدها يعيش في الأثناء ما يقارب الـ ١٠٠ ألف من المهاجرين الأفغان. وبعد سقوط نظام الطالبان شرع العديد من اللاجئين، من باكستان وإيران في الغالب، في العودة إلى وطنهم المدمّر.

لقد تمّت حركة هجرة الأفغان من وطنهم على مراحل متتالية. أنصار الحكم الملكيّ كانوا أوّل من بدأ بالرحيل على إثر الانقلاب الذي قام به داوود خان الذي أطاح بالنظام الملكيّ سنة ١٩٧٣. ثمّ تبعهم كلّ من كانت لديه إمكانيّات للرحيل والذين كانوا يريدون النجاة من قبضة نظام داوود خان والنظام الشيوعيّ من بعد. ولقد استطاع الموسرون من بينهم الفرار إلى أوروبا والولايات المتحدة هرباً من حملات القصف التي كان الجيش الأحمر يمطر بها البلاد ومن عمليّات القَصاص التي كانت تمارسها الحكومة الأفغانيّة آنذاك. ولم يكن هناك سوى قلّة قليلة من الموسرين ظلّت لا تتجاوز إيران وباكستان حيث كان عليها تحمّل العيش في مساكن بائسة ومآوي دون مستوى ما تقتضيه الكرامة الإنسانيّة.

وعندما وصل المجاهدون ثمّ الطالبان من بعدهم إلى الحكم لم يظلّ في أفغانستان سوى أولئك الذين ينتمون إلى الشرائح الاجتماعيّة الأكثر فقراً، أو أولئك الذين استطاعوا في ظلّ الأوضاع الجديدة أن يبلغوا مستوى معيناً من الرّفاه. هكذا تحوّل الأفغان إلى شعب من اللاجئين. هذا الشتات يجد له اليوم مستقراً في ما لا يقلّ عن الستّين بلداً من العالم. وليس هناك من بين هذه الحشود المجتثّة من تربتها الأصليّة سوى جزء قليل ممّن استطاع أن يضمن لنفسه في أوروبا وأميركا بناء حياة جديدة في أمانٍ ورفاهية، وأن يمنح أطفاله في حالة توفّر الاهتمام والموهبة فرص التعليم

والدراسة في أفضل جامعات العالم. إلاّ أنّ ضغوطات الحرص على الظهور بمظهر الغنى والنجاح تبلغ في بعض الأحيان درجة مهولة لدى الأفغان من المقيمين في البلدان الغربيّة. فحفلات الزفاف الأفغانيّة على سبيل المثال غالباً ما تبدو مبالغة في الفخامة والتبجّح وتكلّف نفقاتُها الزوجين أو عائلتيهما ما لا يقلّ على ٢٠ ألف دولار. في حين يجد الأفغان الذين يقيمون في إيران وباكستان أنفسهم في أغلب الحالات يصارعون من أجل لقمة العيش اليوميّة، ويتحمّلون أفظع أشكال الإهانات. ففي إيران مثلاً لا يحقّ لأبناء اللاجئين الأفغان التمتّع بما يُمنح لبقيّة الأطفال من تعليم عموميّ، الأمر الذي يجعل بعض الإيرانيّين يقدّمون أطفالاً أفغاناً على أنّهم من أبنائهم كي يتمكّنوا من الحصول على الحقّ في دخول المدارس.

متّحدين نغدو ضعفاء

والآن ما هي الصورة التي تبدو عليها الحياة الثقافيّة والإبداعيّة لأفغان المنفى وبصفة خاصّة في بلدان أوروبا وأميركا الغنيّة والحرّة؟ هل هناك جهود للحفاظ على الثقافة الأفغانيّة كما كانت؟ المثال التالي من كندا سيقرّبنا قليلاً من الإجابة عن هذا السؤال: في أواخر سنة ٢٠٠٠ دعت جمعيّة الأفغان لمدينة فانكوفر أعضاء مجلسها الإداريّ إلى اجتماع خارق للعادة. "أين سندفن موتانا؟" بهذا السؤال البسيط والمفجّر للغاية افتتح رئيس الجمعيّة الجلسة. كان أعضاء الجالية الأفغانيّة بفانكوفر يريدون مقبرة حيث يمكن لموتاهم أن يرقدوا جنباً إلى جنب مع أخواتهم إخوانهم المسلمين.

بعد مجادلات طويلة انتهى المجلس المكوّن من ثلاثين رجلاً وامرأتين إلى قرار أن يكلّف وفد من عشرة أشخاص بتقديم طلب مكتوب مباشرة إلى رئيس بلديّة المدينة. والآن بقي على المجلس أن يقرّر من هم الأعضاء الذين سيتكوّن منهم هذا الوفد. وكان الاتفاق على أن يتكوّن الوفد من باشتون لكن بعدد محدود، وطاجيك، وهزارة، وأوزبيك، وسنّة، وشيعة، وعناصر من أنصار الإيديولوجيّات الدنيويّة والأخرى الدينيّة. كان هناك حرص على إظهار أنّ الأفغان في فانكوفر لا تمزّقهم النزاعات مثلما هو الحال بالنسبة إلى جاليات أخرى. كان لا بدّ من جعل الوحدة الوطنيّة تنعكس في هذا المثال المصغّر أيضاً. ففي أفغانستان ليس للناس متّسع من الوقت للتفكير في مثل هذه الأمور بالرغم من أنّ المسألة العرقيّة قد غدت موظّفة سياسياً وبشكل حادّ خلال العشريّة الأخيرة.

تطلّب الأمر حوالي ساعتين من الزمن قبل أن يُتوصّل إلى الاتفاق على الأعضاء العشرة المناسبين للتركيبة السياسيّة والقبليّة المرغوبة لهذا الوفد. لكنّ إحدى السيّدتين المشتركتين في هذا الاجتماع أشارت باحتشام: "في هذا الوفد ليس هناك من تمثيل للنساء!" فعلاً! لا يضمّ الوفد أيّة امرأة! لكن مَنْ من الأعضاء المنتخبين سيكون على استعداد للتنازل لـ «الأختين»؟ ثمّ إن مشكلاً ثانياً قد انضاف إلى المسألة وهو أنّ السيّدتين تنتميان إلى نفس الأصل القبلي. وهذا أيضاً لا يصح. حرق المشاركون رؤوسهم تفكيراً وتمحيصاً، لكن لا حلّ في الأفق، وبذلك أُجّل الاجتماع إلى وقت لاحق، وظلّت مسألة الأموات دون حلّ، وباءت تجربة الوحدة الوطنيّة بالفشل.

مثل هذه الحالة تحدث وتتكرّر لدى كلّ جاليات اللاجئين الأفغان تقريباً؛ "معاً نغدو ضعفاء، ومن دون ثقة ليس هناك من إمكانيّة لعمل مشترك"، يؤكّد مسعود راحل الفيلسوف الأفغاني المقيم بكولونيا.

شعب لا يميل كثيراً إلى القراءة

بالرغم من كلّ هذا يحبّذ الأفغان عادة تكوين الجمعيّات. وقد غدا تأسيس الجمعيّات الثقافيّة مثلاً عنصراً ثابتاً من عناصر الحياة لدى أفغان الشتّات. "لكن دوماً مع حصول النتيجة المتكرّرة ذاتها وهي أن يرى الأعضاء المؤسّسون أنفسهم يمضون كلّ في طريق في ظرف لا يتجاوز الستّة أشهر؛ تفرّقهم الخصومات ليؤسّس كلّ واحد بعدها جمعيّته الثقافيّة الخاصّة"، يقول مسعود راحل ساخراً بمرارة.

وبالفعل غالباً ما يحدث أن يرى المرء أفغاناً قلائل ممّن يقيمون في مدن صغيرة يؤسّسون عدداً كبيراً من الجمعيّات الثقافيّة. "هذا الخلاف الذي يسم الأفغان في الداخل كما في الخارج يشلّ حركتهم ولا يسمح لهم بتوحيد طاقاتهم. وبالرغم من أنّ أغلبيّة النخب الأفغانيّة تعيش حالياً في أوروبا وكندا وأميركا فهي تجد نفسها غير قادرة على تشكيل حركة ثقافيّة نشطة"، يعلّق عتيق رحيمي أشهر الكتّاب الأفغان في المنفى منتقداً.

فعلاً لم تتوصّل أيّ من جاليات المنفى الأفغانيّة خلال العشرين سنة الماضية إلى التوفّق في إرساء حياة ثقافيّة نشطة. لا صحف خاصّة ولا قناة تلفزيونيّة أو برامج إذاعيّة تستحقّ هذا الاسم. وحتّى في ألمانيا حيث يتواجد أغلب مشاهير المثقّفين اللاجئين الأفغان ومن بينهم شعراء وكتّاب وموسيقيّون ممّن كانوا في ما مضى نخبة الفئات الوسطى بكابول، فإنّ النشاط الثقافيّ يعدّ بالأحرى فاتراً. هناك بطبيعة الحال قراءات شعريّة وحفلات موسيقيّة، وهناك أيضاً صحف مختلفة ودوريات، لكن لا شيء من هذه النشاطات كلّها يتسم بالديمومة أو يخضع إلى رؤية وبرنامج محكم وطويل المدى. لقد أصدرت كلّ جمعيّة ثقافيّة أفغانيّة في ألمانيا تقريباً صحيفتها الخاصّة بها في يوم ما، وكان على كلّ واحدة منها تقريباً أن تختفي من الوجود بعد طبعتها الأولى.

أما الأفغان المقيمون في إيران، ولئن كانوا مهيّئين ذهنياً وغير ممزّقين بالخلافات بحكم أوضاعهم المعيشيّة الرديئة، إلاّ أنّ إمكانياتهم المادّية محدودة للغاية. وإضافة إلى ذلك فإنّ نظام الملالي لا يسمح بأيّة صحافة حرّة، ومع ذلك فإنّ الكتّاب الأفغان الذين يقيمون هناك ما فتئوا يفاجؤوننا بين الحين والآخر بإصدارات من مستوى رفيع. لكن وبالرغم من عدم غياب الطاقات الرفيعة من كتّاب وأدباء فإنّ صحافة الرأي تظلّ منعدمة تماماً.

أغلب الدوريات تخفق بسبب انعدام الامكانيّات الماليّة. "والصحف القليلة التي استطاعت أن تحقّق صدوراً منتظماً قد نجحت في ذلك بفضل الدعم الماليّ الذي تمدّها به قيادات التنظيمات الحربيّة من داخل أفغانستان الذين يبحثون من خلالها عن قنوات دعاية في البلدان الغربيّة"، يقول الصحافي ناير. أمّا الشاعرة خالدة هيازي المقيمة في فرانكفورت فتلقي بقسط من المسؤوليّة في فشل العديد من المنشورات على عدم الميل التقليدي إلى القراءة لدى أهل وطنها: "من الواضح للعيان أنّنا نحن الأفغان، في المقام الأوّل شعب لا يميل كثيراً إلى القراءة. وبالتالي فنحن لسنا على استعداد لإنفاق المال من أجل اقتناء المطبوعات حتّى وإن تعلّق الأمر بضرورة مساندة صحيفة أو أديب." وهكذا لم تفلح أيّة صحيفة أو أيّ عمل أدبيّ لكاتب أو شاعر أفغاني هنا في ألمانيا في التوصّل إلى إصدار طبعة تفوق الـ ٥٠٠ نسخة.

إلى جانب الصعوبات الكثيرة التي ترتبط بحياة المنفى التي لا تخضع إلى نسق انتظام عاديّ يتحمّل أصحاب الصحف والعاملون في الحقل الثقافي قسطاً وافراً من المسؤوليّة في هذا المأزق، إذ هم نادراً ما يولون في عملهم اهتماماً بحاجيات وتوقعات القرّاء. بل همّهم الأساسي هو كيف يضعون منافسيهم في مواضع محرجة: اليساريّون ضدّ القوى الدينيّة وأنصار الملكيّة، والفاشيّون ضدّ اليساريّين، الديموقراطيّون ضدّ الآخرين، والآخرون ضدّ الديمقراطيّين، أنصار المجاهدين ضدّ أنصار العهد الشيوعيّ، الباشتون ضدّ الطاجيك والعكس... إلخ. في خضمّ هذه الفوضى الضاربة تؤول كلّ المحاولات إلى الفشل بما في ذلك تلك التي تسعى بحقّ إلى إصدار صحيفة جيّدة. وماذا يفعل الأدباء؟ "أغلبهم يدع نفسه ينقاد إلى رغبات كلّ تيّار سياسيّ، إذ أنّ همّهم الأساسي بالنهاية هو أن يقابلوا بالاحتفاء والمديح"، يلاحظ الصحفي المقيم بمونشنغلادباخ في ألمانيا حميد عُبيدي بلهجة لاذعة.

"إنّ الأحداث التي تلت انقلاب سنة ١٩٧٣ (إلغاء النظام الملكيّ الدستوري وإنهاء مرحلة عشر سنوات من التجربة الديمقراطيّة، ثمّ الانقلاب الشيوعي وتدخّل الجيش السوفياتي بعد خمس سنوات من ذلك)، قد طوّحت بأفراد الشعب الأفغاني بصفة بالغة القسوة خارج مدار حياتهم المألوفة الأمر الذي جعلهم إلى اليوم دائمي البحث عن وجهة وشاطىء أمان"، يقول عاصف أهانغ المؤرخ الأفغاني المقيم بكندا. "لقد عمدت حكومات السنوات العشر الأخيرة إلى تصفية جلّ الشخصيّات المهمّة في مجال النشاط العمومي للحياة في أفغانستان"، يوضّح أهانغ. وهكذا غدا المركب الآن دون ربّان، تائهاً من غير هدف محدّد.

أمّا زلماي هيوادمال الباحث في مجال الدراسات الأدبيّة فيلاحظ من جهته أنّ الأفغان لم يتمكّنوا بعد من هضم الأحداث التي طرأت على البلاد خلال الثلاثين سنة الأخيرة، لذلك هم لا يستطيعون في الخارج كما في الداخل أن ينجحوا في تحقيق أيّ وئام. "فجأة تحوّل كلّ شيء لديهم إلى سياسة. وكان على المرء أن يتخذ موقفاً: مع أم ضدّ الحكم الشيوعيّ وتدخّل الجيش السوفياتي. الجار الذي كنت تثق فيه طوال سنوات قد يكون تحوّل فجأة إلى عدوّ يمكن أن يخونك؛ والأطفال يلقّنون في المدرسة الوشاية بآبائهم. ووجد المجتمع نفسه مقسّماً إلى مئات الاتجاهات السياسيّة والدينيّة. لقد حلّ الشرق والغرب هناك كي يحولا حربهما الباردة إلى معركة ساخنة تدور رحاها على كاهل الشعب الأفغاني. ولقد قاما بذلك فعلاً دون ورع أو تحفّظ"، يقول هيوادمال الذي يشغل حالياً منصباً في حكومة الرئيس حامد قرضاي بعد سنوات طويلة قضّاها في المنفى بألمانيا. "إنّ الحرب، تحوّل كلّ بلد إلى مأوى للمجانين، واللاجئون ليسوا سوى مجانين في حالة فرار."

كلّ الجهود التي بذلها من أجل دفع الأفغان المقيمين بألمانيا إلى إقامة حوار مفتوح قد باءت بالفشل الذريع. وكذلك فشلت كلّ جهوده لتشجيع أبناء وطنه على العودة إلى بلدهم. فثقتهم في حكومة قرضاي والوعود الأميركيّة تظلّ ضئيلة، وعلاوة على ذلك فإنّ أغلبيّتهم لا يريدون التفكير في العودة إلى أفغانستان طالما ظلّ أمراء الحرب من أمثال دستم وفهيم أو إسماعيل خان ممسكين بزمام السلطة هناك.

"إنّ مقولات زرياب لا تنطبق تماماً على واقع الأفغان في المنفى. فهم لا يتفكّرون في جذورهم إلاّ بصفة سطحيّة في أغلب الحالات، ولا يتعاملون بأيّ حال من الأحوال بطريقة موضوعيّة ونقديّة مع ثقافتهم، بل بالعكس تماماً"، يلخّص كاوا "شافق" أهانغ الشاعر والموسيقي الأفغاني المقيم في فرانكفورت، لكنّه يشاطر زرياب الرأي في مسألة واحدة وهي أنّ المنفى يمثّل موت الفنّان ونهاية عمله الإبداعي، ذلك أنّه يجد نفسه مدفوعاً إلى فسح مجال للأحداث السياسيّة لاقتحام أعماله. لكن قد يتعلّق الأمر أيضاً بخيارات الأفراد من بين الفنّانين؛ إمّا أن يختار الواحد الانحياز إلى الحياة، أو يختار الانحياز إلى الموت.

ترجمة: علي مصباح

دورته بيناك Dörte Benack

هواجس الجيل الثاني من أفغان المنفى

ماذا يعني "أن تكون أفغانياً"؟

عندما تُسأل جميلة عن بلدها الأصلي تجيب دون تردّد: "أنا أفغانيّة". ومع ذلك فإنّ هذه التلميذة التي تبلغ الثامنة عشرة من العمر تعيش منذ ولادتها في ألمانيا؛ لم تطأ قدماها أرض أفغانستان أبداً ولا تتكلّم لغة أبويها إلاّ بشكل رديء. إنّها تجيب هكذا مثل كلّ أترابها من أبناء الجيل الثاني من أفغان المنفى. لكن ماذا يعني: "أفغاني" بالنسبة إليهم؟ تبدو جميلة مضطربة ولا تستطيع أن توضّح الأمر بصفة واثقة: "أبواي، ثقافتي، أصدقائي، . . ."، هكذا تحاول أن تردّ بعبارات رجراجة، ثمّ تهزّ كتفيها.

حوميرا الطالبة في شعبة الأدب واللغة الألمانيّة تعترضها هي أيضاً مثل هذه الأسئلة؛ غالباً ما تُسأل عن موطنها الأصلي. "في ما مضى كنت أجيب بأنّني قادمة من بلاد بعيدة، بعيدة تقع في الهندوكوش" - وهي على أيّة حال قد فتحت عينيها على الحياة في أفغانستان. "لكنّني لم أعرف ما الذي يمكن أن يعنيه أن تكون الواحدة أفغانيّة سوى ما لقّنني إيّاه أبواي حول الموضوع"، تقول حوميرا. "أحياناً كان يبدو لي كما لو أنّ الأمر يتعلّق بعالم غير حقيقيّ يجري داخل مسرحيّة: في البيت كنت أمثّل دور الأفغانيّة، أما في الخارج فإنّ الأمر سيّان." إلى اليوم لا يعرف أهلها مثلاً أنّها تدخّن، وفي الحفلات الأفغانيّة غالباً ما تنسحب إلى حمّام السيّدات إذا ما كانت تصر على التدخين، وفي ذلك المكان لا تجد أنها الوحيدة التي تلجأ إلى هناك لهذا الغرض، إذ المرأة المدخّنة مسألة ما زال يلفّها التحريم بالنسبة إلى المجتمع الأفغاني. وعلى أيّة حال فحوميرا لا تجعل من هذه المسألة مشكلة؛ "حتّى في حال سمح لي والداي بالتدخين فإنّه لن يخطر لي على بال البتّة أن أدخّن علناً أمام الأفغان الآخرين؛ وبشكل ما فإنّ التدخين لا يتلاءم علاوة على ذلك والصورة التي لديّ عمّا يمكن أن تكون عليه امرأة"، تقول موضّحة، وتضيف صديقتها مريم: "هناك أشياء سيكون من شأنها، إذا ما مارستها علناً، أن تسيء إلى سمعة عائلتي وتدمّر بالتالي حياتها الاجتماعيّة. إنّها مسألة علينا كأطفال أن نحتاط لها."

بالنسبة إلى حوميرا كان الأمر واضحاً دوماً: "في أفغانستان تسود الحرب، وبالتالي فإنّ أمر العودة إلى هناك غير مطروح - على هذه الفكرة كبرت وترعرعت." لقد غدا الانتماء الأفغاني ضرباً من الوجود داخل جزيرة. العودة إلى ما يسمى بالوطن غير ممكنة، وأخبار الوطن تكاد لا تستطيع الوصول إلى بلاد الغرب البعيدة، ومع

غياث الدين، سوق چار چاطا، الوان مائية، كابول ١٩٣٦



ذلك فإنّ الثقافة التي حملها الناس معهم من هناك ستستمرّ في الحياة داخل عائلتها كما داخل أغلب عائلات المنفى الأخرى، وهؤلاء يورثونها بدورهم لأطفالهم.

لكن ليست العائلات والأقارب وحدهم هم الذين يجعلون من الشباب أفغاناً. "إنّ المجتمع الألماني هو أيضاً وبنفس القدر يجعل منّي أفغانياً"، يقول مصطفى مسعود البالغ من العمر ٢٥ سنة. هناك طبعاً فوارق، لا على مستوى المظهر فقط، بل في السلوك أيضاً. "وكما أنّ الأميركيّين يحدّدون هويّتهم ضمن "النمط الأميركي للحياة"، كذلك أحدّد أنا أيضاً هويّتي ضمن "النمط الأفغاني للحياة"، وإن كان نمطاً قد داخلته تعديلات أوروبيّة"، يوضّح مصطفى. وتماماً مثل مصطفى تشعر حوميرا بنفسها هي أيضاً منجذبة إلى أشباهها من أفغان المنفى. وبخصوص ما إذا كان هناك فرق بين أن تقضّي أوقاتها مع أصدقاء ألمان أو أفغان، تجيب بحماس: "هناك عوالم تفصل هذا عن ذاك"، وتحاول أن تصف شعورها هذا: "إنّ الأمور تجري على نحو أكثر حميميّة في ما بيننا كأفغان؛ أعرف عائلات صديقاتي، ونلتقي أيضاً في حفلات أعياد الميلاد والأعراس . . . ". تصمت حوميرا قليلاً، تفكّر ثمّ تحاول أن تعبّر بكلمات مناسبة عمّا يجول في داخلها من أحاسيس: "أحسّ بتقاسم أكثر للمشاعر هناك، وأنّ الصديقات أكثر قدرة على فهم ما أعيشه وأشعر به. كما أنّنا جميعنا نتابع نفس الغايات." أمّا لدى أصدقائها الألمان فهي تشعر بأنّ "الأشياء تجري على نحو أكثر برودة، عندما نلتقي داخل مجموعة على سبيل المثال، فإنّ ذلك يتمّ دوماً تحت شعار: من يأتي فليأت ـ ضرب من عدم الاكتراث." الشعور بالارتياح والسكينة العائليّة، واللغة وتلك الدعابة والفكاهة الأفغانيّة الخاصّة؛ كلّها أشياء ممّا لا ترغب في فقده، ومن أجل ذلك تقدّم طوعاً بعض التنازلات وتنجح في الوقوف بتوازن على طرفي متطلّبات العائلة من جهة والمجتمع الألماني من الجهة الأخرى.

منذ اسقاط حكومة طالبان وتولي قرضاي سلطة الحكومة الانتقالية، تغيّرت أشياء كثيرة في حياة شباب جيل المنفى. منذ سنتين تدفّق سيل الأخبار والتحقيقات الصحفيّة دفعة واحدة من قلب أفغانستان، وفي الأثناء أصبح هناك أيضاً خطّ رحلات جويّة يربط بين فرانكفورت وكابول.

"أصبحت أفغانستان الآن شيئاً ملموساً بالنسبة لي، وغدا بإمكاني أخيراً أن أكوّن لي صورة خاصّة عنها"، تقول حوميرا، ثمّ تضيف بحماس: "لقد بدأت لديّ منذ التحوّل مرحلة جديدة من البحث عن الهويّة." بل وأكثر من ذلك "سنشارك في عمليّة تطوّر جديدة، فالبلاد انفتحت وسيكون بإمكاننا أن نكون جزءاً منها ونساهم في بنائها."، إنّه وعي جديد لدى جالية المنفى و حافز اندفاعة كبير بالنسبة إلى الكثير من الأفغان.

أما بخصوص ما إذا كانوا سيعودون إلى وطن آبائهم أم لا، فتلك مسألة تختلف حولها آراء الشباب الأفغاني اختلافاً كبيراً على أيّة حال. فالعودة غير مطروحة بالنسبة إلى التلميذة سوزان نافيد، في الوقت الحاضر على الأقلّ: "أريد أن أدرس هنا، لقد ترعرعت هنا، وأصدقائي هنا، وكذلك ماضيّ ومستقبلي"، تقول سوزان التي تبلغ السابعة عشرة من العمر. ثمّ يأتي الاعتراف الأكثر وضوحاً: "إنّ نمط الحياة الذي أعيشه هنا لا يمكن تصوّره في أفغانستان حالياً." وعندما تُسأل إن لم تعد تشعر بنفسها كأفغانيّة؟ فإنّها تجيب محتجّة: "بلى، وبكلّ تأكيد!"، لتضيف: "إنّني ما أزال أحمل في قلبي دائماً تلك العقليّة، لكنّني لا أستطيع أن أنكر أنّ جزءاً منّي ألمانيّ أيضاً؛ إنّ كلّ من يعيش هنا ويدّعي أنّه ليس ألمانياً في جزء صغير منه، هو كاذب." لعلّه سيكون بإمكانها في ما بعد ـ بعد انتهاء دراستها ـ أن تقدّم لبلد أبويها مساعدة ما، ماليّة أو في مجال الخبرة المهنيّة. أمّا جميلة التي تعيش في فرانكفورت فتتصوّر على عكس سابقتها أنّه من المحتمل أن تعود لفترة من الزمن إلى أفغانستان، "كي أكتشف أخيراً جزءاً آخر منّي هناك." ولعلّها تستطيع تقديم مساعدة ما في المجال الاجتماعي، لكن بعد الانتهاء من دراستها.

وإلى جانب هاجس البحث عن الهويّة الذاتيّة يلعب الشعور بالمسؤوليّة السياسيّة دوراً مهمّاً لدى البعض. وهكذا فإنّ أمر العودة بالنسبة إلى مصطفى مسعود شيء وارد جداً، كما يقول: "لأنّ لديّ شعوراً بمسؤوليّة مشتركة"، وهو على قناعة بهذه المسؤوليّة: "إن لم يكن جيلنا هذا الذي حظي بالتمتّع بالتعليم والتكوين داخل محيط سلميّ هو الذي سيسعى إلى جعل الوضع يسير باتجاه التقدّم هناك، فأنا لا أدري من ذا الذي سيكون بإمكانه أن يقوم بذلك إذاً!" أمّا أن يُسأل هناك من قبل بقيّة الأفغان أين كان طوال كلّ هذه السنوات الماضية، فذلك ليس من شأنه أن يكون مبرّراً لعدم المساهمة في إعادة بناء البلاد. "إنّنا أفغان مثل كلّ الآخرين، حتّى وإن كنّا تربّينا وتأهّلنا اجتماعيّاً بطريقة مغايرة وتلقّينا معارف مختلفة."

إلى ماذا ستفضي الخطوط الجديدة للبحث عن الهويّة وإلى أين ستقود هذه الأجيال الشابّة من أفغان المنفى، فذلك ما يظلّ سؤالاً مفتوحاً. وحالياً سيظلّ ما تعتبره جميلة حالة مميّزة لجيلها هو ما يعبّر بصدق عن وضع هذا الجيل: "صراع دائم مع الذّات، مصادمات مع العائلة، عدم شعور بالانتماء، العيش بروحين في جسد واحد." أمّا مريم فتروي: "أبي قال لي: لا تجعلي حياتك ترتبط بأفغانستان؛ ما الذي ستفعلينه إذا ما انهار كلّ شيء من جديد هناك؟"

ترجمة: علي مصباح

عزام ر. زرياب Azam R. Zaryab

حيات تحت شجرة الدردار

قصة أفغانية

اعتادت أمي أن تقول: "لا تقترب من أشجار الدردار، فعندها توجد الحيات!" وكانت تكرر تحذيرها يومياً، وكان من أثر ذلك أن ارتبطت الحيات في مخيلتي ارتباطاً وثيقاً بشجرة الدردار.

في قريتنا كان هناك مرج صغير على إحدى ضفتي حوض النهر الذي كاد أن يجف تماماً. وعلى حافة المرج كان هناك عدد كبير من أشجار الدردار المتجاورة، وكانت محاطة بكثير من الأعشاب، وبزهور برية منها الأصفر والأبيض والبنفسجي. ولمعت الزهور والأعشاب فوق الأرضية الخضراء مثل نجوم صغيرة ملونة. ولا بد من القول إن هذه الناحية من حوض النهر على حافة المرج كانت ساحرة جداً.



عزام ر. زرياب، تصوير: Stefan Weidner

وكنت أحب عبور حوض النهر وأن أستلقي وأتمدد على سرير المرج الأخضر ثم أحملق في السماء الزرقاء الصافية واستمتع بالنسيم الخلاب الآتي من الغابة الصغيرة. أحياناً كنت ألاحق إحدى الفراشات وهكذا حدث ذات مرة أن اقتربت من الغابة الصغيرة. اختفت الفراشة وسط الأعشاب والأغصان وغمرني فجأة شيء من الخوف.

عادت إلى ذاكرتي كلمات أمي: "لا تقترب من أشجار الدردار، فعندها توجد الحيات!"

نظرت إلى فروع أشجار الدردار بخوف وفضول منتظراً أن أكتشف ثعباناً يلتف حول أحد الفروع.

اعتادت أمي أن تقول: "الحيات تحب أشجار الدردار. أينما كانت أشجار الدردار، فهناك حيات." وقالت أيضاً: "دائماً حيثما تزهر أشجار الدردار يجن جنون الحيات. عطر أزهارها يهيج الحيات ويجعلها أكثر خطورة!"

إلا أنني لم أكتشف أبداً أي ثعبان بين فروع الأشجار، لكن أوراق شجرة الدردار كانت تلمع في الشمس مثل ذرات صغيرة من حافظات البذور الداكنة اللون. ولم يصدر عنها أي صوت وساد الصمت في كل الأنحاء.

اعتادت أمي أن تقول: "تمد الحيات الموجودة تحت شجرة الدردار لسانها المشقوق للأمام غضباً ويصدر عنها فحيح. وتسحر عيناها اللتان تشبهان ماستين سوداوين البشر وتشل حركتهم."

لهذا السبب فزعت من أقل حركة تصدر عن أية ورقة. اعتادت أمي أن تقول: "هذه الحيات عبارة عن سحرة أصلهم من الهند. ويحول سُمها البشر إلى رماد."

ذات مرة سألت أمي: "ماذا تفعل الحيات هنا؟ لماذا لا تعود إلى الهند؟"

وأجابت: "جلبها السلطان محمود الغزنوي منذ وقت بعيد وحبسها هنا، وستظل باقية في هذا المكان إلى يوم الدين."

أحياناً كنت أشعر بالشفقة على هذه الحيات. فهذه الكائنات البائسة كانت أسيرة بلا موطن. محمود الغزنوي، يمين الدولة، كم كان له من نفوذ وسطوة. في كل مرة كان ينطلق فيها بجيشه الضخم للجهاد في الهند، كانت النمور تأتي إليه لنيل رضاه والحيات كانت تحني رؤوسها أمامه. على الأقل هذا ما كانوا يحكونه في قريتنا.

أوضحت لي أمي قائلة: "كانت الحيات السوداء، الموجودة تحت شجرة الدردار، سحرة، غفلوا ذات مرة أن ينحنوا للسلطان محمود الغزنوي، وأمر السلطان بقتلهم لكن السحرة تحولوا إلى حمامات واختفوا في السماء. أمر محمود وزيره بأن يقبض على الحمامات. تحول الوزير الذي كان أيضاً ساحراً بارعاً في الحال إلى نسر ملكي. وتبع الحمامات وأمسك بها بسرعة بمخالبه ثم استدار وألقى بها أمام قدمي محمود. ومن قلة

حيلتهم بدأ السحرة في النحيب. لقد بكوا وترجوا السلطان سبعة أيام كاملة وأحمرت أعينهم في البدء فصارت مثل الياقوت، ثم تحولت إلى فحم أسود. وفي النهاية تراجع محمود عن اعتزامه قتلهم. لكنه أمر وزيره بأن يحولهم إلى حيات وأن يجلب هذه الحيات إلى غزني حيث يتحتم عليها البقاء بها إلى يوم الدين. وأخذ الوزير الحيات وجلبها إلى قريتنا."

أحياناً كنت أسأل نفسي: "ألم يجد وزير السلطان محمود مكاناً غير قريتنا ليحبس فيه السحرة؟ ولم هذه العقوبة الوحشية؟" ولم أجد إجابة على أسئلتي لكن كلمات أمي جعلت الغابة بالنسبة إلي مكاناً مغرياً وغامضاً ومثيراً للخوف.

في هذا العام عندما حل الربيع حملت نباتات الدردار زهورها، وتعلقت عناقيد من زهيرات الدردار ذات اللون الأصفر العسلي على الأغصان. عبر شذاها الخلاب حوض النهر وانتشر في كل الأرجاء، وجذبني إلى أشجار الدردار. لكنني خفت أيضاً من الحيات السوداء. وتمنيت لموسم إزهار أشجار الدردار أن ينقضي بسرعة، لكي أتمكن من جديد من عمل رحلات استكشافية في هذه المروج الخضراء الغنية بالفراشات الرائعة.

لكن لم أجد مجالاً لتحقق رغباتي. وبدا موسم إزهار أشجار الدردار وكأنه لا يريد أن ينقضي. ظلت الزهيرات عالقة على الأغصان في زهو ولم تكف عن نشر شذاها الحلو في المكان. ومع الوقت فاض الكيل بصبري ولم أعد أحتمل. وهكذا عبرت في أحد الأيام حوض النهر إلى المرج. كان الخضار النضر ناعماً وله لون الفستق. كان خضاراً ندياً بصورة مثيرة. من خوفي لم أنظر مطلقاً إلى أشجار الدردار. تمددت بطولي على العشب الأخضر الندي، وعلق عبير زهيرات الدردار في كل أرجاء المكان. وفي وسط المرج الفستقي اللون نمت زهور صفراء وبيضاء صغيرة.

وفي آخر الأمر لمحت فراشة جميلة وقفت فوق زهرة تشبه النجمة. مئات الألوان كانت تزين جناحيها، ألوان بهية مثل قوس قزح، بل ربما كانت ألوانها أكثر بهاءً من قوس قزح. لكن الفراشة استعدت للطيران ورفرفت مغادرة الزهرة، وحلقت فوق المرج الصغير، هنا وهناك وكنت ألاحقها. وأخيراً ذهبت تجاه أشجار الدردار واختفت بين الأغصان والأعشاب البرية. وأنا.. فجأة تبين لي أنني أقف وسط أشجار الدردار.

تزايد الخوف داخلي وشلَّ حركتي. لم أكن قادراً على الحركة. وبالطبع ظننت في الحال أن الحيات السوداء قد سحرتني. اختلست النظر من طرف العين إلى فروع الشجر وكنت واثقاً من أنني سأجد هناك حيات تلتف حول الفروع وتمتص عصارة شجر الدردار. فجأة أصابني الهلع لأنني سمعت صوتاً. كان الصوت يشبه صوت فحيح الأفاعي. كنت على وشك الإغماء عندما سمعت صوتاً بشرياً يقول: "لا تخف فأنا لست بحية."

وعندما هدأت قليلاً وعاد الدفء إلى جسدي، اكتشفت بالقرب مني ووسط الزهيرات رجلاً هرماً. وبدا لي وكأنه مقيد وسط الزهيرات والحشائش ويحاول تخليص نفسه. كان يرتدي قميصاً قديماً وطويلاً يصل إلى كاحليه، وكان شعره أبيض ولحيته بيضاء كالقطن. وسألته: "ماذا تفعل هنا؟"

وأجاب: "لا أحد يعرف ما الذي يفعله في هذا العالم. و لا حتى أنا."

أردت أن أنبهه إلى خطر الحيات السوداء لكنه سبقني وسأل: "إنك تخاف من الحيات؟ أليس كذلك؟"

قلت: "سُمها يحول البشر إلى رماد!"

ضحك. أتت ضحكاته من أعماق قلبه، وترجرج جسده من أثر الضحك. لاحظت أنه يمسك عصا خشبية خشنة الملمس، تشبه عصي الدراويش الذين اعتادوا أن يأتوا إلى قريتنا بين الفينة والأخرى. يقضون ليلتهم في المسجد وفي الصباح ينطلقون إلى أماكن جديدة غير معروفة.

توقف الرجل العجوز عن الضحك. وفي هذه الأثناء تحرر من الأغصان والأعشاب. كان نحيلاً هزيلاً داكن البشرة. اقترب أكثر. جلس القرفصاء ووضع عصاه بجانبه واستند إلى أحد أشجار الدردار. تأمل أحد فروع الشجرة وقال: "هل حكى لك أحد عن الحيات الخطيرة؟"

قلت: "أمي حكت لي عنها."

قال بصوت هادئ: "اجلس!"

جلست على الأرض متبعاً طريقة جلوسه واستندت إلى أحد أشجار الدردار. لا أعرف لماذا لم أعد خائفاً من أشجار الدردار. تحدث الرجل العجوز: "في يوم من الأيام، كنت أيضاً صبياً صغيراً مثلك.."، تردد قليلاً ثم استطرد قائلاً: "ويوماً ما ستصبح أنت أيضاً شيخاً هرماً مثلي!" وعاود الضحك من جديد ولم أعرف سبب ضحكه، ثم واصل حديثه: "وهذا هو حال العالم."

كف عن الضحك واستمر في حديثه بهدوء. كان صوته هادئاً ومريحاً. انطبعت كلماته في ذاكرتي، إذ قال: "قبل سنوات طويلة عندما كنت صغيراً مثلك، اعتادت أمي أن تقول: لا تقترب من أشجار الدردار، فعندها توجد الحيات، واستطردت تقول: الحيات تحب أشجار الدردار، فهذه الأشجار تجذب الحيات دائماً! وعندما تزهر يجن جنون الحيات. عطر أزهارها يهيج الحيات ويجعلها أكثر خطورة! في يوم من الأيام كانت هذه الحيات سحرة، تم حبسهم هنا بأمر يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي. عندما كان السلطان ينطلق بجيشه الضخم للجهاد في الهند، كانت النمور تأتي إليه لنيل رضاه والحيات كانت تحني رؤوسها أمامه.

كنت أخاف من أشجار الدردار هذه ومن الأغصان والأعشاب البرية. رغم ذلك كنت أحب عبور حوض النهر وأتمدد بطولي على سرير العشب الأخضر وأحملق في السماء الزرقاء الصافية واستمتع بالنسيم الخلاب الآتي من الغابة الصغيرة. أحياناً كنت ألاحق إحدى الفراشات وهكذا حدث ذات مرة أن اقتربت من الغابة الصغيرة. اختفت الفراشة وسط الأعشاب والأغصان وغمرني فجأة شيء من الخوف. عادت إلى ذاكرتي كلمات أمي: لا تقترب من أشجار الدردار، فعندها توجد الحيات!

لكن في يوم من الأيام لاحقت أحدى الفراشات، مئات من الألوان كانت تزين جناحيها. اختفت الفراشة وسط الأغصان والأعشاب البرية. فجأة تبين لي أنني أقف وسط أشجار الدردار، بل وأنني دخلت وسط الأغصان والأعشاب البرية. من شدة خوفي تسمرت في مكاني، كنت مثل المشلول. وعلى الفور دار بذهني أنني صرت مسحوراً. وظننت طبعاً أن ذلك من فعل الحيات السوداء. رفعت عيني خلسة إلى الأشجار وأنا خائف. وكنت على قناعة بأن الحيات قد التفت حول أفرع الأشجار لامتصاص رحيق زهيرات الدردار. فجأة فزعت فزعاً شديداً لأنني سمعت صوتاً يشبه فحيح الأفاعي. كنت على وشك الإغماء وفي هذه اللحظة سمعت صوتاً يقول: لا تخف، فلست بحية.

وعندما هدأت قليلاً وعاد الدفء إلى جسدي، اكتشفت بالقرب مني ووسط الزهيرات رجلاً هرماً. وبدا لي وكأنه مقيد وسط الزهيرات والحشائش ويحاول تخليص نفسه. كان يرتدي قميصاً قديماً وطويلاً يصل إلى كاحليه، وكان شعره أبيض ولحيته بيضاء كالقطن.

وسألته: "ماذا تفعل هنا؟"

وأجاب: "لا أحد يعرف ما الذي يفعله في هذا العالم. ولا حتى أنا."

أردت أن أنبهه إلى خطر الحيات السوداء لكنه سبقني وسأل: "إنك تخاف من الحيات؟ أليس كذلك؟"

قلت: "سُمها يحول البشر إلى رماد!"

ضحك. أتت ضحكاته من أعماق قلبه، وترجرج جسده من أثر الضحك. لاحظت أنه يمسك عصاً خشبية خشنة الملمس، تشبه عصي الدراويش الذين اعتادوا أن يأتوا إلى قريتنا بين الفينة والأخرى. يقضون ليلتهم في المسجد وفي الصباح ينطلقون إلى أماكن جديدة غير معروفة.

توقف الرجل العجوز عن الضحك. وفي هذه الأثناء تحرر من الأغصان والأعشاب. كان نحيلاً هزيلاً داكن البشرة .اقترب أكثر. جلس القرفصاء على الأرض ووضع عصاه بجانبه واستند إلى أحدى أشجار الدردار.

تأمل أحد فروع الشجرة وقال: "هل حكى لك أحد عن الحيات الخطيرة؟"

قلت: "أمي حكت لي عنها."

قال بصوت هادئ: "اجلس!"

قرفصت على الأرض متبعاً طريقة جلوسه واستندت إلى أحدى أشجار الدردار. لا أعرف لماذا لم أعد خائفاً من أشجارا الدردار. تحدث الرجل العجوز: "في يوم من الأيام، كنت أيضاً صبياً صغيراً مثلك . ."، تردد قليلا ثم استطرد قائلاً: "يوماً ما ستصبح أنت أيضاً شيخاً هرماً مثلي!"

وعاود الضحك من جديد ولم أعرف سبب ضحكه ثم واصل حديثه: "وهذا هو حال العالم!"

توقف عن الضحك وتحدث متأملاً بصوته المؤثر المريح. وانطبعت كلماته في ذاكرتي. قال الرجل العجوز: "قبل سنوات عديدة عندما كنت صبياً صغيراً مثلك، اعتادت أمي أن تقول: لا تقترب من أشجار الدردار فعندها توجد الحيات! وكانت تقول: الحيات تحب أشجار الدردار، فهذه الأشجار تجذب الحيات دائماً. وعندما تزهر، يجن جنون الحيات. عطر أزهارها يهيج الحيات ويجعلها أكثر خطورة! واستطردت أمي تقول: كانت الحيات الموجودة تحت أشجار الدردار في الأصل سحرة، تم حبسهم في ذاك المكان بأمر من يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي وستظل حبيسة هنا إلى يوم الدين!"

كنت أخاف من أشجار الدردار ولكن في أحد أيام الربيع عندما أزهرت أشجار الدردار، اكتشفت فراشة رائعة يتألق جناحاها بمئات الألوان. وجريت وراءها ألاحقها. . .

قاطعت كلام الرجل العجوز وسألته: "وهل رأيت الحيات؟"

أجاب: "رأيت حية واحدة وحيدة. وهذه الحية كانت موجودة هنا بالضبط ولم تكن هناك أية حيات أخرى."

سألته: "ألم تكن خائفاً؟"

أجاب العجوز: "في ذاك الوقت لم أعد صبياً صغيراً بعد، كنت رجلاً يافعاً، بل وكبيراً في السن. كان ذلك في أحد أيام الصيف. احترق كل شيء بفعل حرارة الشمس التي لا ترحم. وكان حوض النهر أقرب إلى الجفاف عبرته وجئت إلى هنا، كنت أريد أن أرتاح في ظل الغابة. بدأت أشجار الدردار تنضج بفعل الضوء والحرارة، وبدأت أحسب الأيام الباقية لها حتى تنضج تماماً. في هذه اللحظة اكتشفت حية. كانت تزحف على الأرض ببطء مصدرة فحيحها. كانت سوداء مرقطة ببقع بيضاء. أخذتُ عصاي لأهوي بها على رأسها لكن الحية ابتعدت عني بضع خطوات. كانت عيناها حزينتين. وأثارت في نفسي انطباعاً بالكلل وقلة الحيلة. سعلت عدة مرات ثم تحدثت بصوت حزين: "أنا لا أؤذي أحداً .لا تخف مني!"

لملمت نفسها بجهد والتفت بشكل لولبي. سعلت ثانية وواصلت الحديث: "لقد صرت عجوزاً جداً"، وضحكت. كان لضحكتها رنين مرير، وقالت: "هذا هو حال العالم!"

وسألتها: "ماذا تفعلين هنا؟"

منطقة قندوز، تصوير: Knut Müller



هزت رأسها وأجابت: "لا أحد يعرف ما الذي يفعله في هذا العالم! وأنا أيضاً لا أعرف!" ثم تنهدت وأضافت: "في الظهيرة أتربص هنا في هذا المكان وسط الحشائش والأغصان، علني اصطاد ضفدعاً صغيراً يأتي إلى الغابة. ليس لدي سبيل آخر للعيش."

سألتُ الحية: "هل أنت الساحر الذي حبسه يمين الدولة محمود في هذا المكان؟"

ضحكت الحية بمرارة: "أي ساحر؟ لم أكن أبداً ساحراً، لكن، صحيح أن السلطان محمود قد جلبني إلى هنا." وسألتها: "وكيف وقعت في أيدي السلطان؟"

تلفتت الحية هنا وهناك وأجابت: "يبدو وكأن الضفادع لم تأت اليوم." ثم سعلت من جديد. صغرت عيناها المتعبتان لتصبحا نقطتين ثابتتين. ثم قالت بصوت خفيض: "كنت أعيش في الهند بجانب معبد سومنات. لا شك أنك سمعت اسم هذا المعبد في يوم من الأيام. لقد كان معبداً للإله شيفا أقوى الآلهة الهندوسية. وقد مرت على بنائه قرون عديدة. وكان الأمراء وزوجاتهم يأتون إلى هناك من الأماكن البعيدة مرتدين الذهب والأحجار الكريمة. كانوا يركعون أمام شيفا وينحنون له. كانوا يقدمون لهذا المعبد قرابين كثيرة من اللآلئ والأحجار الكريمة. ولكن حتى الفقراء من الرجال والنساء كانوا يأتون حفاة برؤوس حاسرة وينثرون بخشوع وطاعة أزهاراً جميلة وزيوتاً عطرية زكية أمام شيفا. وكان كهنة المعبد الذين يعيشون حياة زاهدة، يتضورون جوعا ويشبهون في نحافتهم الخشب الجاف. كانوا أناساً مسالمين وكانوا كلما نظروا إلي، كانوا يضمون باطن أيديهم ويرفعونها إلى جباههم .وينحنون في خضوع قائلين بسعادة: "أيتها الحية الملكية!" وفي كل مرة ألتقيهم كانوا يعبرون عن سعادتهم بي واحترامهم لي. كانوا يتركون لي أنواعاً مختلفة من الطعام. ولم أكن بحاجة لاصطياد الضفادع. كانت حياة مريحة ودافئة. وكانت لأجراس المعبد أصوات ذات رنين حسن. وكانت أغاني المعبد تبعث الراحة في النفس وتبث الهدوء في الروح. وفي لحظات الصمت المطلق التي كانت تسود المعبد أحياناً، كان بإمكان المرء أن يستشعر الخلود.



سعلت الحية السوداء المرقطة. نظرت بعينيها اليائستين الحزينتين إلى حوض النهر الجاف واستطردت: "كان ذلك في تلك السنوات التي ذاعت فيها شائعات عن يمين الدولة، وهزت أرجاء الهند. قالوا إنه سلطان قوي ومهاب الجانب، يأتي من منطقة الجبال البعيدة، وقالوا إنه يخرج في حملات بعيدة بحثاً عن المعابد ليدمرها وينهبها. فبمرور القرون تكومت في معابد الهند كنوز وثروات ضخمة من اللآلئ والأحجار الكريمة والذهب والفضة. وكل معبد كان يعد في واقع الأمر خزانة للكنوز. وكان يمين الدولة يهتم كثيراً بالكنوز. كان يقطع كل عام مع مقاتليه الذين لا حصر لهم مسافات طويلة ويعبر الجبال والصحاري، ويأتي إلى الهند. حطم وقتل وهدم وحرق. ثم حمل كنوز المعابد على ظهور الأفيال والخيل والجمال وجلبها إلى مدينة غزني أي إلى هذه المنطقة. وسلب جنوده الناس البسطاء ممتلكاتهم القليلة وأرغموا الشباب والشابات على الوقوع في أسر العبودية."

سعلت الحية السوداء من جديد. وبدا لي وكأن دمعة ستسيل منها. أغلب الظن أنه قد خطرت لها ذكرى تخصها في تلك السنوات البعيدة.

سألتها: "وماذا حدث بعد ذلك؟"

استمرت في الحديث وقد أحنت رأسها: "وأخيراً جاء الدور على معبد سومنات. ويا لها من مصيبة حلت بالمعبد في ذلك اليوم. اسودت التلال والصحاري على يد مقاتلي محمود.

أثارت دقات الطبول الضخمة وأصوات الأبواق وصهيل الخيول وضجيج الأفيال وصرخات الفرسان الرعب في النفوس. وانصهرت شجاعتنا وسط هذا الضجيج. وسود التراب الذي وصل حد السماء وجه الشمس الساطع، كان مشهد يـشبه خسوف الشمس. جموع كبيرة من البـشر، رجال ونساء وأطفال، وجدوا الملاذ في معبد سومنات. تمرغ الكهنة في التراب ودعوا شيفـا ليحمي معبده. واستمروا في الهمهـمة بأدعيتهم وتعاويذهم وقرعوا أجراس المعبد."

واصلت الحية السوداء حديثها قائلة: "أمسكت النساء بشعورهن المشعثة بأطفالهن الرضع، وزحفن واختبأن في زوايا المعبـد والتصق الآخرون بأسـوار المعبد وأعـمدته وكأنهم يـريدون أن يخفوها عن أعين مـقاتلي محمود. صار المعبد فـي قلب دائرة حصار جيش محمـود، وصارت هذه الدائرة مع كل لحظة تمر، أضيق وأضيق. وولول الكهنة الحائرون: شـيفا أيها الإله القوي المدمـر؟ أين غضبك؟" وتسمر الجـميع في انتظار حدوث معجزة. تمنوا أن نار غضب شيفا ستشتعل وتحول محمود ومحاربيه إلى رماد.

شعر الصغـار بالظمأ وطلبوا الماء. ولم يكن هناك ماء وهكذا بكوا غـير صابرين. كان لنحيـبهم أن يذيب القلوب ولو كانت من حجر. ثبَّت الشيوخ النحاف والرجال والنسـاء الذين أحرقتهم الشمس نظرتهم على شيفا بصورة تثير العجب، فهم لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا يقف هكذا ساكناً ولا مبالياً.

في نهاية المطاف دخل محمـود من باب المعبد مرتدياً ملابسه الواقية وخوذته الشـهيرة المصنوعة من الصلب الدمشقـي اللامع، وراكباً على حصـان قوي أسود. حطم الجنود الباب ودخل السلطان بحـصانه إلى فناء المعبد. عندئذ وصل عويل وصراخ الرجـال والنساء والأطفال إلى ذروته. ثم ساد فجـأة سكون مخيف. خرس بكاء وصراخ وندب هؤلاء البشر اليائسين، الذين لم يجدوا من يذود عنهم. حتى الأطفال العطشى صمتوا. تسمر الجميع خوفاً من ذاك الرجل القوي يمين الدولة السلطان محمود.

في هذه اللحظة خرجت من مكاني. كنت غاضبة لأن يمين الدولة لم تأخذه شفقة أو رحمة بهؤلاء المساكين البؤساء. كنت غاضبة لأن السلطان دخل بحصانه مكاناً مقدساً بمعبد شيفا الجبار القهار. كنت غاضبة لأنه عذب وأهان هؤلاء المساكين الذي بحثـوا في المعبد عن ملاذ لهم. تلفت حولي لم أعـرف ما الذي ينبغي علي عمله. لم تكن لدي أدنى فكرة عن الكيفـية التي يمكنني بها المساعـدة، لكن الكهنة ظنوا أنني منقذة المعبد. لذلك انحنوا أمامي بعرفان وإعجـاب ونادوا: أيتها الحية الملكية! وخلفهم تصاعدت أصوات مليئة بالفرحة والأمل، تعبـر عن السعادة والإعجاب وتنادي: أيتهـا الحية الملكية! وعلى شفاه الجـميع ارتسمت ابتسامة وجلة ممزوجة بالدهشة والثناء.

عندئذ لاحظ السلطان محمود وجنوده وجودي. وشد الجنود أوتار أقواسهم حـتى لامست حواف السهام أطراف آذانهم. وتيقنت من أنني سأثقب في ثوان معدودة. رأيت الموت واضحاً أمام عـيني وشعرت بأنني جزء من الخلود، لكن فجأة لاحظت أن محمود أعطى رمـاته إشارة لينكسوا أقواسهم، وفسرت أمره على أنه إشارة للسلم والصلح. لذلك تحركت تجاه مـحمود. فزع حصانه وبدأ في الصـهيل خائفاً. وكان على وشك القفز لولا أن جنوداً أقوياء أمسكوا بالزمام بقوة وهدأ الحصان.

زحفت حتى اقتربت على بعد خطوات قليلة من محمود وتسمرت في مكاني.

نظرت للحظة داخل عـينيه. ولم أر بها شـيئـاً سوى الشر والطمع، شـر وطمع لا حد لهـما. رغم ذلك أحنيت رأسي أمامه. وأردت بهذه الحركة أن أترجاه ألا يصبح معذباً لهؤلاء البشر البؤساء وأن يصون المعبد من الدمار وأن يعود بأسرع ما يمكن من حيث أتي. أردت أن أبرهن له أن حية معبد سومنات على استعداد لأن تتذلل أمامه من أجل بلوغ هذه الغاية السامية. أردت أن التمس منه الرحمة للأطفال العطشى وللرجال والنساء الخائفين اليائسين. أردت أن أوضح له أن هذا المعبد، أي مـعبد سومنات هو مقر العـبادة والصلاة لهؤلاء البـشر منذ عـدة قرون. أردت أن أبين له . . . ، لكن في هذه اللحظة، سـمعت أحـد قادة الجند يصيح بانتصار قائلاً: انظروا! الحية حارسة الكنز، تُسلم المعبد إلى السلطان!"

أحزنتني كلماته وأفزعتني. ارتفع صياح الجنود. أمر يمين الدولة بإلقائي في صندوق. وعندما عدت إلى صوابي وجـدتني في صندوق مظلم. وسمعت كيـف أمر السلطان بتدميـر معبد سـومنات، وتحطيم تمثال شيـفا. في ظلمة الصـندوق سمعت شكاوى وصـراخ وبكاء النساء والرجـال والأطفال. صهلت الخـيول وصاحت الأفيال. وهلل الجنود المظفرون عالياً بصيحات النصر. في هذه اللحظة شخت بمقدار مائة عام. شعرت بأنني تحطمت من الداخل."

صمتت الحية. وسمعت فحيحاً خافتاً. بدا لي وكأنها تتنفس بصعوبة. ثم واصلت حديثها: "في هذه الحالة جاؤوا بي إلى غزنة، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من مقتنيات القصر السلطاني. كان القصر بالنسبة إلي وسطا غير معتاد. كل ما حولي كان غريباً. لم يكن هناك من يحترمني. لم أعد حية ملكية بعد. كنت كائناً محتقراً وخائفاً.

عندما أتيت إلى غزنة انتشرت إشاعة كالنار في الهشيم مفادها أن ملكة الحيات الهندية قد قبلت قدمي يمين الدولة السلطان محمود الغزنوي وتنازلت له عن كل كنوز الهند. وحكوا أيضاً أن محمود قد أحضر ملكة الحيات الهندية إلى غزنة وحبسها هناك. بعد ذلك تهامس الناس فيما بينهم أنه في كل مرة يخرج فيها محمود إلى الهند للجهاد، تأتي إليه الحيات لنيل رضاه. كذلك حكوا أن السلطان محمود قد حول بعض السحرة الهنود إلى حيات وحبسها في غزنة.

قدمني السلطان بنفسه إلى كبار ضيوفه القادمين من بلدان أجنبية أو من الأطراف القصية لمملكته الشاسعة، وكان يقول: "هذه الحية هي التي سلمتنا كنوز معبد الأصنام في سومنات. لقد وضعت رأسها أمامي في التراب!" وكان الضيوف يندهشون ويمدحون السلطان: طال عمر السلطان. وكل ما حدث، حدث بمشيئة الرحمن. ويضحك السلطان راضياً وفخوراً.

وذات مرة عندما كان رسول الخليفة في بغداد في قصر السلطان، أراد محمود أن يرسل بهدية إلى الخليفة، لكن ذاك الرسول قال للسلطان أن ببلاده حيات كثيرة. وعليه أرسل محمود عشر عذراوات جلبهن معه من كشمير، إضافة إلى اللآلئ والأحجار الكريمة. وقبل الرسول هذه الهدايا بسرور.

وأخيراً مرض يمين الدولة بالدرن. واكتشف الأطباء أن الضحك أفضل علاج له. وبذل السلطان كل جهده من أجل أن يصفو باله ويعتدل مزاجه. فأحضر مهرجاً لبلاطه اسمه طالهاق. وهذا المهرج دأب على القيام بمزح ثقيلة وسخيفة مع السلطان، لكن السلطان كان يضحك. وكانت حاشية البلاط تخشى المهرج كثيراً، لأن هذا الشخص الوضيع، كان على صلة مباشرة مع السلطان وكان عزيزاً على السلطان.

ودأب المهرج الذي لا يعرف الشفقة على تعذيبي. كان يقوم بشكي بإبرة مثبتة في عصا طويلة وكان يأمرني بعناد: يا الله، اضحكي! اضحكي!، وطبعاً لم أفعل. كيف لي أن أضحك؟ كانت الإبرة تثقب جسدي. كم كان الألم شديداً! لكن المهرج القاسي كان يضحك فقط وبدا أن السلطان كان يجد في ذلك أيضاً تسليته.

أحيانا كنت أندفع لأقول لهم: أنا حية ملكية. أنا حية معبد سومنات، راعوا واحترموا مكانتي!، لكن كان من الواضح بالنسبة إلي أن ذلك لن يجدي. وكيف يمكن أن أتوقع من الذين دمروا المعبد ونهبوه أن يحترموا مكانة حية المعبد المقدسة؟ وهكذا تحملت كل شيء ولم أحرك ساكناً. في الحقيقة خرجت مني صرخة وحيدة. كانت هي شكواي. كل حياتي أصبحت شكوى. شكوى عنيفة وقلت لنفسي لو تمكنت من كتمانها لتبخر جسدي وتحلل في الهواء.

في نهاية الأمر أرسلوني إلى منزل أحد الأطباء، اسمه أبو الريحان١، وكان هذا الطبيب رجلاً طيباً لطيفاً وذكياً، وقد رافق محمود عدة مرات في رحلاته إلى الهند. وكان يعرف عقائد وعادات وتقاليد البشر الذين يحيون هناك وكان يعلم جيداً بمكانتي وتقدير واحترام الناس لي هناك. هذا الرجل لم يعذبني مطلقاً، وفي بعض الأحيان حينما نكون وحدنا كان يتحدث إلي باللغة التي تعلمها من علماء الهند. بل وكان ينحني أمامي من آن لآخر ويتحدث بصوت خفيض، وكأنه لا ينبغي لأحد أن يسمعه، ويقول بكل احترام: أيتها الحية الملكية!، ثم يبتسم بلطف وإحساس.

لقد جلبني إلى منزله لإجراء بعض التجارب معي. كانت تجارب غير ضارة. ولم تسبب لي جهداً ولا حزناً، لكن العالم كان يأخذها مأخذ الجد. ذات مرة مثلاً وضع أحجار الزبرجد في قفصي لمدة عشرة أيام. ثم فحص عيني فحصاً دقيقاً، وتبين له أنني لم أفقد بصري. ثم دوّن بانفعال كل مشاهداته في كتبه. وأثارت المعارف التي توصل إليها إعجاب العلماء الآخرين الذين ظنوا أن الزبرجد يؤدي إلى عمى الثعابين.

كان العالم أبو الريحان طوال الوقت غارقاً في كتبه، وعاكفاً على تدوين معارفه. كان يسهر الليل بطوله.

وكان يصمت ويبقى ساكناً بلا حراك لمدة طويلة قبل أن يعود إلى التدوين والكتابة في صحفه.

ولا بد أن أقول أن الأيام التي قضيتها في بيت أبي الريحان من أفضل الأيام التي قضيتها في هذه المنطقة. لكن هذا الوقت السعيد لم يدم طويلاً. وسرعان ما أعادوني إلى بلاط السلطان مرة أخرى. كان ذلك بأمر السلطان. اقترب مني أبو الريحان للمرة الأخيرة، وانحنى أمامي وتحدث بصوت خفيض: أيتها الحية

الملكية!، ثم جلبوني إلى قصر السلطان. وهناك كان المهرج الوقح في انتظاري بعصاه الطويلة التي ثبت فيها سن الإبرة. وصار جسدي من جديد عرضة للوخز وأصبحت ثانية وسيلة لإضحاك السلطان وحاشيته.

وأخيراً مات يمين الدولة محمود بالدرن، وتولى ابنه مسعود الحكم بعد صراع مع أخيه. ولم يهتم السلطان الجديد بالثعابين وألعاب الثعابين. لذلك طردني من بلاطه وبدأت معاناتي من جديد. وانتقلت من يد إلى يد. ويا لكم البشر الأنذال الذين تعرفت عليهم وكم من المهانات تحملت. وفي آخر الأمر وقعت في يد أحد الصعاليك، كان يصطحبني معه إلى أسواق غزنة ويعرضني أمام الناس مقابل المال. وكان ذاك الشخص البدائي يسميني باحتقار ملكة الحيات «شاه مار». وأصبحت أيضاً لعبة في يد الأطفال في حواري السوق.

قضيت فترة الإذلال والمهانة تلك تماماً على قدرتي على المقاومة. لم أعد قادرة على الأكل. كنت كالمشلولة، ولم أستطع التحرك إلا بجهد كبير. وأرغمني الصعلوك ذو القلب القاسي، مثله مثل المهرج في بلاط محمود، على الحركة بوخزي بعصا فيها إبرة مثبتة في قمتها. كانت حياة مرة مليئة بالعذاب والألم."

صمتت الحية السوداء. كانت عيناها مغلقتين. ولم يصدر عنها أية حركة. كانت وكأنها قد سقطت مغشية عليها. لكن بعد فترة تحرك رأسها قليلاً. ثم فتحت عينيها المتعبتين الخائرتين وتحدثت: في أحد الأيام أتى ذاك الصعلوك إلى ضفة هذا النهر وأراد أن يستحم. ونسي أن يحكم إغلاق غطاء السلة التي وضعني فيها. خبأت نفسي بين الأغصان والأعشاب البرية. ورغم أن الصعلوك القاسي القلب قد بحث عني كثيراً، لم يجد لي أي أثر. كان غاضباً جداً وأخذ يسبني بأقذع الشتائم، لكنه انصرف في آخر الأمر بدوني. ولم أره بعد ذلك مطلقاً.

ومنذ ذاك الوقت انقضت سنوات عديدة. وأنا أعيش هنا معزولة وحيدة دون صديق أو معين. في الشتاء يكون البرد قارساً وأتسمر في ذاك الفصل بلا حراك تحت الأرض. كم كان وقتاً جميلاً في ذاك الركن من معبد سومنات. كم من أيام سعيدة ورائعة قضيتها هناك. كان الهواء دافئاً وله رائحة طيبة. كانت دقات أجراس المعبد تبعث الراحة في القلب. واعتاد الكهنة كلما قابلوني أن يحيوني بـ "أيتها الحية الملكية!" كان الأطفال الصغار عطشى ويطلبون الماء.. الجميع تساءلوا لماذا ظل شيفا صامتاً.. وصلت صرخات النساء والرجال والأطفال إلى عنان السماء.. كنت أريد أن يرى أن الحية الملكية تنحني أمامه.. الحية التي كانت حارسة الكنز تسلم معبد الأصنام إلى السلطان.. ملكة الحيات الهندية قبلت قدمي السلطان محمود.. طال عمر السلطان. وبالتأكيد فإن ذلك يتطابق مع مشيئة الله.. كم من الآلام سببتها لي هذه العصا ذات الإبرة المثبتة في رأسها.. كان المهرج يضحك ويضحك.. على أية حال أنا حية ملكية، الحية المقدسة لمعبد سومنات. أبا ريحان أبا ريحان لا تسمح لهم أن يأخذوني من بيتك.. آه من تلك العصا ذات الإبرة.. أيها الإنسان الخبيث لماذا تعذبني؟ يا له من ذل.. يا لها من إهانة، يا لها من إساءة.. أيتها الحية الملكية.. كنت صرخة وحيدة. ظننت لو صمت لتحلل جسدي.. أنا حية ملكية.. حية معبد سومنات.. أيتها الحية الملكية.. يا له من ذل.. الغوث.. الغوث.. محمود.. محمود يمين الدولة، لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟"



وضعت الحية السوداء رأسها على الأرض وظلت ساكنة. انتظرت بعضاً من الوقت، لكنها ظلت ساكنة. لمستها بعصاي، لكنها بقيت ساكنة. أخذتها بين يدي ولاحظت أنها ماتت. كانت خفيفة خفة الريشة. ولم أعرف ماذا أفعل بجسد الحية الخالي من الروح. في آخر الأمر دفنتها وسط الأعشاب والأغصان.

في أحد أيام الربيع وقت الظهيرة عبرتُ حوض النهر وأتيت إلى هذه المنطقة. أزهرت أشجار الدردار وكان للنجيل النضر لون الفستق. بحثت عن الموضع الذي دفنتُ فيه الحية. ورغم بحثي المضني لم أستطع أن

أجده. فقـد نمت الأغصـان والأعشاب البرية في كل مكان. وعندمـا أردت أن أعود علقت يداي وقـدماي بالأغـصان. وعندمـا أردت تخليص نفسي لمحت الصـبي الصغـير الذي كـان قد خطا عـدة خطوات وسط الحشائش. أصيب الصبي بالشلل من شدة الخوف، وقلت له: "لا تخف، فلست بحية!"

وقال الصبي: "ماذا تفعل هنا؟"

وأجبته: "لا أحد يعرف ما الذي يفعله في هذا العالم. ولا حتى أنا."

وكان على وشك أن يقول شيئا لكنني سبقته: "إنك تخاف الحيات. أليس كذلك؟"

قال الصبي: "سم هذه الحيات يحول البشر إلى رماد!"

تذكرت حية معبد سومنات الضعيفة التي لا حيلة لها ولم أجد مفراً من الضحك. ضحكت من أعماق قلبي. ثم تحررت من الأغـصان والحشائش المتـشابكة. جلست على الأرض واستندت إلى شـجرة الدردار وسألت الصبي: "إذن فقد حكوا لك عن هذه الحيات الخطيرة؟"

وأجاب: "حكت لي أمي عنها."

أمرته: "اجلس!"

وجلس مثلي على الأرض واسـتند إلى شجرة الدردار. قلت بصوت خفيض: "قـبل سنوات عديدة، عندما كنت صبياً صغيراً مثلك، اعتادت أمي أن تقول: "لا تقترب من أشجار الدردار فعندها توجد الحيات!"

وأثناء حديثي، كبر هذا الغلام شيـئاً فشيئاً. صار رجلاً يافعـاً ثم أصبح شيخاً كبيـراً ثم صار هرماً، وهذا ما ينبغي أن يكون. هذا هو حال العالم، هذا ما ينبغي أن يكون."

ترجمة: *أحمد فاروق*

مقبرة باميان، ١٩٦٨، تصوير: *Roland and Sabrina Michaud*

من كتاب: *"Unbekanntes Afghanistan", Knesebeck Verlag, München 2002*



Katharina Mommsen كاتارينا مومزن

غوته في حوار مع العالم الاسلامي

صفحات جديدة

حينما نتصفح «الديوان الغربي ـ الشرقي»، تضعنا بدايته في الحال في مواجهة رؤية تدور حول زوال العالم ونهايته:

الشمال والغرب والجنوب تتحطم وتتناثر،
والعروش تثلّ والممالك تتزعزع وتضطرب،

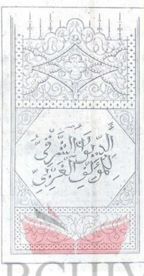
أكـان هذا نداء يعلن اقـتراب يوم الحشـر؟ ومن أين أتى هذا الصـوت الذي حث الشاعر قائلاً:

فلنهاجر إذن إلى الشرق الطاهر الصافي
كي نستروح نسيم الآبـاء الأولـين ...

وكان عنوان القـصيدة التي وردت فـيها هذه الأبيـات هو «هجرة Hegire»؛ ولا مـراء في أن هذا العنوان قـد أقام صـلة بين رحلة شـاعر الديوان الروحيـة إلى «الشـرق الطاهر الصـافي»، حـيث كـان يقطن الآباء الأولون وبين هجـرة النبي محمد من مكة إلى المدينة في عام ٦٢٢ ميلادية، هذا العام الذي بدأت فيه الدعوة الإسلامية فـأضحى بداية التأريخ الإسلامي. والأمر الذي يدعو للعجب هو أن هذه الأبيات، التي تشكل فـاتحة الديوان، كانت قد دبجت في الرابع والـعشرين من كانون أول/ ديـسـمبر من عـام ١٨١٤، أي في الليلة التي تحـتفل فيهـا الأمة المسيحـية بميلاد مخلصـها وبداية العصـر المسيحي. ويثير هذا التـزامن الدهشة ويستـأهل أن نتفكر فيه لا سـيما حينمـا نضع نصب أعيننا أن غوته قـد نشأ في عائلة بروتستانتية وأن والدته كانت متبحرة في الكتاب المقدس وأنه هو نفسه كان واحداً من أولئك البروتستانت الذين بلغت هوايتهم بمطالعة الكتاب المقدس مبلغاً جعلهم يغدون "بمثابة كشافات حـية، فهم يتمرنون على بيان أين توجد كل آية، ويعرفون عن ظهـر قلب النصوص الرئيسيـة، ويحسنون الاستشـهاد بها في كل التطبيـقات الممكنة." إن هذه الجـمل، التي استـشهدنـا بها هنا، مـستقـاة من «التعليـقات والأبحاث» التي كتـبهـا غوته ليعين من خـلالها القـارئ على فهم الديوان. وكان غوته قد أضاف هناك بشأن المتبحرين بالكتاب المقدس قائلاً، بأن هؤلاء لابد أن يكونوا قد وجدوا في ذلك عنصراً رائعاً من عناصر التثقيف، ذلك لأن الذاكرة، وهي مـشغولة دائماً بأمـور رفيعة سامـية، تحتفظ للشـعور والحُكم بمواد صافيـة للاستمتاع والـتطبيق. يتحدث غوته هنا عـن تجربة اكتسبـها إنسان متبحر بالعهدين القـديم والجديد، وذلك ـ وهذا أمر يثير العجب لدى القارئ بلا ريب ـ لكي يعرب عن أحاسيسـه الأخوية حيال الشاعر الفارسي مـحمد شمس الدين حافظ، علماً بأن «حافظ» لقب تشريفي يشير إلى أن هذا الشاعر الفارسي كان مسلماً متديناً حافظاً لآي القرآن الكريم عن ظهر قلب. وكما يؤكد غوته فقد لازم هذا اللقب التـشريفي الشـاعر محـمد شـمس الدين فصار بمثـابة اسم له. وتصور قصيـدة غوته المسماة «لقب»، الواردة في «الديوان» ضمن الجزء المسمى «كتـاب حافظ»، شاعر فـارس الأول في القرن الرابع عشر، في حـوار مع غوته نفسه. ففي هذه القصيـدة التي يتحدث فيها حافظ عن تـقديسه للقرآن الكريم،

نرى غوته يجاريه دونما تردد وذلك لأن بوسعه هو أيضاً أن يقول ـ موقفه في ذلك مثل موقف حافظ حيال القرآن ـ "أنا الذي قبست نفسي الصورة البديعة من كتبنا المقدسة، فانطبعت عليها . . .، على رغم النكران والتكفير، مع الصورة النقية للإيمان." ويسمي غوته حافظاً في كتاب حافظ المذكور أعلاه "توأمه". وهكذا، أهناك صلة أقوى وأمتن من الصلة التي تجمع بين التوأمين؟ ألا يحيرنا أنْ يشعر غوته بأواصر قربى مع حافظ شبيهة بأواصر القربى مع الشقيق التوأم، وإنْ فصلت بينهما قرون من الزمن عديدة وتباعدت ديارهما تباعداً عظيماً واختلفت لغتهما وتباين تراثهما اختلافاً وتبايناً شديدين؟ وكيفما كان الحال، فإن ديوان غوته يُظهر، بوضوح وجلاء، «توأمين»، أحدهما مسلم والآخر مسيحي، في حوار أخوي صادق. وفي الواقع، فأن جلّ الديوان الغربي ـ الشرقي، ومصطلح ديوان يعني، كما هو معروف، المكان الذي يُجتمع فيه، يشتمل على محاورات غربية ـ شرقية، يشارك فيها الكثير من مشاهير الشرق: النبي محمد، شاه عباس الكبير، محمود الغزنوي، تيمورلنك، المفتي أبو السعود أفندي، السلطان سليم، والشعراء حافظ والفردوسي وجلال الدين الرومي وسعدي والمتنبي وحاتم الطائي وغيرهم كثيرون. وهذه الأسماء قليل من كثير، ففي ديوان غوته لا يُعطى مشاهير القوم فقط الفرصة للتعبير عن آرائهم، بل ويُمنح أناس آخرون مجهولو الهوية، من قبيل الساقي وحادي البغال ودليل القافلة والجوهري والتاجر في السوق، لا بل وحتى المتسول أيضاً، الفرصة للتعبير عما يجيش في خواطرهم من أفكار. ففي ديوانه المشتمل على اثني عشر كتاباً وفي القسم النثري منه، أيضاً، المسمى تعليقات وأبحاث، كان غوته دؤوباً على إعطاء أمثلة تشهد على إمكانية الحوار بين الغرب والشرق. (. . .)

وفي وقت مبكر، أي وهو لا يزال في العشرينات من عمره، كان غوته واعياً بضرورة إقامة الحوار الصادق بين العالم الغربي والإسلام. ففي تلك الحقبة كان قد بدأ يهتم بالقرآن دراسة ومناقشة، فراح يدون بعض الآيات من الترجمات المختلفة للقرآن صاباً جام غضبه على ترجمة جديدة كانت قد نُشرت للتو آنذاك وانطوت على ملامح معادية للإسلام عداءاً سافراً تقليدياً واصفاً إياها بأنها "إنتاج بائس". أما وأن غوته كان يناوئ كل الخبائث وأنه كان قد عزم على كسب الود للإسلام، فهذا أمر واضح تشهد عليه الشذرات المتبقية مما يسمى بتراجيديا محمد التي جاءت مناقضة تماماً للصورة الخبيثة التي رسمها فولتير للرسول محمد في مسرحيته، الشهيرة آنذاك، المسماة Le fanatisme ou le Prophète المنشورة عام ١٧٤٢. ولعله تجدر الإشارة إلى أن غوته كان قد حرَّم على شقيقته كورنيليا، إبان دراسته الجامعية في مدينة لايبزج، لعب دورٍ في العرض الذي نظمه بعض المعجبين بمسرحية فولتير الخبيثة. ومهما كان الحال فإن الأمر البين هو أن غوته قد دبج، وهو في سن الثالثة والعشرين، قصائد أشاد فيها بنبي الإسلام إشادة لم يضاهه بها شاعر أوربي آخر أبداً. إلا أن اهتمام غوته بالإسلام لم يقتصر على هذه الحقبة فقط. فبعد ما يزيد على أربعة عقود من الزمن وفي سياق المحاورات التي تضمنها الديوان الغربي ـ الشرقي استأنف غوته اهتمامه بالدين الإسلامي، حيث عمق اهتمامه بالعالم الإسلامي وبناه على قاعدة أكثر اتساعاً وأشد متانة في هذه المحاورات.



غلاف الطبعة الأولى لكتاب:
"الديوان الشرقي للمؤلف الغربي" لغوته

وعلى ما يبدو لي، يكمن أهم عنصر لعلاقة غوته بالإسلام في الإجلال القوي الأساس الذي كان غوته يكنه للإسلام. وللوقوف على هذه الحقيقة عن كثب، اسمحوا لي أن استعين ببضعة أمثلة معبرة توضح ما أقصده. في سن الثانية والعشرين، أي حينما كان لا يزال يصارع من أجل أن يفصح لسانه عن الروح الشاعرة الكامنة في أعماقه، بعث غوته رسالة إلى هردر يقول له فيها: "إني أود أن أدعو الله كما دعاه موسى في القرآن: ﴿رب اشرح لي صدري﴾." ويستشهد غوته هنا بالآية الخامسة والعشرين من سورة طه. ويتبين مغزى استشهاد غوته بهذه الآية، متى ما اطلع المرء على الآيات اللاحقة التي اقتبسها غوته من القرآن في وقت يكاد أن يتزامن مع تأريخ تحرير الرسالة. فموسى يواصل دعاءه هناك قائلاً: ﴿واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي...﴾. ولا مراء في أن استشهاد غوته بالقرآن الكريم في سياق موضوع هو في غاية الأهمية بالنسبة إليه، أعني رسالته الشعرية دليل واضح على القيمة الروحية التي عثر عليها غوته في كتاب الإسلام المقدس في ذلك الزمن المبكر من حياته. وبعد نصف قرن أعلن الشاعر، وهو في عامه

السبعين على وجه التحديد، على الملأ أنه يعتزم أن "يحتفل في خشوع بتلك الليلة المقدسة التي أنزل فيها القرآن على النبي." وتذكرنا العبارات التي اختارها غوته أعلاه، أعني عبارات من قبيل «خشوع»، «الليلة المقدسة»، «أنزل فيها»، بالتأكيد بالعبارات التي تستخدمها الأمة النصرانية أيام احتفالاتها بمولد المسيح. (. . .)



«سورة الناس»، بخط غوته

وقبل فترة وجيزة طرحت صحيفة Neue Zürcher Zeitung سؤلاً مفاده: هل كان غوته مسلماً؟ وذلك كعنوان لمقالة نشرها على صفحاتها مانفريد أوستن Manfred Osten. وفي الواقع فإن هذا الموضوع ليس أمراً سهلاً يمكن الإجابة عليه بنعم أو لا. حقاً هناك أكثر من دليل يشهد على أن غوته لم يكن مسلماً. إلا أننا، مع هذا، نعثر لديه على عبارات وسلوكيات كثيرة تبين أن غوته كثيراً ما كان ينسب نفسه إلى ملة المسلمين. ومهما كان الحال، فالأمر الواضح الذي يمكن تأكيده هنا هو أن غوته قد وظف إمكانياته الفكرية وطاقاته الشعرية لمد الجسور الموصلة إلى عالم الإسلام. وعلى ما يبدو فقد وعى غوته في وقت مبكر أن القدر شاء له أن يكون صلة الوصل بين العالَمين، كما تنوه بذلك العبارات التي دونها هو نفسه في مؤلفه «شعر وحقيقة Dichtung und Wahrheit»، الذي يقول فيه بخصوص افتتانه بفلسطين: "بوسع المرء أن يتحول حيثما يشاء، بوسعه أن يشرع بالقيام بما يريد، إلا أنه سيعود دائماً وأبداً إلى ذلك الدرب الذي رسمته له الطبيعة." وكما هو بين من سيرته الذاتية، كان هذا الدرب، الذي رسمته له الطبيعة، قد قاد غوته إلى الشرق الأوسط، هذا الإقليم الذي فتنه منذ سنوات الصبا افتناناً جعله لا يشعر بالغربة وهو يتجول، روحياً، مع الآباء الأولين في أقطار دجلة والفرات والنيل ونهر الأردن. وحسب تعبيره هو ذاته، فإنه كان، وفي ذلك الزمن المبكر من حياته، "قد هاجر عن رضى وطواعية إلى تلك المناطق من عالم الشرق"، حيث كان يجد فيها "الخلوة ويصحب جمعاً يضم عظاماً." ولعله تجدر الإشارة إلى أن سيرته الذاتية هي السيرة الوحيدة في الأدب العالمي التي ترتبط فيها قصة حياة المؤلف، كما يؤكد ذلك الاستشهاد الحرفي التالي، ارتباطاً وثيقاً بتاريخ "ذلك البلد الجميل المحمود كثيراً وبمحيطه وبالبلدان المجاورة له. . . وبوقائعه وشعوبه أيضاً التي كانت، وعلى مدى آلاف السنين، تكن لهذه الرقعة من العالم أعظم إكبار." ويفصح مؤلفه شعر وحقيقة عن اهتمام غوته المبكر بإسماعيل، الابن البكر لإبراهيم من هاجر المصرية والأب الذي انحدر منه العرب. وكان غوته قد رأى في مولده "تدبيراً من العلي القدير" يشبه إنقاذ ملائكة الرحمن لإسماعيل من الذبح وذلك "لكي تكون لإسماعيل، أيضاً، ذرية عظيمة يؤمل أن يتحقق لها ما لا يمكن تصوره"، أي أن تكون ذرية إبراهيم بعدد نجوم السماء.

وكان النزاع بين إسماعيل وإسحاق، أب الإسرائيليين، قد أخذ مساحة واسعة في سياق حديث غوته عن طفولته، الأمر الذي ينوه بأنه كان قد وعى هذا النزاع في وقت مبكر. وكان غوته قد درج على أن يتحدث عن النزاعات بلهجة آسفة ولكن محايدة؛ فهو لا يتحيز لطرف ضد طرف آخر أبداً. وكان قد تحدث في مؤلفه «شعر وحقيقة» بإسهاب عن الكيفية التي استولى بها إبراهيم على بلاد كنعان والأسباب التي دفعته لأن يقيم هو وذريته في هذه البلاد التي تتصارع عليها ذريته من الإسرائيليين والعرب صراعاً دامياً حتى يومنا الحاضر. وتفصح سيرة غوته الذاتية عن عمق الاهتمام الذي أولاه لسكان فلسطين، فهؤلاء كانوا يظهرون، بالرغم من إيمانهم بالله، ملامح "توحش وقسوة"، تنبئ "عن المستوى الذي يمكن أن يصل أو يهبط إليه الإنسان." وكما أكد فإن "الكتب المقدسة ... لا تريد أن تعرض علينا هؤلاء الرجال الذين أنعم الله عليهم بالبركة على أنهم القدوة الحسنة في الخلق القويم. فهم أيضاً يتسمون بصفات مختلفة متباينة وبنواقص كثيرة وعاهات عديدة؛ إلا أن ثمة خاصية أساسية أرادت المشيئة الإلهية لهم أن لا يحيدوا عنها: إيمانهم إيماناً لا يتزعزع بأن الله قد خصهم هم وقومهم برحمته." وكان غوته قد اعتمد في وصفه هذا على التراثين اليهودي والعربي ـ الإسلامي. وكما هو معروف، فقد تعلم غوته في وقت مبكر ومن دون أن يدفعه أحد إلى ذلك اللغة التي يتحدث بها اليهود الأوربيون واللغة العبرية كما أنه خطى خطوات أولى لتعلم اللغة العربية نطقاً وكتابة. من ناحية أخرى كانت أنظاره قد توجهت، منذ كان طالباً في ستراسبورغ، إلى القرآن فاهتم به اهتماماً عميقاً.

وكان التسامح سمة عصر التنوير. فتجاوباً مع روح هذا العصر أمسى المرء يهتم، إلى جانب اهتمامه بالكتاب المقدس، بالكتب المقدسة لدى الشعوب الأخرى، مؤكداً على أن هذه الكتب أيضاً تستحق الاحترام والتبجيل من قبل ذوي المعتقدات المغايرة. ومع هذا، فالأمر الملاحظ هو أن الآيات التي اقتبسها غوته من القرآن، والبالغ عدد الباقي منها في أوراقه أكثر من عشرين آية، تبين بجلاء أن ثمة تبجيلاً متميزاً يتعدى مساعي التسامح التي نادت بها حركة التنوير. فهي تشير إلى وجهات نظر إسلامية أثارت آنذاك إعجابه الشديد بها وذلك بفعل ما انطوت عليه من وجهات نظر قريبة الصلة بمشاعره وطرائق تفكيره الشخصية. وتبدأ مدونات غوته بسورة البقرة، التي ظلت سورته المفضلة حتى بلوغه سن الشيخوخة: فقد كان قد دون في البداية الآية رقم ١١٢ ذات المغزى الرائع القائلة[1]: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّه وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ.﴾ وتلي هذه الآية الآية رقم ١١٥ القائلة: ﴿ولله المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ فأينما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.﴾ من ثم ينتقل غوته إلى الآية رقم ١٦٤ التي تقول: ﴿إنَّ في خَلْقِ السَّماوات والأرض واختلاف الليْلِ والنَّهار والفُلْك التي تَجْري في البَحْر بما يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماء من ماء فأحيا به الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وبَثَّ فيها من كُلِّ دابَّةٍ وَتَصْريف الرِّياح والسَّحاب المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماء والأرض لآياتٌ لقَوْم يَعْقِلُونَ.﴾

وتعبر الآية أعلاه عن وحدانية الله. وفي الواقع لم يستق غوته ترجمة معنى هذه الآية من القرآن اعتباطاً. فغوته دأب على تثمين دعوة النبي محمد المثابرة إلى الإيمان بوحدانية الله. واشتملت اقتباسات غوته، من ثم، على تأكيد القرآن على ضرورة تأدية أعمال البر والإحسان. ولربما بينت لنا المساحة الواسعة التي احتلتها، بعد ذلك، الدعوة إلى أعمال البر والرحمة والإحسان في الديوان عن اهتمامه الكبير بهذا الجانب من العقيدة الإسلامية.

وتؤكد الآيات الأخرى التي دونها غوته في العامين ١٧٧١ و ١٧٧٢ على أن مشيئة الله اقتضت أن لا تُبَلَغ رسالته إلى البشرية عن طريق رسول واحد فقط، بل اقتضت أن ينهض بهذه المهمة أكثر من رسول. وهكذا دون غوته من سورة آل عمران الآية رقم ١٤٤: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْله الرُّسُلُ أفَإنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ على عَقِبَيْه فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشّاكِرِينَ.﴾ وكذلك الآية رقم ١٧٩: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ على الغَيْب وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِه مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بالله وَرُسُلِه وإنْ تُؤْمِنوا وَتَتَقوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ.﴾

وكما هو معروف فقد جرت نقاشات مسهبة بين الشاب غوته وبين لافاتر Lavater[2] حول ما إذا كان الله قد اجتبى المسيح فقط، أم أنه اجتبى رسلاً آخرين لتبليغ رسالته. وأسفرت هذه النقاشات عن خصومة آلت إلى قطع العلاقة بلافاتر. وكما يتبين من الملاحظات اليومية التي دونها لافاتر، كان القرآن أيضاً، موضوعاً للنقاشات التي كانت تدور بينه وبين غوته آنذاك. وفي إشارة منه إلى النبي محمد سعى غوته جاهداً لأن يرشد لافاتر إلى أن تاريخ الإنسانية قد عرف أنبياء عظاماً خارج محيط النصرانية.

وتنوه اقتباسات غوته القرآنية على أنه اهتم اهتماماً شديداً بالدور الذي نهض به نبي الإسلام وبالمكانة التي حظي بها لدى أمته. فقد دون من سورة العنكبوت الآية رقم ٥٠ التي يرد فيها: ﴿. . . قُلْ إنما الآياتُ عِنْدَ الله وَإنّمَا أنا نَذيرٌ مُبِينٌ.﴾ واستقى أيضاً: ﴿يَقُولُ الّذينَ كَفَروا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْه آيَةٌ مِنْ رَبِّه إنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ ولكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ.﴾ (سورة الرعد، الآية: ٧). وانبهر وشُغِفَ غوته طيلة حياته بالمغزى الذي انطوت عليه الآية الآنفة الذكر، وهو مغزى تضمنته الآية رقم ٤ من سورة إبراهيم أيضاً[3]. ولعل في الرسالة التي بعثها عام ١٨١٩ إلى عالم شاب، خير دليل على انبهاره وشغفه بهذه الآية، فقد كتب مضمناً ما جاء في الآيتين المذكورتين آنفاً: "لقد صدق قول الله في القرآن"، "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه". وكرر غوته مضمون الآية القرآنية ذاتها في رسالة بعثها إلى الأديب الإنجليزي توماس كارلايل Thomas Carlyle عام ١٨٢٧، يقول القرآن: ﴿لقد أرسل الله لكل أمة نبياً بلسانها.﴾

وتركت الاقتباسات من معاني القرآن الكريم المترجمة انطباعاً طويل المدى في وجدان غوته. فقد ضمن بالبيتين التاليين من الشعر، اللذين نظمهما إبان مرحلة تأليفه الديوان الغربي ـ الشرقي، أي بعد مضي عقود من الزمن على استخراجه للآيتين من القرآن، ما جاء في الآيتين المذكورتين أعلاه من معنى:

لست قادراً على تحقيق المعجزات،
هكذا قال النبي،
إن أعظم معجزة هي أني موجود.

وألهمت الدراسات القرآنية في العامين ١٧٧١ و ١٧٧٢ غوته كتابة عمل تراجيدي عن حياة النبي محمد لم تصلنا منه، للأسف، إلا بعض شذرات من نواته. ومع هذا، وبالرغم من قصرها، تفصح هذه الشذرات عن المناحي الأساسية لما كان يشدّ غوته ويجذبه نحو الإسلام، أعني: شخصية النبي وكونه رسولاً لم يكتف بالكلمة في نشر دعوته، مثله في ذلك مثل المسيح، بل جاهد وناضل مستخدماً وسائل دنيوية بحتة أيضاً. ويتبين لنا عمق الإعجاب الذي كان غوته يكنه لشخصية النبي محمد من

خلال قصيدة المديح الشهيرة المسماة «نشيد محمد»، التي جاءت صيغتها الأولى على شكل حوار يدور بين الإمام علي وفاطمة ابنة النبي. وكان غوته قد دبج قصيدة المديح هذه في ربيع عام ١٧٧٣، أي بعد أن درس كل ما في متناول يده من مؤلفات عن الرسول. ويصور (غوته) النبي، بصفته هادياً للبشر، في صورة نهر يبدأ بالتدفق رفيقاً هادئاً، ثم لا يلبث أن يجيش بشكل مطرد ويتحول في عنفوانه إلى سيل عارم. من ثم تصور القصيدة اتساع هذا النهر وتعاظم قوته الروحية في زحفه الظافر ليصب أخيراً في البحر المحيط، رمز الألوهية. وتقوم هذه الصورة على فكرة مفادها أن العبقري الرباني يرى في الآخرين أخوة له يأخذ بأيديهم ويشدهم معه، منطلقاً بهم كالسيل العارم الذي يجرف كل ما يصادفه في طريقه من جداول وأنهار إلى البحر المحيط:

... وهذا هو يجري
في الوهاد، فخوراً بعبابه السلسال الفضي...
وأنهار الوهاد
وجداول النجاد
تهلل جميعاً من الفرح متصايحة:
خذنا معك! خذنا معك!
خذنا معك إلى البحر المحيط الأزلي
الذي ينتظرنا،
باسطاً ذراعيه...

ويمضي، من ثم، وبعد تغيير طفيف، قائلاً:

خذ معك أنهار الوهاد،
وجداول النجاد،
خذنا معك! خذنا معك!
إلى البحر المحيط الأزلي.

وينهي غوته نشيد محمد قائلاً:

ويمضي إلى الأمام بأخوته
بكنوزه، بأبنائه،
إلى أبيهم، إلى خالقهم الذي ينتظرهم،
ليضمهم إلى صدره،
وهو يهلل ويكبر زاخراً بالفرح العظيم.

وقد تضمنت هذا الأبيات ثناءً ومديحاً عظيمين لم يسبق لأي شاعر أوربي في أي عصر من العصور أن اسبغهما على نبي الإسلام.

وكما تبين لنا عند الحديث عن الآيات القرآنية التي اقتبس غوته معانيها من القرآن الكريم، تبين شذرات تراجيدية محمد، أيضاً، بجلاء أن غوته كان قد أولى اهتماماً خاصاً لعقيدة التوحيد الإسلامية. وقد علق غوته في كتابه شعر وحقيقة، فكتب ما نصه: "تبدأ المسرحية بترنيمة يترنم بها محمد وحده وقد أحاطت به سماء الليل الصافية. فهو في بادئ الأمر، يتعبد الأفلاك" التي لا تحصى على أنها آلهته.

ثم يظهر المشتري الجميل، فلا يلبث أن يصبح ملك الأفلاك الذي يحظى بمفرده بالضراعة والابتهال. غير أن هذا الأمر لا يدوم طويلاً، فبعد برهة يتوسط القمر كبد السماء، فيستحوذ على بصر المتعبد وقلبه، ولكنه سرعان ما ينتعش ويتقوى بروعة الشمس المشرقة فيتجه نحوها بالحمد والتسبيح. وعلى الرغم من كل ما يمكن أن ينطوي عليه هذا التحول من فرح وبهجة، إلا أنه يظل مبعثاً للقلق، فالفؤاد لا يزال يشعر بأن عليه أن يتجاوز كل ما شاهده ويعلو بذاته ليدرك الله، الواحد الأحد، السرمد الأزلي الذي لا يحيطه حد وله وحده الحمد والشكر على خلق كل هذه الكائنات المحدودة الرائعة[4]. وكنتُ قد نظمت هذه المناجاة بحب شديد، غير أنها ضاعت مني."

ومما يدعو للدهشة أنه استرجع ذكرياته عن هذا المشروع بكل دقة وعمق بالرغم من بلوغه سن الشيخوخة وضياع المسودة منه قبل ذلك بزمن طويل. ولم يُعثر على نشيد "ليس في مقدوري أن أفضي إليكم بهذا الشعور..." إلا بعد موته؛ وكان غوته قد اختتم نشيده هذا بأبيات رائعة نسبها إلى النبي محمد يقول فيها:

ارتفع أيها القلب العامر بالحب إلى خالقك
كن أنت مولاي، كن إلهي،
أنت يامن تحب الخلق أجمعين
يامن خلقتني وخلقت الشمس والقمر
والنجوم والأرض والسماء.

ويتضح من هذه الأبيات أن إيمان غوته بالطبيعة ينسجم مع التصورات الإسلامية. فاعتقاده بأن الواحد الأحد يتجلى في الطبيعة، فكرة مستقاة من الصور التي وقع عليها في ترجمة معاني القرآن.

وكانت عقيدة وحدانية الله من الأهمية بالنسبة إلى غوته، بحيث أنه جعلها محوراً لحوار تخيل أنه دار بين الفتى محمد ومرضعته حليمة السعدية، حينما رأته واقفاً ليلاً في العراء، الأمر الذي أثار قلقها عليه فراحت تسأله: "أهكذا وحيداً في هذه البطحاء التي يمرح فيها اللصوص فلا تنعم بالسلم والأمان ولا ليلة واحدة." فأجابها قائلاً: "لم أكن وحيداً. لقد كان الله أقرب إليَّ من حبل الوريد."

حليمة السعدية: وهل رأيته؟

محمد: ألا ترينه؟ إنه يتجلى عند كل عين جارية؛ وتحت كل شجرة مزهرة.. وفي حرارة عطفه ودفء حبه. له، سبحانه، الشكر والحمد - فقد شق صدري وأزال ما يحيط بفؤادي من غلاف سميك، لينفخ فيه اسمه جل شأنه.

حليمة السعدية: أنت في حلم! أيُشَقُّ صدرُك، وتبقى على قيد الحياة؟

محمد: إني أتوجه إليه، سبحانه جلَّ وعلا، طالباً منه أن يغفر لك وأن يمنحك القدرة لتفقهي ما أعنيه.

حليمة السعدية: من هو ربك؟ أهو هبل أما الفطاس؟

محمد: أيها القوم، ما أتعسكم، ما أشقاكم حينما تتضرعون إلى الصنم معربين له عن تبجيلكم إياه وتسجدون للحجر الأصم طالبين منه أن يحميكم ويرعاكم! أَسَمِعَ هؤلاء تضرعكم؟ أوعوا دعاءكم؟ أقدموا لكم يد المساعدة؟

حليمة السعدية: إن الروح الساكنة في الصنم والمرفوفة فوق الحجر الأصم تعي ما أقول، إن جبروتها خطير عظيم.

محمد: كم هو خطره؟ كم هي عظمته؟ إنه ند لثلاثمائة آخرين يقفون بجواره، ولكل واحد منهم هيكل يُقَدِمُ فيه المتضرعون القرابين. لو دعا أحدكم إلهه لمساعدته على جاره، ولو دعا هذا الجار صنمه أيضاً للوقوف إلى جانبه ضد جاره ذاك، أما ستبدو آلهتكم هذه وكأنها مجموعة من أمراء صغار يسود بينهم تنازع وصراع دائمان، أما سيفسد كل واحد منهم الأمر على الآخر.

حليمة السعدية: أليس لربك أنداد؟

محمد: لو كان له كفواً أحد، أكان يمكن أن يكون هو الله الأحد؟

حليمة السعدية: وأين تكون سكناه؟

محمد: في كل مكان.

حليمة السعدية: هذا يعني أنه ليس له مكان معين. ألديك سواعد بمقدورك أن تمدها لتحيط به؟

محمد: أشد قوة وأكثر تحرقاً من هذه السواعد التي أمدها نحوك شاكراً لك حبك لي وعطفك عليَّ. لقد أُعطيت، منذ عهد ليس ببعيد، القوة على أن استخدم ساعدي. آه يا أماه، لقد كنت أشعر كأنني طفل رضيع مقيد بالقماط، لقد أحس ساعداي وقدماي بسجن القماط، إلا أن خروجي من ظلمة السجن لم يكن أمراً خاضعاً لمشيئتي. إني أدعوك، اللهم، أن تنقذ البشرية من قيودها، فأعماق أعماقها، تتحرق شوقاً إليك.

ويدل هذا الحوار، من ناحية، على عمق اهتمام غوته بطفولة النبي كما نقلتها كتب السيرة النبوية، ومن ناحية أخرى، على إيمانه بأن هذه الأفكار تنسجم مع تصوراته.

وكان غوته قد لمس، وفي وقت مبكر، ما في البيان القرآني من جمال وبلاغة. وهكذا كان قد شيد لنفسه في طور الشباب الأسس المتينة التي مكنته، حينما تقدم به العمر، من معرفة العالم الإسلامي معرفة أكثر عمقاً، وذلك حينما حفزته سلسلة من أحداث تتسم بالغرابة على الاهتمام مجدداً بالقرآن الكريم وعلى التعرف على عالم الشعراء المسلمين في المقام الأول. وعايش غوته إحدى هذه الأحداث التي لا تخلو من الغرابة، وذلك حينما سلمه محاربون، كانوا قد عادوا إلى مسقط رأسهم فايمار، صحيفة مستلة من مخطوطة تشتمل على سورة الفلق. وتدل محاولات الشاعر لمحاكاة الخط الذي كُتِبَتْ به المخطوطة على الاهتمام العميق الذي حباه لهذه المخطوطة المكتوبة باللغتين العربية والفارسية. من ثم وصلت إلى فايمار، بصحبة جنود التحالف الذين حاربوا ضد نابليون، جماعة مسلمة من البشكير، وكان غوته قد شاهدهم وهم يؤدون الصلاة في المدرسة الثانوية البروتستانتية؛ وفي الواقع لم تكن هذه المعايشة أول معايشة في حياته كلها يرى فيها رجل دين مسلماً فحسب، بل كانت أول مرة، أيضاً، يسمع فيها ترتيل سور من القرآن. بعد ذلك بفترة قصيرة، توجه إليه تاجر تحف فنية من لايبزغ كان يعاني ضائقة مالية، فاقتنى منه غوته مخطوطات للمكتبة الأميرية في فايمار، وذلك بعد دراسة وافية أخذت من وقته عدة شهور. ولا ريب في أن هذه المخطوطات الشرقية وما ضمت من دواوين لشعراء فرس وعرب كبار، أيضاً، قد حفزت غوته للسير قدماً نحو لقائه التاريخي بكامل ديوان حافظ وذلك حينما أهداه الناشر «كوتا» في أيار/ مايو من عام ١٨١٤ نسخة من الترجمة التي قام بها يوسف فون قامر لهذا الديوان. لقد كانت هذه الأحداث جميعاً مقدمات حفزت غوته لأن يؤلف الديوان الغربي - الشرقي الخاص به وذلك كمعارضة منه لديوان حافظ. فهو يسير هنا على خطى قصائده التي كان قد دبجها قبل أربعة عقود مشيداً فيها بالنبي محمد وبالدين الإسلامي ومتطلعاً لأن تدفع هذه القصائد قومه لأن يتخذوا موقفاً أكثر إيجابية حيال الإسلام. وفي الواقع فإن كثيراً من قصائد الديوان مستلهم من كتاب الإسلام المقدس، أو وبتعبير غوته نفسه مستقى من «التراث القرآني المعظم». وهناك أبيات شعرية كان أحد نصفيها مستقى من آيات القرآن ونصفها الآخر من تدبيج غوته، من هنا فقد أمست هذه الأبيات غربية - شرقية الطابع حقاً وحقيقاً. ولعل خير دليل على ما نحن في صدى الحديث عنه الرباعية التالية ذات النغمة التعبدية التي يقول فيها غوته: "لله المشرق/ لله المغرب/ والأرض شمالاً والأرض جنوباً/ تسكن آمنة ما بين يديه."

وجاء في رباعية أخرى اشتملت على معان مستلهمة من ترجمات القرآن ومعان من صياغات غوته:

يريد الضلال أن يربكني،
لكنك تعرف كيف تهديني.
فإن أقدمت على عمل أو أنشدت شعراً،
فأنِرْ أنتَ لي جادةَ الطريق.

وباستخدامه عبارة "جادة الطريق" ينوه غوته هنا بما يسميه المؤمنون المسلمون «الشريعة»، أي الطريق الحق الموصلة إلى المورد. إن هذا هو المعنى الأصلي لمصطلح «الشريعة»، الذي حُرِفَ كلية من قبل الإسلام السياسي.

ويدلنا ديوان غوته، أيضاً، على عمق الميل الذي كان يكنه الشاعر لعقيدة «الإسلام» الحق، أعني عقيدة الخضوع لإرادة الله ومشيئته. فكما هو الحال بالنسبة إلى المسلمين، يؤمن

غوته أيضاً أن الله قد حدد قدره سلفاً وأن التدين الحق يفرض على الإنسان التسليم بمشيئة الله والإذعان لإرادته. وينسجم مبدأ القدرية هذا مع ما جاء بكتاب «الأخلاق Ethik» لفيلسوفه المفضل أسبينوزا، هذا الفيلسوف الذي كان غوته تلميذاً مخلصاً له منذ الزمن الذي تعود إليه، أيضاً، الشذرات المتبقية من مسرحية محمد.

ومن الأمور التي لها دلالتها على شخصية غوته أنه ظل مؤمناً بهذه العقيدة حتى عندما أصابته أقسى ضربات القدر وعضته نوائب الدهر. فعندما توفي راعيه وصديقه أمير البلاد الدوق كارل أغسطس، لم يكن منه إلا أن قال لمحدثه أكرمان وهو يتنهد حسرة ويرفض أي عزاء أو مواساة: "إنها مشيئة الله التي اختارها بحكمته، أما نحن البشر الفانين فلا نملك إلا التحلي بالصبر." لقد كان غوته يؤمن في كل الأحوال، وفي حالات الوفاة على وجه الخصوص، "بالعناية الإلهية". وهكذا راح يقول عام ١٨٢٧ في سياق حديث له مع المستشار فون مولر: "إن حياتنا وأعمارنا رهن بمشيئة الله." وكثيراً ما كرر غوته تسليمه بالقضاء والقدر من منظور إسلامي. فقد تحدث في كتابه الموسوم «الحملة الفرنسية Campagne in Frankreich» عن مشاعره وهو يواجه، حالة اتسمت بمخاطر عظيمة عاشها عندما رافق القوات الغازية لفرنسا عام ١٧٩٢ قائلاً: "لقد تمثلت لي، عندما كانت المخاطر أعظم ما تكون، جبرية عمياء، كما أني لاحظت أن أولئك الذين يمارسون مهناً تتهددهم فيها أعظم الأخطار، يشعرون باشتداد أزرهم وتعاظم قوتهم، عندما يؤمنون بهذه العقيدة. إن الدين الإسلامي خير شاهد على هذا."

وفي عام ١٨٢٠، عندما كانت زوجة ابنه تعاني من مرض عضال، كتب غوته بنبرة مشبعة بالإيمان بالقضاء والقدر إلى أحد أصدقائه قائلاً: "لا يسعني أن أقول أكثر من أني أحاول أن ألوذ بالإسلام." وعلى نحو مشابه كتب غوته عام ١٨٣١ بشأن وباء الكوليرا الذي انتشر في طول البلاد وعرضها يقول: ليس بوسع امرئ أن يقدم النصح لامرئ آخر في هذا الشأن، فليتخذ كل إنسان القرار الذي يناسبه. إننا جميعاً نحيا في الإسلام مهما اختلفت الصور التي نقوي بها عزائمنا." وحينما كان في الثانية والثمانين من عمره، وقبل وفاته بأربعة أسابيع فقط، كتب، عندما أرعبت الكوليرا الناس ثانية: "هنا، في المدينة وفي الريف، أظهر الناس رباطة جأش ملحوظة عندما أدركوا أن دفعها (أي الكوليرا) أمر مستحيل. فقد أُلغيت المستشفيات وما شابهها من مؤسسات. ولو أمعن المرء النظر للاحظ أن الناس، رغبة منهم في التحرير من الخوف الفظيع، قد ألقوا بأنفسهم في الإسلام وفي الاطمئنان لحكمة الله الخفية."

ويتبين لنا هنا أن غوته كان يهتدي، وبوعي كامل، بعقيدة إسلامية أساسية وأنه كان يرشد أصدقاءه، صراحة، إلى هذه العقيدة. وكان بعض الناس يؤاخذ غوته ويرى أن بعضاً من عقائده المستمدة من الإسلام انطوت على استفزاز وقعه غريب جداً على الأذن الغربية، من ذلك قوله في الجزء المسمى «كتاب الحِكَم»، من مؤلفه الديوان الغربي - الشرقي: "من حماقة الإنسان في دنياه / أن يتعصب كل منا لما يراه / وإذا كان الإسلام معناه أن لله التسليم / فعلى الإسلام، نحيا ونموت نحن أجمعين." وفي الواقع، وإذا ما أمعنا النظر في هذه الأبيات، فإننا لن نعثر فيها على ما هو استفزازي، وذلك أولاً لأن «الإسلام» معناه أصلاً "الانقياد لأمر الله ونهيه بلا اعتراض"، وثانياً، لأن بمقدور كل إنسان، لا بل ينبغي ويجب على كل إنسان أن يسلم أمره لمشيئة الله، رب الخلق أجمعين، فقط. بهذا فإن ما يقوله غوته هنا لا ينطوي على أي استفزاز، فهو ينطبق على الخلق أجمعين وبغض النظر عن الدين الذي أمسى عليه هذا الإنسان أو ذاك بالولادة أو أضحى عليه بفعل عوامل أخرى.

ترجمة: عدنان عباس علي

١ - ورد في الأصل الآية ١٠٦، والصحيح هو الآية رقم ١٢٢. ويعود الاختلاف إلى أن الباحثة انطلقت في ترقيم هذه الآية والآيات اللاحقة من الترجمة الألمانية للقرآن الكريم، من هنا فإننا سندرج بشأن الآيات اللاحقة، أيضاً، الترقيم الأصلي طبعاً. (المترجم)

٢ - المقصود هو الشاعر واللاهوتي السويسري، Johann Kasper Lavater المولود عام ١٧٤١ والمتوفي عام ١٨٠١ وتميزت شخصيته بعدائه الشديد لأفكار فلسفة التنوير وذلك بسبب رفض هذه الفلسفة للتجربو الدينية والصوفية. (المترجم)

٣ - أي الآية الكريمة: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبينَ لهم فيُضلُ الله من يشاءُ ويهدي من يشاءُ وهو العزيزُ الحكيمُ.﴾

٤ - ليس بخاف على القارئ، أن هذا كله ينطبق على النبي محمد، كما أخبرتنا بذلك سورة الأنعام، التي قال الله تعالى فيها: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين. وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين.﴾ (المترجم)

* إشارة إلى تعبد النبي ابراهيم وقصته المذكورة في القرآن الكريم، إذ ربما حصل التباس لدى غوته.

شتيفان فايدنر Stefan Weidner

نظرة جديدة إلى الاستشراق

أنّا ماري شمل والتواصل الثقافي بين ألمانيا والعالم الإسلامي

تجسد وفاة أنّا ماري شمل في السادس والعشرين من شهر شباط / فبراير الماضي، بالنسبة إلى الحوار بين ألمانيا والعالم الإسلامي، نهاية عصر بكل معنى الكلمة. ولا يعني هذا، طبعاً، أن الحوار الثقافي نفسه قد بلغ نهايته أو انقطع لحين من الزمن، بل يعني أنه سيأخذ صيغاً جديدة كانت مجهولة حتى ذلك الحين؛ صيغاً قد لا يكون لمحتواها علاقة وثيقة بما درجنا على الأخذ به لحد الآن. ولكن، وقبل أن نبرز الخطوط العريضة لهذا المنحى الجديد المختلف، يجدر بنا أن نحاول تحديد خصوصية مفهوم الحوار الثقافي في ذلك العصر الذي كانت أنّا ماري شمل آخر كبار رموزه؛ أعني العصر الذي تزامن فجره واتخذ صيغته المميزة له في مطلع القرن التاسع عشر. وكان يوهان فولفغانغ غوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢)، أشهر رمز لهذه الحقبة من الزمن، فديوانه الشعري المدبج بين عام ١٨١٤ وعام ١٨١٩ الموسوم «الديوان الغربي الشرقي»، كان ولا يزال إلى يومنا هذا أشهر بيان يعلن اندلاع فجر هذا العصر.

وتضرب جذور هذا العصر، الذي يقف غوته في مطلعه وأنّا ماري شمل في نهايته، في حركة التنوير الأوربية عامة والألمانية منها على وجه الخصوص. وكانت دراسة اللغات الشرقية، وخصوصاً العربية والعبرية، وسيلة يتوخى المرء منها العون على فهم أفضل للكتاب المقدس. فالمرء كان يُمَنّي نفسه أن تقدم له العون على تعرف أكثر عمقاً لنصوص التوراة والأناجيل المكتوبة باللغة العبرية، كالتعرف على كنه الكلمات المجهولة المعنى؛ إضافة إلى هذا كان المرء مهتماً بالتعرف على المحيط الجغرافي لمسرح الحوادث التي تتحدث عنها التوراة والأناجيل، أعني أنه كان يسعى إلى تحديد مواقع المدن التي جرت على أرضها الوقائع المذكورة في الكتاب المقدس، وإلى إقامة الدليل على أن هذه الوقائع حقائق تاريخية. وهكذا كمن هدف تلك الرحلة، التي كانت واحدة من أكثر الرحلات العلمية إلى الشرق الأدنى كلفة في القرن الثامن عشر، أعني الرحلة التي نالت شهرتها الواسعة من خلال الوصف الذي قدمه عنها كارستن نيبور، في دراسة المواقع التي تحدثت عنها كتب التوراة والأناجيل في المقام الأول، وليس في التعرف على واقع الحياة التي يعيشها العرب. بهذا، فحتى الدراسات القرآنية ذاتها كان الهدف الأول منها هو الإحاطة، على نحو أفضل، بما ورد في الكتاب المقدس. من هنا فإن بمقدورنا، فعلاً، القول بأن هذا الاهتمام بالشرق كاد ألا يكون محاولة للتعرف على ذلك العالم الغريب، بل كان محاولة للتعرف على الذات؛ بهذا المعنى فإنه كان اقتراباً غير مباشر من الشرق، أي أن الاقتراب من الشرق لم يكن هدفاً بحد ذاته، بل كان حصيلة جانبية أثمرتها المساعي الرامية إلى التعرف على الذات. فعدد محدود من الشخصيات العلمية تخطى هذه العلاقة المحدودة بالشرق، وراح يعكف على دراسة الشرق اهتماماً بالشرق ذاته. ويتعين علينا أن نذكر، في هذا السياق، يوهان ياكوب رايسكه على وجه الخصوص، فهو كان، وبفضل ما بذل من جهود قيمة في منتصف القرن الثامن عشر، المؤسس الحقيقي للاستشراق الألماني.

إلا أن الأثر الأعظم على غوته، وبالتالي على أنّا ماري شمل أيضاً، لم يتأتَ من أولئك المستشرقين الذين تركزت مادة دراساتهم على الكتاب المقدس أو الدين بالمقام الأول، بل تأتى من أولئك المستشرقين الذين عكفوا على دراسة الدولة العثمانية تاريخاً وأدباً. ونشأت هذه الدراسات في سياق النزاعات الحربية مع العثمانيين؛ ومن هنا فإن جذورها كانت تمتد إلى فيينا على وجه الخصوص. وكان هامر ـ بورجستال (١٧٧٤ ـ ١٨٥٦) من أكثر رموز هذه الدراسات شهرة. حقاً تمحورت غالبية هذه الدراسات حول التاريخ العثماني، إلا أنها، مع هذا، توجهت باهتماماتها إلى الأدب أيضاً، وإلى الأدب الفارسي على وجه الخصوص. فترجمة هامر ـ بورجستال لـ «ديوان حافظ»، المنشورة عام ١٨١٢ كانت إلهاماً دفع غوته لتدبيج القصائد التي حواها مؤلفه الموسوم «الديوان الغربي ـ الشرقي»، المنشور عام ١٨١٤. وفي الواقع فإن كلا الحدثين، أعني ترجمة هامر ـ بورجستال الشعرية لقصائد حافظ والمعارضة الشعرية التي قدمها غوته نفسه لهذه القصائد المترجمة، يستحقان منا أن نتحدث عنهما حديثاً موجزاً على أدنى تقدير. فكلا الحدثين كانا بمثابة النموذج الذي حذا حذوه الحوار الثقافي الألماني مع الشرق إبان بداياته الأولى في ألمانيا. وأثبتت الدراسات المتخصصة بغوته أن أسلوب هامر

ـ بورجستال في ترجمة ديوان حافظ كان أحد الأسباب التي تُفسر افتتان غوته بحافظ. حقاً لم يكن هامر ـ بورجستال شاعراً كبيراً، إلا أنه، مع هذا، استطاع أن يقدم ترجمة لحافظ تتسم بأسلوب أدبي سبق لغوته أن تأثر به في شبابه؛ من هنا، فقد شعر غوته بدافع قوي يدفعه للمعارضة الشعرية حينما التقى، وهو في الستين عاماً من عمره، عند حافظ، الشاعر الذي ينتمي إلى عالم آخر بعيد عنه كل البعد، بهذا الأسلوب ثانية. وفي الواقع، فإن حافظاً كان قد أمسى، وبالمعنى المجازي لهذه العبارة، ألمانياً، حينما التقى به غوته ـ الشاعر الذي لم يتكلم أية لغة من لغات الشرق. ومع هذا، فليس ثمة شك أن إعجاب غوته الشديد بحافظ وإقباله الحماسي عليه يدعوان للدهشة والانبهار؛ وينطبق الأمر نفسه، طبعاً، على حواره الشعري مع حافظ، الشاعر الفارسي الذي رأى فيه غوته شقيقه التوأم. ومع كل سعادتنا بالإعجاب الذي كان غوته يكنه لحافظ، لا يجوز أن يغيب عنا أن هذا الإعجاب قد ترعرع في داخل حدود المعرفة الضيقة التي اكتسبها غوته بشأن حافظ وبشأن معلوماته العامة عن الشرق. من هنا، فإن الأمر الذي ينبغي علينا أن نقتدي به اليوم، لا يكمن في الجزئيات التي دفعت غوته لأن يكن إعجاباً شديداً لحافظ، وإنما يكمن في موقفه المنفتح على العالم وفي توجهه للحوار مع هذا العالم. كما أن المهم هاهنا هو أن غوته كان، دائماً وأبداً، على وعي تام بمناحي التباين التي تميزه لا عن حافظ فحسب، بل وعن باقي الشعراء الذين عارضهم شعراً وتناولهم دراسة، فهو لم يحاول أبداً إلغاء مناحي التباين هذه؛ من هنا فقد اتخذ غوته موقفاً ميزه عن كثير من اللاحقين به، أولئك الذين شغفهم الشرق فهاموا به، نعم اتخذ موقفاً ميزه في بعض الأحايين عن أنّا ماري شمل أيضاً. ولا مراء في أن هذا لا يقلل من أهمية إعجاب غوته بالشرق، فالأمر الواضح هو أن الوعي بالتباين والاختلاف هو الذي يعطي الفرصة للحوار (فلولا وجود التباين والاختلاف لكان الأمر حديثاً مع النفس لا غير).

وكان قد بدأ بهردر وغوته انفتاح أصيل على الثقافات الأخرى وعلى إنتاجها الأدبي، انفتاح يكاد أن لا يكون له مثيل في العصور اللاحقة؛ وكانت المدرسة الرومانسية قد واصلت هذا المنحى، فاهتمت بآداب اللغات والثقافات الأخرى اهتماماً عميقاً لم تضاهها فيه أية مدرسة أدبية أخرى. علاوة على هذا، فقد كانت المدرسة الرومانسية، التي تنسب على نحو تقريبي إلى منتصف القرن التاسع عشر، الحقبة الوحيدة في ألمانيا، بقدر تعلق الأمر بالاستشراق على أدنى تقدير، التي نعثر فيها على اتحاد العالِم الكبير والشاعر الفذ في شخص واحد. وتجدر الإشارة هاهنا إلى أن غوته نفسه لم يكن مستشرقاً، بل كان هاوياً يجاري المستشرقين. فهو لم يأخذ بناصية أية لغة شرقية، كما أنه لم يترجم، أبداً، بنفسه، وعلى نحو مباشر، قصيدة شرقية واحدة نقلاً من لغتها الأصلية.

وكان الحال بالنسبة إلى هامر ـ بورجستال على النقيض من ذلك، فهو كان عالماً ذا شأن، إلا أنه، وبالتأكيد، لم يكن شاعراً كبيراً يدبج الشعر من خاطره. من هنا، وبقدر تعلق الأمر بالاستشراق، فإننا نعثر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقط، على تلك الحال الشبيهة بالحال التي اتسم بها العصران الإغريقي واللاتيني على نحو واسع.

ويجدر بنا هنا أن نخص بالذكر شاعرين تميزا بإتقان اللغات الشرقية، أعني فريدرش روكرت وأغوست فون بلاتن، الذي ظل وللأسف مغموراً وإن كاد أن يكون الشاعر الأكثر أهمية مقارنة بفريدرش روكرت، الأديب الأكثر شهرة منه من حيث الشاعرية والذي كان عطاؤه فاتحة ذلك التقليد الأدبي الذي سارت على نهجه أنّا ماري شمل لاحقاً. فروكرت كان عظيم التأثير في أنّا ماري شمل منذ سنوات طفولتها، كما تؤكد هي ذاتها في سيرتها الذاتية، فقد كتبت هناك قائلة: "ومن حيث الأهمية والتأثير فاق فريدرش روكرت كل الشعراء الآخرين الذين ملأت أصواتهم صدري بالغبطة والسرور أيام طفولتي وصباي."

وليس ثمة شك في أن روكرت كان ولا يزال حتى يومنا هذا أهم شاعر في تملك ناصية ترجمة القصائد الشرقية، لا من حيث غزارة المادة فحسب، بل ومن حيث الجودة اللغوية أيضاً. وكان روكرت قد استلهم الشرق وتأثر به في القصائد التي دبجها من بنات أفكاره وبوحي من خاطره.

وبوسعنا أن نقول أن روكرت كان القدوة العظيمة التي حذت حذوها أنّا ماري شمل. إلا أننا نكتفي الآن بهذه التنويهات، وذلك لأننا سنتطرق، في هذه الورقة، إلى روكرت وأنّا ماري شمل في سياق آخر.

بهذا فإن الاهتمام الشامل والمعرفة العظيمة والطاقات الشعرية الفذة هي الملامح التي ميزت بداية ذلك العصر الذي تحدثت عنه أعلاه، والذي حددت نهايته بوفاة أنّا ماري شمل. وفي الواقع، وهذا أمر يؤسف عليه، لم يتصف مجمل هذا العصر بهذه الملامح المميزة. فلو قارن المرء المائة عام الممتدة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، لأدرك، في الحال، عمق وغزارة الحوار الثقافي الذي تميز به النصف الأول من القرن التاسع عشر. حقاً خطا الاستشراق، بصفته علماً قائماً بحد ذاته، خطوات كبيرة في المائة عام هذه، إلا أنه ظل، مع هذا، بلا تأثير يذكر في المحيط الثقافي العام وعلى الأدب بصفة خاصة. ففي هذه الحقبة لم يبد شاعر ذو منزلة مهمة اهتماماً جدياً بالآداب الشرقية. كما لم يكن



أنا ماري شمل في كراتشي سنة ١٩٦١

المستشرقون الكبار يتوافرون على الإلهام اللغوي الذي يمكنهم من ترجمة الشعر الشرقي، أو لربما لم يشعروا برغبة داخلية، ملحة تدفعهم لمواصلة ترجمة الشعراء الشرقيين. من ناحية أخرى كاد النسيان أن يطوي الترجمات الشعرية وأن يمحو من الذاكرة الاقتراب والتعارف في المجال الأدبي. ولعل مؤلَّف غوته الموسوم «الديوان العربي - الشرقي» خير مثال على ما نحن في صدد الحديث عنه. ففي وقت متأخر، في القرن العشرين على وجه التحديد، اكتسب هذا المؤلَّف الشهرة التي يستحقها، باعتباره أحد أهم مؤلفات غوته الشعرية؛ ويمكن للمرء أن يشرح التحول الذي طرأ على العلاقة بالشرق على أنه كان تحولاً من مُحدِّث يحاوره المرء ويستلهم منه - حتى وإن كان هذا المُحدِّث هو ذلك الشرق القديم الذي لم يبق منه أثر - إلى مادة يتحدث المرء عنها، أي أن المرء أمسى يتحدث عن الشرق ولكن من دون أن يكون لهذا الشرق تأثير يذكر على طرائق تفكير المتحدث. وتعددت أسباب هذا التحول، بحيث صار يصعب على المرء إيجازها بجملة واحدة. ولكن، ومهما كان الحال، فإن الأمر البين هو أنه لم يكن من محض الصدفة أن يتزامن تحول الموقف الألماني من الشرق مع استعمار القوى الأوروبية الأخرى للبلدان الشرقية. ولربما كمنت الأسباب الحقيقية لهذا التحول في الضعف الذي عصف بالدولة العثمانية؛ فهذا الضعف سهل، بلا ريب، استعمار شمال أفريقيا، من قبل فرنسا، واستعمار الشرق الأدنى، من قبل فرنسا وبريطانيا. وعزز، أعني هذا الضعف، لدى المهتمين بالثقافة الاعتقاد بأن الشرق الإسلامي لم يعد مُحَدِّثاً ذا شأن وأهمية في الشؤون الثقافية.

لقد كان هذا هو الموقف السائد حينما بدأت أنا ماري شمل تدرس الاستشراق في جامعة برلين أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين. وفي الواقع، لا يوجد سبب خارجي بين يفسر الدافع الذي حدا بأنا ماري شمل لأن تتعلم العربية وهي في الخامسة عشرة من عمرها؛ فلا أبويها ولا معارف أسرتها كانوا على اتصال يذكر بالشرق، هذا إذا ما استثنينا أنها كانت، من ناحية الأم، سليلة أسرة كان أفرادها يجوبون البحار بدافع المتاجرة. وكانت أنا ماري شمل قد ذكرت في سيرتها الذاتية، المنشورة قبل وفاتها بعام واحد، بأنها كانت شغوفة باللغات وأنها كانت قد انكبت، آنذاك، على قراءة بضعة حكايات شرقية. وأثر في نفسها تأثيراً متميزاً الحديث النبوي (الشريف) الذي وقعت عليه في العام السابع من عمرها في سياق قراءتها لإحدى الحكايات؛ ونص هذا الحديث النبوي المعروف في كل أرجاء العالم الإسلامي هو أن (الناس نيام، فإذا ماتوا استيقظوا). وتصف أنا ماري شمل في سيرتها الذاتية انبهارها بهذا الحديث النبوي فتقول: «في هذه اللحظة عرفت أن دربي يبدأ من هنا: لقد أصبح الشرق هو الهدف، الشرق موطن الحكمة الخفية الغامضة.» وعلى ما أعتقد، فإننا لا نسيء

إلى ذكرى أنّا مـاري شمل، حينـما نقول بأن الشـرق كان بالنسبة إليها، دائماً وأبداً، هو ذلك الشرق الذي دأبت على أن ترى فيه «موطن الحكمة الخـفية الغامـضة». ونحن لا نشك بأن الحكمة الخفية الغامضة تنتشر في الشرق أكثر من انتشـارها في الغـرب؛ ومع هذا فـإن الأمر الواضح هو أن المنظور الذي لا يرى في الشرق غـير موطن الحكمة الخـفية الغامضة لن يركز اهتمامه علـى الشرق السائد على أرض الواقع بكل مشاكله وتعقيداته. وحسب اعتقادي يجسد هذا الترابط القائم بين الانبهار بالشرق، من ناحية، والحاجة إلى الهروب من العالم السائد حقاً إلى عالم مُتَخَيل، من ناحية أخرى، سـجية مميزة اتسم بهـا العصر الذي أنا في سـياق الحديث عنـه هاهنا، أعني العصـر الذي حظي فيـه الشرق بالإعجاب. وكان غوته قد عبر عن هذا على نحو نموذجي حينما قال بشأن الدافع الذي يدفـعه للاهتمام بحافظ: "إن كل ما صنته وأحطتـه بالرعاية والاهتمام من مـادة ومغزى مشابه (للمـادة والمغزى عند حافظ) نطق به لساني وانبعث من داخلي بقوة فاقت القوة العظيمة التي كانت تدفعني إلى الهروب من العالم الملموس، الذي أمسى يهدد نفسه بنفسه بكل وضـوح، والهجـرة إلى عـالم روحي، أحظى فيـه، حسب ما أشاء وبمقدار ما تسمح به عزيمتي وإرادتي، بقسط من الغبطة التي يمنحها." وإذا ما أخذنا مأخذ الجد ما يذكره غـوته وأنّا ماري شـمل بشأن الدوافع التي دفـعتـهمـا إلى الاهتمام بالشـرق، فسيكون بمسورنا عندئذ تحديـد خاصية أساسـية من خصـائص العصر الذي يقف غـوته في بدايته وتجسد أنّا ماري شـمل نهايته. فإذا تأتى الإعجاب بالشرق إبان عصر البـاروك من أزمة دامية النتائج ـ حرب الثلاثين عامـا ـ أزمة دفعت علماء عـصر الباروك إلى التفـتيش في الأدب الشرقي عن شيء ينفعهم ويعينهم، كقاعدة وأسلوب لحيـاة أفضل، على سـبيل المثـال، آخذين بمؤلف سـعدي الموسوم «روضة الورد» (جـلستان)، أو ما سوى ذلك من حكايات شـرقـيـة، فـإن الأمـر الواضح هو أن الأزمـات والأحداث التي تسببت في الإعجاب بالشرق ثانية (بالنسبة إلى غـوته تمثلت هذه الأزمات والأحـداث في التحـولات التي أفـرزها العصـر النابليـوني والعـصر اللاحق به؛ أمـا بالنسـبة إلى أنّا مـاري شمل فـقـد تمثلت هذه الأزمـات والأحداث، في البـداية، بالأزمة الاقـتصادية الكـبرى في نهاية العـشرينات، ومن ثم باستـلام النازيين زمام السلطة، أي أولئك الذين كـان والداها يأخذان منهم مـوقفـاً حذراً ويريان فيهم همـاً عظيماً)، نعم فإن الأمر الواضح هو أن هذه الأزمـات والحوادث مـا كـانت تشكل، في الحـالات العامة، دافعاً إلى التـعلم من الآخر، بل شكلت دافعاً إلى الهجرة إلى هذا الآخر .بهذا المعنى، وخلافاً للماضي، لم يعد يُنظر إلى الشـرق على أنه إضافة تغني العصـر المعاش وتثريه، بل صـار ينظر إليه على أنه النقيـض الذي يلوذ به المرء حباً بالأمن ورغبة في النجاة.

وتكمن جوانب القوة والضعف لدى أنّا ماري شمل في أنها لم تنظر إلى الشرق بعين فاحـصة بموضوعية ومدقـقة بتأنٍ وتجـرد، بل كـانت قـد دأبت على الـنظر إلى الشـرق من منظور متحمس متحيـز، بعين المحب الهائم بشرق مُتَخَيل، شـرق لا وجـود له على أرض الواقع. على هذا النحـو، أمـسى بمستطاعـها، من ناحـيـة، أن تهيم بالشـرق هيامـاً شديداً؛ ومن ناحية أخرى، أن تعـجز عجزاً بيناً عن رؤيته بكامل جوانبه، ومن يعلم، لربما كان بمستطاعها فعلاً رؤيته رؤية كاملة، إلا أنها ما كـانت تريد ذلك، أو أنها ما كانت تريد، أصلاً، تصـويره على النحو الذي تراه. وبمعنى يرفع من مكانتـها ويشهـد على كريم خـصالها ظـلت أنّا ماري شمل متمسكة بذلك التقليد الذي كان يرسم للشرق صورة مُتَـخَيلَة، صـورة كانت، في كـثير من النواحي، تقـليدية (إيجابية). وأود التأكيد على أني لا أريد طبعاً، حينما أُبرز هذه الحقيقة، الانتقاص من شخصية وعطاء أنّا ماري شمل العلمي. إن كل مـا في الأمـر هو أنه لا مـندوحـة لنا من الإقرار بأنه اسـتحال، عـملياً، على جيل أنّا مـاري شمل النظر إلى الشـرق من منظور آخر ـ تمامـاً كمـا كان الحـال بالنسـبة إلى الأجـيال الـتي سبـقتـها أيضـاً. وتجعل هذه الاستحالة العملية، التي حالت دون معايشة الشرق معايشة مـخـتلفـة والنظر إليـه من منظور آخـر، نعم تجـعل هذه الاستحالة، بالذات، أنّا ماري شمل ابنة لذلك العصر الذي قلت عنه، في مطلع حديثي، بأن فجره بزغ بغوته. ويمكن للمرء أن يسوق تفسيراً مهمـا لهذا الموقف، أي أن يسوق تفسيراً للسبب الذي جعل، عملياً، من المستحيل النظر إلى الشرق من منظور آخر غيـر مُتَخَيَلٍ. ومع اعترافنا بأن هناك أكـثر من سـبب، إلا أننا نرى أن السـبب المهم جداً كـان يكمن، وبكل بساطة، في أنـه ما كان بمستطاع المرء السـفر إلى الشـرق ورؤيتـه عـلى أرض الواقع. وبوسـعي، أن أردف، كتكملة لهذه الحقيـقة، زاعماً أن هذا العصر، الذي انتـمت إليه أنّا مـاري شمل، قـد بلغ نهايتـه منذ حين من الزمن. فكما هو مـعروف، فإن السفر إلى الشـرق لم يعد يشكل مشكلة. ولربما أدركنا أهمـية هذا السـبب، حينمـا نقارن الحال السائدة حالياً بالحال المختلفة تماماً التي واجهتها أنّا ماري شمل. لقد تزامن صـباها مع أكثر الحـقب ظلاماً في التـاريخ الألماني. ولكن، وحـتى وإن تجـاهلنا السلطة النازية، فقد كان السـفر إلى الشرق أمراً غير مـحتمل كلية بالنسبـة إلى ابنة موظف في مرتبـة متواضـعة، كمـا وكان تعلم العربية، في سنـوات عمرها الباكرة، موضـوعاً يدعو للتعـجب والاستـغراب. لقد كـان بمقدور أغنى الأغـنيـاء ورجال الأعمال، فقط، السفر إلى الشرق. أضف إلى هذا

أن المرء العادي، وخلافاً لما عليه الحال في يومنا هذا، حيث أمسى يستحيل على العروض الإخبارية والبرامج السياسية أن تتجاهل الأخبار المتعلقة بالشرق، وما كان يسمع من أخبار الشرق إلا ما ندر آنذاك. ففي تلك الحقبة من الزمن، ومن وجوه عديدة، ما كان الشرق عالماً قائماً حقاً وفعلاً، بل كان عالماً بعيداً بُعد اليونان القديمة والإمبراطورية الرومانية، عالماً من اختصاص علماء اللغات القديمة لا غير. وإذا ما صادف وأن كان الشرق مادة إخبارية، فما كان ذلك إلا في سياق نزاع بين القوى العظمى وليس كعالم له وجود سياسي خاص به.

وكانت أنّا ماري شمل في الثلاثين من العمر حينما سافرت، لأول مرة، إلى الشرق. وكان الهدف من سفرها إلى هناك هو التدريس في اسطنبول لمدة ستة أعوام. ولا مراء في أن أنّا ماري شمل، وإن كانت لم تعد شابة مبتدئة، قد سبقت برحلتها هذه، وبما انطوت عليه هذه الرحلة من معايشة مباشرة عميقة للشرق، عصرها وباقي جيل المستشرقين السابقين عليها. فغالبية المستشرقين من أبناء الجيل السابق على الحرب، وأبناء أجيال القرن التاسع عشر، على وجه الخصوص، ما كانوا قد أقاموا في الشرق لحين من الزمن، لا بل أنهم ما كانوا قد سافروا إلى هناك أصلاً. وواصلت أنّا ماري شمل رحلاتها حتى بعد انقضاء فترة تدريسها في أنقرة؛ بهذا فلا شك في أنها فاقت غالبية زملائها من حيث الاطلاع على عالم الإسلام ومشاهدة معالمه. وبناءاً على هذه المعايشة العملية للعالم الإسلامي (وهي معايشة لم تفلح، طبعاً، في حفزها على التحول من الصورة المثالية التي رسمتها للشرق)، يمكننا اعتبار أنّا ماري شمل رمزاً لمنعطف مهم، أي يمكننا اعتبارها الشخصية التي أمست علماً على نهاية عصر وبداية عصر جديد. ولإقامة البرهان على هذا يمكننا الاستشهاد بالمهام الأخرى التي نهضت بها، مهام كانت، في منظورنا، نيرة وغاية في التقدمية في العديد من المناحي. فخلافاً لغالبية زملائها من المستشرقين، لم تكتف أنّا ماري شمل بالتدريس والبحث فحسب، بل كانت قد وظفت طاقاتها في تعريف أبناء جلدتها بعالم الإسلام، تماماً كما فعل الرومانسيون ذلك فيما مضى من الزمن. ففي الفترة الواقعة بين الخمسينات والسبعينات كادت أنّا ماري شمل أن تكون المترجمة الوحيدة للشعر الشرقي في ألمانيا. فلولاها لظل هذا الأدب مجهولاً عند القارئ الألماني. والأمر الذي يجلب الانتباه هو أن أنّا ماري شمل لم تكن مطلعة على الشعر الشرقي الحديث فقط، بل أنها قامت بترجمة قصائد منه أيضاً؛ وكان هذا الحدث، أيضاً، وبلا ريب، سمة لا مثيل لها في تاريخ الاستشراق، وبرهاناً أكيداً يشهد على المدى الذي سبقت به أنّا ماري شمل عصرها. ففي حين كانت تطأ بإحدى قدميها أرض المستقبل، أي أرض حاضرنا السائد حالياً، كانت لا تزال تقف بقدمها الأخرى على أرض القرن التاسع عشر بثبات وفي عمقه. فجذور مجمل ثقافتها الروحية كانت تمتد إلى هناك. حقاً كان هوفمانستال وريلكه أحدث الشعراء الذين قرأت لهم، إلا أنها ظلت تخص، بتبجيلها العظيم وتقديرها الرفيع، روكرت، كما سبق لنا أن نوهنا. ويلمس المرء هذه الحقيقة من خلال ما قامت به من ترجمات. فالغريب هو أن أنّا ماري شمل قد ترجمت الشعر الشرقي الحديث وفق السجية التي تميز بها روكرت، أي بسجية القرن التاسع عشر. فغالبية هذه الترجمات ترن في الأذن الألمانية، حقاً، كما لو كانت، من حيث الجودة ومن حيث الضعف، من ترجمات روكرت؛ فلغة روكرت تنطوي، في كثير من الحالات، على رنين يكاد أن يذكرنا، في يومنا هذا، بأساليب أكل الدهر عليها وشرب. وفي حين راحت أنّا ماري شمل، سعياً منها إلى تعريف القارئ الألماني، تترجم بحماس قصائد بعض الشعراء الشرقيين من أبناء جيلها، كعبد الوهاب البياتي، الشاعر العراقي المعروف والذي كان يصغرها بأربع سنوات، إلا أنها لم تعثر، أبداً، على أي جسر يربطها بالشعراء الألمان الكبار من أبناء جيلها. من هنا، لا عجب ألا تساير لغتها لغة العصر الذي تحيى في كنفه وألا ينسجم مفهومها للشعر مع طابع هذا العصر أبداً في الواقع الملموس.

والمؤسف هو أننا نعجز، في هذه العجالة وفي هذه المساحة الضيقة المتاحة لنا، أن نستعرض مجمل الجهود العظيمة التي بذلتها أنّا ماري شمل. ولكن، ومهما كان الحال، فهي كانت قد قدمت، في سياق هذه الجهود، التي أثمرت على ما يربو على مائة كتاب منشور، خدمة جليلة للتصوف الإسلامي، على وجه الخصوص. فباهتمامها المركز هذا كانت قد عَرَّفَت الكثيرَ من الناس بموضوع من مواضيع الثقافة الإسلامية غاية في الأهمية، موضوع كان الاستشراق في ألمانيا قد تجاهله على مدى فترة طويلة من الزمن. وكان تركيزها على الجوانب الروحية في الإسلام قد منحها الحرية لأن تتنصل، على نحو خفي ولكن أكيد، من التيارات التقليدية في الإسلام. من هذا المنظور وفي سياق هذا التنصل لا مراء في أن في بوسعنا أن نرى في عطاء السيدة شمل مؤشراً على تطورات مستقبلية. كما كان اهتمام السيدة شمل بالإسلام في الهند وباكستان أمراً ليس معتاداً بالنسبة إلى الاستشراق الألماني التقليدي. فبهذا الاهتمام كانت السيدة شمل قد نبهت إلى أن منظور المسلمين للإسلام يتباين تبايناً ما كان بمقدور البحث العلمي التقليدي الإحاطة به؛ فهذا البحث كان يركز جهوده على أقاليم الإسلام التقليدية، أعني مصر والهلال الخصيب وإيران. ويجدر بنا، أخيراً وليس آخراً، الإشارة إلى أن أنّا ماري

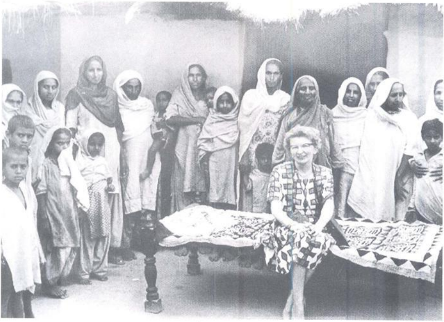
شمل نادراً ما كانت تتوجه بكتاباتها إلى ذوي الاختصاص فقط؛ فغالبية مؤلفاتها كانت موجهة إلى الجمهور العريض أيضاً. فبالنسبة إلى كثير من الناس كانت كتب أنّا ماري شمل بمثابة مدخل يمهد لهم التعرف على الإسلام. وفي الواقع ما كان هناك مستشرق ألماني يضاهيها من حيث عدد القراء والقارئات. من هنا، وبكل إيجاز، ليس هناك أحد أدى ما أدته أنّا ماري شمل في ألمانيا بالنسبة إلى شرح الإسلام لأبناء قومها وتعزيز معرفتهم به. وهكذا فقد كُرِّمت عن حق واستحقاق حينما مُنحت عام ١٩٩٥ جائزة تعتبر من أشهر الجوائز التي يُكرم بها الكتاب والمثقفون في ألمانيا، أعني جائزة السلام التي يمنحها ناشرو الكتب الألمان.

ولكن، لِمَ قلتُ في مطلع حديثي أن عصراً معيناً من عصور العلاقة بين الشرق والغرب قد أشرف على نهايته بوفاة أنّا ماري شمل؟ وحينما يأخذ المرء جهود أنّا ماري شمل كافة في الحسبان، ألا يتعين علينا أن نَخلص إلى نتيجة مفادها أنه ينبغي علينا أن نواصل جهودها وعملها وأن نسير على نهجها معلنين ذلك صراحة ومعترفين به على رؤوس الأشهاد؟ لا مراء في أن بوسعنا أن نفعل هذا كله. إلا أن ثمة مخاوف تساورني، مخاوف من أننا، بمسعانا هذا، سنفقد المنظور الشمولي الذي نستطيع من خلاله وضع يدنا على الإشكاليات الجديدة الخاصة بعصرنا، والتعرف على الإمكانيات الجديدة المتعلقة بالحوار بين الثقافات. فبالرغم من إشادتنا بعطاء السيدة شمل، لا يجوز لنا تجاهل الحدود التي أحاطت بهذا العطاء. ولا ريب في أن هذه الحدود كانت من إفرازات العصر الذي أنسب أنّا ماري شمل إليه وأنا واثق من أنها لن تشعر بغضاضة حينما أنسبها إلى ذلك العصر الذي أود أن أرسم ملامحه هاهنا ثانية .لقد بزغ فجر هذا العصر في تلك اللحظات التي انتهى فيها تهديد الدولة العثمانية لأوروبا. فبعدما دُرِئ الخطر أمست أوروبا على علاقة مختلفة بالشرق واكتسب اهتمامها به صيغة جديدة. فانطلاقاً من مشاعر التفوق التي عمت الغرب بدأ المرء يهتم بثقافة الشرق وصار يحيط علماً بأن الشرق، بنحو ما، جزء من تاريخ الغرب ـ وذلك حينما أدرك، على سبيل المثال، بأن الشرق جزء من تاريخ الكتاب المقدس. وسرعان ما راح الغرب يسعى جاهداً لالتهام هذا الشرق، التهامه حقاً وحقيقاً من خلال الاستعمار، والتهامه بالمعنى المجازي لهذه الكلمة من خلال ترجمة واستلهام نصوصه الشعرية. وهكذا كان الشرق، من خلال التهام آدابه ترجمة واستلهاماً ومن خلال التهام بلدانه استعماراً، قد غدا، ومن دون الخوض في التفاصيل، فرصة تعكس الذات، صورة للهيئة التي تريد أن تكون عليها النفس، تجسيداً للرؤى والتصورات الذاتية (وطبعاً لا ينفي هذا أن المرء قد أضفى على هذه الفرصة سجايا غريبة جداً ونظر إليها من خلال منظور شديد التطرف)؛ أضف إلى هذا أن الشرق كان قد أمسى مرتعاً خصباً للتَخيُّل. من هنا لا عجب أن يلعب غوته، في مرحلة من مراحل إنتاجه، دوراً يُظهره كما لو كان شرقياً. ولا مراء في أن غوته قد كان على وعي تام بأنه يلعب دوراً لا غير، ولذا فإنه سرعان ما رفع القناع عن وجهه (ولعله تجدر الإشارة هاهنا إلى أن الكثير من المسلمين يأخذون لعب غوته لهذا الدور مأخذ الجد، فنراهم يزعمون وهم واثقون بأنه كان مسلماً).

وأنّا ماري شمل، أيضاً، تقمصت الشرق بالطريقة التي تناسبها. فقد دأبت على مداعبة لعب دور المسلمة. وفي الواقع ليس هناك مستشرق (أو مستشرقة) غربي تشبع بأفكار المادة التي يدرسها بالمقدار الذي تشبعت به أنّا ماري شمل. فمع أنها درجت على التأكيد باستمرار على أنها نصرانية الدين بروتستانتية المذهب، إلا أن شرحها للثقافة الإسلامية انطوى على الحرارة والقوة اللتين لا يتوقعهما المرء، عادة، إلا من مسلمة قوية الإيمان. ولم تتأت القيود المفروضة على أنّا ماري شمل من عجز في الإدراك أو عيب في البصيرة، بل تأتت من نقص في وضوح الانتقاء. فلأن الشرق والغرب يندمجان ويذوبان في بعضهما عند أنّا ماري شمل، لذا أمسى دورها كصلة وصل محصوراً داخل حدود معينة.

وتنطلق أنّا ماري شمل من منظور مثالي يفترض إمكانية التعايش السلمي بين الحضارات. بهذا يُمسي النزاع مع الآخرين حالة شاذة، يمسي خروجاً على القاعدة وحدثاً عارضاً. وفي الواقع، لقد أثبت الاستقطاب بين الشرق والغرب أن تبرير تقارب الحضارات بأفكار تدعوا إلى الانسجام والوئام لا غير، كان، دائما وأبداً، أمنية ليس إلا، أمنية لا سند حقيقياً يدعمها .ومنذ حوادث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وما تبع هذه الحوادث من تطورات أمست غالبية الناس تعي أنه لا جدوى من التفاهم المتبادل من دون إمعان الفكر بالأمور المهددة للتعايش بانسجام ووئام ومن دون مناقشة مناحي الخطر هذه. من هنا، فبإمكاننا أن نؤكد بشأن الصفة المميزة للحوار والتبادل الثقافيين في العصر التالي على أنّا ماري شمل على ما يلي:

الأمر المطلوب الآن هو الحفاظ على الوعي بمناحي الاختلاف، الوعي بما يفصل بين الثقافات. كما يتعين تقبل مناحي الاختلاف هذه وتعلم العيش في ظلها. أما بشأن ماهية هذه الاختلافات، فإن هذا أمر يجب أن يقرره كل طرف بنفسه وأن يترك تحديده له بكل حرية. وفي الواقع، فإن هذا هو مكمن الإشكال: ففي عصر العولمة لم تعد الحدود الفاصلة بين الثقافات بينة واضحة المعالم، بل أمست عناصر الثقافات تتداخل وتتفاعل على نحو



أنا ماري شمل في السند مع مجموعة من النساء

فهانحن نستمع في ألمانيا إلى الموسيقى الإيرانية، وهاهم الإيرانيون في طهران يقودون السيارات الألمانية. وتفرز هذه التطورات حالة تتسم بالتناقض. ففي تلك اللحظة التي لا تكفي فيها مواظبة كلا الطرفين على تأكيد حُسن النوايا وتجاهل وجود العناصر الخالقة للتباين، نعم في تلك اللحظة ستأخذ عناصر التباين في الانتقال من ثقافة إلى أخرى والدبيب في داخلها دبيباً يؤدي إلى تلاشي مناحي التباين القائمة منذ قرون وقرون. فالإسلام، الذي يسعى الغرب جاهداً لأن يتخذ حياله موقفاً واضحاً، غدا جزءاً من الغرب ذاته بفعل الحشد الغفير من المهاجرين القادمين من البلدان الإسلامية. فلقد أمسى لهؤلاء المهاجرين صوت يشارك في تحديد هوية الغرب؛ بهذا المعنى فهم جزء من عالم الغرب ومن عالم الإسلام في آن واحد. وأمست الحال في العالم الإسلامي على شبه من هذا، ولكن على نحو معكوس طبعاً. حقاً لا وجود هاهنا للمهاجرين من الغرب، إلا أنّ السلع والأفكار الغربية، على وجه الخصوص، هي التي تهاجر؛ وكما هو بين تلعب هذه السلع والأفكار دوراً، سواء بالمعنى الإيجابي أو السلبي، مهماً في حياة الناس هناك. وهكذا، وسواء رضينا بذلك أم أبيناه، لم يعد هناك وجود «للنقاء» الثقافي. بهذا، فنحن حينما نمعن النظر في ثقافة أخرى فإن جهدنا هذا لن يسفر عن نتائج مهمة إذا ما تناولنا، شرحاً وتقييماً، مجملها، أي إذا ما تناولناها كما لو كانت ثقافة خالية من عناصر الثقافات الأخرى. انطلاقاً من هذا المنظور لا يمكننا إبداء الرأي بمجمل تلك الثقافة، بل بجانب من جوانبها لا غير. فعلى سبيل المثال، ليس ثمة شيء أغبى وأكثر خطورة من اعتبار الأصولية الإسلامية هي الإسلام بعينه. ولا يقل عن هذا غباء وخطورة نفي أن هناك أصولية تسعى إلى تحقيق أهدافها مستخدمة العنف. وعلى نحو معكوس يسري هذا، طبعاً، على الطرف الآخر أيضاً. من هنا، وعلى ما أرى، ينطوي لعن العولمة على سخف وغباء. فالمطلوب منا هو أن نميز بين الجوانب السلبية والإيجابية لهذه العولمة.

وفي سياق سعينا لتحقيق الهدف المنشود، أعني الوصول إلى تعايش سلمي بين الحضارات وخلق علاقة تنطوي على الهام متبادل، لا مراء في أن بوسعنا، في سياق هذا كله، وبرغم نقدنا لآنّا ماري شمل، أن نستمد العون منها في المقام الأول. من هنا يحسن بنا، فعلاً، أن نخلد ذكراها ونذكر محاسنها القيمة دوماً.

ترجمة: عدنان عباس علي

نص محاضرة ألقيت في معرض الكتاب بطهران بمناسبة ذكرى وفاة أنا ماري شمل.

كلاوس كريس Claus Kreß

أمريكا والمحكمة الجنائية الدولية

خلفيات وأبعاد قرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٤٢٢

لم يحظ تبني مجلس الأمن الدولي للقرار ١٤٢٢، بعد قيام الإدارة الأمريكية بممارسة ضغط شديد على الدول الأعضاء، بالاهتمام الكافي من قبل الرأي العام العالمي، رغم أن أبعاده وتداعياته المستقبلية تمس جوهر قضائية القانون الدولي. كلاوس كريس، الأستاذ في جامعة كولونيا والمتخصص في القانون الدولي والجنائي والعضو المشارك في الوفد الألماني، الذي ساهم في صياغة معاهدتها التأسيسية، يحلل الصراع الحاد حول صلاحيات هذه المحكمة الحديثة الإنشاء.

في الأول من شهر تموز/ يوليو عام ٢٠٠٠ أصبح النظام الأساسي المكون للمحكمة الجنائية الدولية الجديدة نافذ المفعول. هذه المحكمة هي الأولى من نوعها، لأنّها تتمتع بصلاحيات تخولها ملاحقة ومعاقبة أفراد متهمين باقتراف جرائم ضد الإنسانية، جرائم الإبادة الجماعية وجرائم الحرب الواسعة النطاق، إذا لم تكن السلطات المختصة في دولهم غير قادرة أو مستعدة للقيام بذلك. الإدارة الأمريكية الحالية، وبشكل مناقض للغاية مع موقف أغلبية الأمريكيين، ترفض عمل هذه المحكمة الفريدة من نوعها لكونها تطمح إلى شمولية وديمومة عملها على أسس القانون الدولي. لم يمر أحد عشر يوماً فقط على دخول المحكمة الجنائية الدولية مسرح الأحداث العالمية، حتى قامت الإدارة الأمريكية بممارسة ضغط شديد على الأطراف المتعاقدة، نجحت من خلاله في تحديد نطاق عمل هذه المحكمة، خاصة فيما يتعلق برعايا الدول غير الموقعة على الاتفاقية التأسيسية هذه الدول الثالثة. وقد سجلت النتائج هذا الضغط، أي في تبني مجلس الأمن الدولي للقرار ١٤٢٢، والذي أتخذ في الثاني عشر من شهر تموز/يوليو عام ٢٠٠٠، ويحظر على المحكمة الجنائية الدولية القيام بإجراء تحقيقات لملاحقة رعايا الدول الثالثة، وذلك لمدة عام كامل، حتى يتم اتخاذ قرار جديد.

الجدل الحاد حول قرار مجلس الأمن ١٤٢٢ يمكن اعتباره بمثابة الذروة العليا للنزاع بين الحكومة الأمريكية والأغلبية العظمى للمجتمع الدولي حول ترسيخ هذه المحكمة. هذا التصعيد الحاد في أسلوب المواجهة يعكس أهمية هذه المحكمة، وجسامة المتغيرات المتوقعة، ولذلك سنقوم بعرض تفصيلي للحجج القانونية الخاصة بعملية إرسائها والتعليق عليها لتسليط الضوء على أبعادها وعواقبها المستقبلية.

القانون الدولي وقضائية المحكمة الجنائية الدولية

المعاهدة التأسيسية للمحكمة الجنائية الدولية تخولها ـ بصورة عامة ـ صلاحيات القيام بإجراء تحقيقات لملاحقة جرائم ارتكبها مواطنو دول موقعة على هذه المعاهدة، أو جرائم ارتكبت على الأراضي الإقليمية لهذه الدول، وهذا يعني أن بمقدورها معاقبة رعايا الدول غير الموقعة على معاهدتها التأسيسية في حالة ارتكابهم جرائم ضد الإنسانية، جرائم إبادة شعوب وجرائم حرب أخرى على الأراضي الإقليمية للدول الموقعة على المعاهدة المذكورة آنفاً. هذه المنظومة القضائية

تم التوصل إليها بعد مفاوضات صعبة وطويلة مع الوفد الأمريكي، الذي استغل موقع الأرجحية المطلق الذي باتت الولايات المتحدة تتمتع به، للحيلولة دون الوصول إلى هذه النتيجة. الصراع الشائك للوصول إلى صيغة مشتركة لنص المعاهدة التأسيسية وصل إلى طور دراماتيكي في الأسبوع الأخير لمؤتمر روما في صيف ١٩٩٨، حيث قام الوفد الأمريكي برفض اقتراح كوري، أيده أكثر من ثمانين في المئة من الوفود المشاركة، يخوّل المحكمة صلاحيات واسعة لملاحقة رعايا الدول غير الموقعة على نظامها التأسيسي «الدول الثالثة»، خاصة إذا كان ضحايا الجريمة من رعايا الدول الأطراف في المعاهدة. والأهم من ذلك إذا قامت هذه بتقديم الحماية للمشتبه بهم. الوفد الأمريكي قام برفض الاقتراح الكوري، لأنه لم يف بمطلبه الرئيسي، وهو إرساء حق كل دولة في رفض ملاحقة رعاياها في كل حالة انفرادية. الليلة الختامية لمؤتمر روما شهدت جولة دراماتيكية نهائية، لأن الوفد الأمريكي قام بتركيز كل جهده على ضمان حق الدول التي لم تصدق على النظام التأسيسي للمحكمة، في رفض الملاحقة القانونية لمواطنيها، ولكن بدون نجاح .وأخيراً تم قبول «الصفقة النهائية» في روما من قبل الأغلبية الساحقة لدول العالم ضد أصوات ست دول، من ضمنها الصين، إسرائيل والولايات المتحدة.

لم تمر فترة وجيزة بعد انتهاء مؤتمر روما حتى قامت الحكومة الأمريكية بنشر ادعاء مضمونه أن صلاحيات المحكمة الجنائية الدولية تُشكل انتهاكاً لأبجديات ومُسلمات القانون الدولي، وبررت هذا الادعاء بالإشارة إلى المُسلمة القانونية الأساسية التي تنص على أن الواجبات القانونية الناتجة عن أية معاهدة تلزم فقط الأطراف الموقعة عليها. وبمقتضى هذا المبدأ فإن المحكمة الجنائية الدولية تمتلك صلاحيات لمعاقبة مواطني الدول التي تصدق على معاهدتها فقط. هنا أود القول، بكل احترام وتقدير: إن وجهة النظر الأمريكية تتعارض مع وجهات نظر أكثر من ١٣٩ دولة قامت بالتوقيع على المعاهدة التأسيسية لهذه المحكمة. علاوة على ذلك فإن مشروعية المحكمة لا تشكل اختلاقاً لواجبات جديدة من نوعها على حساب الدول التي لم تصدق على معاهدتها، وإنما تُشكل تجميعاً للحقوق التي تتمتع بها كل دولة بصورة منفردة. ما يجب الوفاء به لطرح إمكانية الشك العقلاني المقنع في شرعية صلاحيات هذه المحكمة، هو وجود حظر واضح لمنع التطبيق الجماعي لهذه الحقوق غير القابلة للنكران. من ناحية مبدئية فإن هيكلة النظام القضائي للمحكمة الجنائية الدولية تقوم على مبدأين معترف بهما في نطاق القانون الدولي، وهما: مبدأ الاختصاص الإقليمي Territorialität ومبدأ الاختصاص الشمولي «العالمي» Universalität، ويمكن قراءة ملامحهما في الآتي:

ـ مبدأ الاختصاص الإقليمي يعطي كل دولة الحق في ملاحقة ومعاقبة كل أجنبي قام بانتهاك قوانينها على أراضيها الإقليمية.

ـ مبدأ الاختصاص الشمولي (قانون الصلاحيات الدولية) يخول كل دولة الحق في ملاحقة مرتكبي جرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب الواسعة النطاق، وذلك بمعزل تام عن مكان ارتكاب الجريمة وجنسية المجرم أو ضحيته.

جوهر هذا المبدأ، حسب المفهوم العام لآليات القانون الدولي، يكمن في طبيعة هذه الجرائم التي تمس صميم شرعية القانون الدولي و «ماهية» التعايش البشري ككل. بالإضافة إلى ذلك فإن المحاكم الأمريكية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية أسهمت إسهاماً كبيراً في بلورة وإرساء هذا المبدأ كأحدى قواعد القانون الدولي. والجدير بالذكر في هذا السياق هو أن القاضي الأمريكي الواسع الخبرة والعامل في محكمة العدل الدولية بورغنتال Buergenthal أكد بمشاركة زميليه القاضيين هيغنس Higgins وكومويانس Kommoijmans شرعية سريان مفعول مبدأ الاختصاص الشامل في تقرير عام أصدروه بخصوص نزاع بين الكونغو وبلجيكا. استناداً إلى هذه الآراء فإن وجهة النظر الأمريكية تعترف، وإن كانت على مضض وبكثير من الشك، بحق كل دولة في تطبيق القانون الدولي بمقتضى مفهومه الشمولي. وعلى ضوء ذلك، فإنه لا توجد أية ضرورة قانونية لتبرير التطبيق الجماعي لمعايير قانونية معترف بها، كما أن الموقف الأمريكي لم يستطع الاستشهاد بواقع القانون الدولي وشفافية إجماع القانونيين في هذا الصدد. ومن هذا المنطلق فإن أي تقييم آخر يجب أن يكون مثيراً للتناقض الشديد؛ لأن مصلحة المجتمع الدولي تكمن في الملاحقة الفعالة لهذه الجرائم البشعة، وتطبيق ذلك سيكون أكثر ضماناً إذا تم القيام به من قبل منظمة دولية تتمتع بالشرعية والشمولية كأداة مثالية لتحقيق هذا الهدف. الملفت للنظر هنا هو رد فعل الإدارة الأمريكية التي لم تقابل هذه الحجج بالاستهجان المتوقع، رغم مواقفها السياسية معروفة تجاه هذه المحكمة. من المعروف حق المعرفة، كأحد أبجديات جوهر القانون، أن الإدراك البرهاني التفريقي لموضوع ما هو الطريق للوصول إلى مغزاه، فعلى أرض الواقع لا يمكن تجاهل الحقيقة السياسية التي تؤكد على أن عمل المحكمة الجنائية الدولية لن يكون ملاحقة لأفراد فقط، وإنما تقييماً لسلوكيات دول. ولهذا يتم المطالبة من قبل المعارضين للمحكمة بتغيير آليات عملها، وتبنى مبدأ الحل الوسط المتبع في التعامل مع النزاعات الحدودية. الإجابة على هذا المطلب بسيطة ومقنعة في آن واحد، لأن تطور مبدأ الاختصاص الشامل لا يشهد بتجاهل الواقع السياسي المذكور أعلاه، وإنما يُجسّد نضوج الوعي «بتورّط» دول في ارتكاب هذه

الجرائم البشعة. ولأن أغلبية الجرائم هي جرائم مرتكبة بشكل مباشر من قبل دول معينة، فإنه ليس بديهياً ومنطقياً أن تقوم هذه الدول «المشتبه» بها بالملاحقة القانونية النزيهة للمشتبه منهم من رعاياها. وبإيجاز شديد فإنه يمكن القول إن الاقتراح الأمريكي، الذي يعطي كل دولة الحق في رفض ملاحقة رعاياها في كل حالة فردية، سيؤدي إلى فقدان المحكمة الجنائية الدولية لفعاليتها كأداة مناسبة لمحاكمة مرتكبي أسوأ الجرائم وحشية في العالم.

وختاماً للجزء الأول من هذا التحليل يمكن استخلاص الآتي: صلاحيات المحكمة الجنائية الدولية، المحدودة للأسف، ما يتعلق بالدول التي لم تصدق على معاهدتها التأسيسية، مسايرة للقانون الدولي، وقائمة على عقلانية مقنعة وإدراك سليم لقواعد السياسة الدولية.

قرار مجلس الامن الدولي ١٤٢٤ والقانون الدولي

في الواحد والثلاثين من شهر كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٠ قام الرئيس الأمريكي السابق كلينتون بالتوقيع على المعاهدة التأسيسية للمحكمة الجنائية الدولية، مما أعطى بصيصاً من الأمل في إمكانية إيجاد صيغة للتعايش السلمي بين هذه المحكمة والولايات المتحدة.

لكن معارضة الإدارة الأمريكية لعمل المحكمة ازدادت بشكل واضح تحت إدارة الرئيس بوش الابن، التي ألغت، في خطوة غير اعتيادية، توقيع الرئيس كلينتون على المعاهدة التأسيسية للمحكمة، وهددت بعرقلة بعثات الأمم الدولية الواحدة تلو الأخرى، إذا لم يتم إعفاء الجنود الأمريكيين من المثول أمام المحكمة الجنائية الدولية. الإدارة الأمريكية قامت لاحقاً بأخذ زمام المبادرة، وهددت باستخدام حق النقض «الفيتو» لمنع تمديد التفويض الدولي لقوات حفظ السلام المتعددة الجنسيات في البوسنة. الوفد الأمريكي قام بالاستناد إلى المادة ١٦ للنظام التأسيسي للمحكمة الجنائية الدولية والتي تنص على الآتي: "في حال قيام مجلس الأمن بتوجيه طلب إلى المحكمة الجنائية الدولية، استناداً إلى الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، فإنه لا يجوز القيام بإجراء تحقيقات أو ملاحقة قانونية وفقاً لمعاهدة المحكمة الجنائية الدولية لمدة ١٢ شهراً، وهناك إمكانية لتجديد هذا المطلب تحت نفس الشروط." هذه المبادرة الأمريكية شكّلت استفزازاً صارخاً لأغلبية الدول التي صدّقت على المعاهدة الإنشائية للمحكمة، وأدت إلى نوبة غضب عارمة عبر عنها السكرتير العام للأمم المتحدة كوفي عنان في رسالة فريدة من نوعها، وجهها إلى وزير الخارجية الأمريكي كولن باول، قائلاً فيها: "إن المنهجية المقترحة تتناقض بصورة صارخة مع نص العقد الموقع عليه من قبل الدول الأطراف في المعاهدة الإنشائية، لأنه سيجبر هذه الدول على قبول قرار يغير هذا العقد. كلي أمل أن تتفهم وجهة نظري لأن مصلحتنا المشتركة تحتم علينا الحيلولة دون فقدان مجلس الأمن لمصداقيته وسلطته الشرعية." وفي مناقشة جدلية تمتعت بقدر كبير من الشفافية عقدت في مجلس الأمن في العاشر من يوليو/ تموز عام ٢٠٠٢ قامت دول كثيرة بالتشديد على رفضها للاقتراح الأمريكي. السفير الأردني لدى الأمم المتحدة عبر عن استيائه بطرحه السؤال التالي: "كيف يمكن لمجلس الأمن تبني هذا القرار، بناءاً على الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، إذا لم يكن هناك أي تهديد للأمن والسلام في العالم؟" السفير الكندي أعرب عن تَخوّف بلاده من إشكالية قانونية جديدة، لأن بلاده" ستواجه وضعية قانونية لم يسبق لها مثيل تحتم عليها اختبار شرعية قرار المجلس." لكن الإدارة الأمريكية أصرت على جوهر مطالبها، وكررت التهديد باستخدام حق الفيتو في محاولة ابتزاز واضحة للمجتمع الدولي. الموقف المتعنت للإدارة الأمريكية، والتأييد المطلق له من قبل المملكة المتحدة أدى إلى «رضوخ» الدول الرافضة له وتبني القرار ١٤٢٢. وكانت ردود الفعل الرسمية على تبني هذا القرار متباينة ومدهشة للغاية. السكرتير العام للأمم المتحدة كوفي عنان أعرب عن "ارتياحه العميق" للوصول إلى هذا الحل الوسط، رغم أن هذا الارتياح يتناقض نصاً وروحاً مع محتوى خطابه المرسل إلى وزير الخارجية الأمريكي خلال مرحلة التصويت. الرئاسة الدورية للاتحاد الأوروبي والتي كانت تحت رعاية الدانمارك وصفت تبني القرار بأنه "إيجابي"، مما يمثل لغزاً يصعب فهمه! وفي تناقض حاد ومثير للانتباه لردود الفعل المذكورة أعلاه، طلبت نيوزيلندة، البرازيل، جنوب إفريقيا وكندا من دول العالم رفض مسودة القرار متسائلة عن مدى مشروعيته وذلك قبل طرحه للتصويت. التحالف الدولي المؤيد لعمل المحكمة الجنائية الدولية، والمكون من شبكة عمل لأكثر من ١٠٠٠ منظمة غير حكومية استخدم لغة واضحة للتعبير عن استيائه الشديد، قائلاً: "لقد تم إلحاق الضرر بهيبة مجلس الأمن الدولي، لأنه تجاوز الصلاحيات المخولة له. لقد كان من العار على الدول المصدقة على المعاهدة التأسيسية للمحكمة الجنائية الدولية، السماح بتجاهل ميثاق الأمم المتحدة وانتهاك القانون الدولي."

وفي نفس الاتجاه صب النقد اللاذع الذي وجهه زعماء البرنامج البرلماني للدفاع عن حقوق الإنسان والقانون الدولي، وهي منظمة ناشطة تضم أكثر من ١٣٥٠ برلمانياً من ١٠٣ دول، حيث كتبوا معبرين عن سخطهم: "لقد قام مجلس الأمن الدولي بإلحاق الضرر، ليس فقط بالمحكمة الجنائية الدولية والقانون الدولي ولكن أيضاً بهيبته وشرعيته، وذلك لأنه قام بتجاوز صلاحياته وتغيير معاهدة دولية متعددة الأطراف."

ولكن بقبول القرار ١٤٢٢ من قبل المجتمع الدولي، نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في فرض إرادتها بصورة جوهرية، لأن هذا القرار وما يتضمنه من تأجيل واستثناء، ساري المفعول على كل بعثات الأمم المتحدة لحفظ السلام. وخصوصاً إذا قام مجلس الأمن بتنفيذ نيته المعلن عنها، وتجديد هذا الإعفاء في بداية شهر تموز/ يوليو من كل عام، وهذا يعني أن الإدارة الأمريكية نجحت في الوصول إلى هدفها "بتقويض" وإعادة صيغة صلاحيات المعاهدة التأسيسية للمحكمة الجنائية الدولية.

ثمن هذا "النصر" سيكون باهظاً، لأنه يعني إلحاق الضرر بمصداقية مجلس الأمن بشكل جاد وذلك لعدة أسباب: السبب الأول، هو الجدل الحامي الوطيس حول مدى شرعية القرار ١٤٢٢، لأن هذا القرار يجب أن يستند إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. كما أن المادة ١٦ للنظام التأسيسي للمحكمة الجنائية الدولية تشير إلى ضرورة توفر شروط معينة، قبل اتخاذ قرار بتأجيل ملاحقة المشتبه بهم.

وانطلاقاً من هذا المفهوم فإن المغزى العام للمادة ١٦ يستلزم وجود وضع سياسي معين يتطلب هذا التأجيل خدمة للأمن والسلام. ويمكن تصور السيناريو البراغماتي لهذا الوضع السياسي المعين من خلال التعاطي البناء مع عملية المفاوضات للوصول إلى هدنة بين أطراف متنازعة، وذلك بتأجيل ملاحقة المشتبه بهم لعدم عرقلة التوصل إلى هذه الهدنة السلمية. ومقارنة مع هذا السيناريو فإن القرار ١٤٢٢ ليس قائماً على وضع سياسي معين، وليس له أية علاقة بذلك على أرض الواقع. كما أن الادعاء القائل بأن "التأجيل العام لملاحقة المشتبه فيه يعتبر أداة لحفظ السلام والأمن العالميين ضمن نطاق المادة ٣٩ لميثاق الأمم المتحدة"، يمثل ادعاءاً مثير للريبة والشك. ومن البديهي في هذا السياق عدم اعتبار إمكانية التحقيق المُجردة من قبل مجلس الأمن تهديداً للأمن والسلام العالميين، وإنما تعزيزاً لهما، لأنه تم التأكد من نجاعة وفاعلية عمل مجلس الأمن من خلال عمل مهمات حفظ السلام الدولية. ما يهدد السلام العالمي بصورة حقيقية، هو التهديد الأمريكي بالانسحاب من المشاركة في عمليات حفظ السلام. ولكن مجلس الأمن لم يقم بتقييم جذري للوضع لإدراك الأمر على حقيقته. فلو قمنا بافتراض مفاده أن الاتحاد الأوروبي كان مستعداً لتحمل مسؤولية حفظ السلام في البوسنة، فإنه من الصعب تصوّر الإنسحاب الأمريكي من المشاركة في هذه القوات كتهديد حقيقي للسلام العالمي. النقطة الجوهرية هنا لا تكمن في التهديد الأمريكي بالانسحاب من قوات حفظ السلام، ولكنها تكمن في التهديد باستخدام حق الفيتو لمنع تفويضها، وذلك بغض النظر عن المشاركة الأمريكية فيها. وبالرغم من ذلك فإن قوات حفظ السلام الأوروبية تبقى دون تفويض من قبل مجلس الأمن الدولي، لذلك فهي معتمدة على موافقة الحكومة البوسنية كخيار قابل للتطبيق.

وانطلاقاً من التهديد الأمريكي باستخدام حق الفيتو، فإننا نعود تحليلياً إلى المادة ٣٩ لميثاق الأمم المتحدة؛ كما أنه لا يمكن تجنب طرح السؤال الآتي: هل يجوز لعضو دائم في مجلس الأمن الدولي استعمال حق الفيتو لخلق تهديد مصطنع للأمن والسلام العالميين؟ وعلى ضوء ذلك فإنه من الصعب تجنب الاستنتاج بأن التهديد الأمريكي المعلن باستخدام حق الفيتو يمثل إساءة استعمال لصلاحيات أعطيت للولايات المتحدة لميثاق الأمم المتحدة. السؤال المفتوح الذي يبقى حاضراً في الأذهان يتطرق إلى إمكانية حظر إساءة هذا الاستعمال من قبل ميثاق الأمم المتحدة، لأنه لم تسنح الفرصة لمحكمة العدل الدولية للقيام بفحص جذري وتقييمي لهذه الإشكالية. إجمالاً يمكن القول: إن التهديد المدعى للأمن والسلام العالميين يمكن أن يُفسر كنتيجة من نتائج الاستخدام التهديدي الخاطىء لحق الفيتو، التهديد الحقيقي يكمن في التشكيك في هيبة مجلس الأمن وشرعية القرار ١٤٢٢.

القرار ١٤٢٢ وتوازنات القوة والضعف

تبني القرار ١٤٢٢ وتداعياته لا يطرح أسئلة نقدية ذات زخم جدلي حول شرعيته فقط، ولكنه يجلب حقائق توازنات القوة والضعف إلى ضوء الواقع، وذلك بصورة نموذجية جداً. ففيما يختص بدور الولايات المتحدة الأمريكية في العالم الحالي الذي تتربع على عرشه "كقوة عظمى وحيدة"، فإنه أصبح جلياً أنها نجحت في فرض إرادتها ضد الأغلبية الساحقة لدول العالم، الرافضة مبدئياً وأخلاقياً للموقف الأمريكي. وعلى الرغم من ذلك فإنه لمن المشكوك به أن تنجح الإدارة الأمريكية في تحويل مجلس الأمن إلى أداة لخدمة أولويات السياسة الأمريكية. وفي تطور جديد، أظهر الجدل الحاد حول مدى شرعية استخدام القوة ضد العراق أن سلطة مجلس الأمن الدولي، القائمة على بنود الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، "كنز لا يقدر بثمن"، ليس فقط للدول الضعيفة، ولكن للولايات المتحدة أيضاً. هذه الأزمة تظهر بشكل دراماتيكي أن شرعية الموقف الأمريكي تعتمد كل الاعتماد على هيبة وسلطة قرارات مجلس الأمن. وفي هذا الصدد فإنه ينبغي الإصرار مبدئياً على احترام القرارات الملزمة التي يتبناها مجلس الأمن والهادفة إلى الحفاظ على السلام العالمي، والقيام بتطبيقها حتى في غياب هذا الاحترام. السؤال المطروح والذي لم يلق إجابة بعد هو: هل ينجح مجلس الأمن بدحر الشك عن صميم نطاق صلاحياته؟ أم يستسلم للتهديدات المسيئة له

من قبل عضو دائم فيه؟ وبالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فإنها ستفقد قدراً كبيراً من مصداقيتها إذا لم تقم بإعادة صياغة القرار ١٤٢٢ في تموز/ يوليو ٢٠٠٣. علاوة على ذلك فإن تبني هذا القرار لا يترك مجالاً للشك في موقع الأرجحية المطلق الذي باتت الولايات المتحدة تتمتع به، في غياب سياسة خارجية مشتركة للاتحاد الأوروبي. من الصعب تصور هذه «الهيمنة الأمريكية»، إذا قام الاتحاد الأوروبي بتنسيق سياسة مشتركة مع كندا، نيوزيلندة، جنوب إفريقيا والبرازيل، لبلورة موقف موحد للحفاظ على سلامة النظام التأسيسي للمحكمة الجنائية الدولية، وإذا قامت بالإصرار على العمل بنص وروح ميثاق الأمم المتحدة. ولكن التأييد البريطاني للموقف الأمريكي حال دون الوصول إلى موقف أوروبي مشترك. وبالنظر إلى «محدودية» السياسة الأوروبية الخارجية القائمة على مبدأ الإجماع، فإنه لا يمكن فهم عدم قدرة الرئاسة الدورية الدانماركية للاتحاد الأوروبي عن الامتناع عن مديح القرار ١٤٢٢ ووصفه "بحل الوسط الإيجابي". تبني القرار ١٤٢٢ أظهر بصورة جلية ضعف الاتحاد الأوروبي كلاعب دولي على مسرح السياسة الدولية.

السياسة الخارجية الألمانية بذلت جهوداً مثالية في الأيام التي سبقت التصويت على مشروع القرار ١٤٢٢، لمحاولة الحفاظ على سلامة المحكمة الجنائية الدولية، لأنها أكدت بكل وضوح على عدم وجود أرضية شرعية لهذا القرار القائم على الاقتراح الأمريكي، وحذرت من "خطر فقدان مجلس الأمن لهيبته ومصداقيته". ومع ذلك لم تقم الحكومة الألمانية بما فيه الكفاية للحيلولة دون مديح القرار من قبل رئاسة الاتحاد الأوروبي الدورية، وترك انطباع يشير إلى عدم اتفاق موقف أوروبا مع موقف نيوزيلندة، البرازيل، جنوب إفريقيا وكندا.

وانطلاقاً من الموقف البريطاني المؤيد مبدئياً للولايات المتحدة، فإنه من الصعب فهم محاولة الاتحاد الأوروبي خلق انطباع وجود موقف سياسي أوروبي مشترك تجاه هذا الصراع. اللافت للنظر في هذا السياق هو تناقض موقف المستشار الألماني غيرهارد شرودر الرافض بحزم لاستخدام القوة ضد العراق تحت كل الظروف، مع "تراجع" السياسة الألمانية الخارجية عن موقفها المبدئي المؤيد لعمل المحكمة الجنائية الدولية. السياسة الألمانية الخارجية لم تلتزم بالموقف الأوروبي المطالب "بالحفاظ على سلامة ومصداقية النظام التأسيسي للمحكمة الجنائية الدولية"، وقامت بالتعاطي السلبي مع الرئاسة الدورية للاتحاد الأوروبي التي مدحت القرار ١٤٢٢.

بعد وقت قصير من دخول النظام التأسيسي للمحكمة الجنائية الدولية حيز التنفيذ، دخلت هذه الهيئة الدولية حلبة صراعات السياسة العالمية المعاصرة. القرار ١٤٢٢ لم ينجح في تقديم أرضية للتعاون التكميلي بين مجلس الأمن الدولي ومحكمة الجنائيات الدولية لدعم الشرعية الدولية. لكن هذا التطور لا يمثل نهاية المطاف، لأن الإدارة الأمريكية الحالية قامت بالتوقيع على ما أسمته "مسودة إجراءات لحماية وخدمة الأمريكيين American Servicemembers Protection، التي تضمن تصريحاً للقوات المسلحة الأمريكية «بتحرير» الجنود المعتقلين بناءاً على طلب المحكمة الجنائية الدولية، مما يمكن أن يجعل هولندا، البلد المستضيف لهذه المحكمة، هدفاً لعلميات عسكرية أمريكية يوماً ما! بالإضافة إلى ذلك بدأت الإدارة الأمريكية في التوقيع على اتفاقيات ثنائية مع كثير من الدول المصدقة على النظام التأسيسي للمحكمة لضمان عدم مقاضاة المواطنين الأمريكيين.

وينط خطورة وأبعاد هذا القرار دليلاً قاطعاً على تصعيد النزاع بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين. ما يدعو للأسف هو حقيقة عدم وجود خلاف من حيث المبدأ حول ضرورة وجود مثل هذه المحكمة بين أوروبا وأمريكا. وما يدلُ على ذلك هو قيام أوروبا بمساعدة الولايات المتحدة في إنشاء المحكمة الدولية لملاحقة جرائم الحرب المرتكبة في يوغسلافيا ورواندا. ويحسن احترام النظام القضائي الجديد القائم على الشمولية١ والديمومة، على حكومات الاتحاد الأوروبي، وبالتعاون مع دول أخرى، التصدي للموقف الأمريكي، لكي لا تمسي هذه المحكمة منتدىً للمناظرات السياسية فقط، ولا يتم تهميشها وتحويلها إلى محكمة لحل نزاعات حدودية جانبية.

كل ما يمكن الأمل به هو أن تساهم الإجراءات الأمريكية في إدراك سليم لمفهوم القانون الدولي منذ بداية عمل المحكمة، لأنه من غير الممكن السماح لمجلس الأمن بتحديد صلاحيات المحكمة الجنائية الدولية التي أعطيت لها بتوافق تام مع الشرعية الدولية. كما أنه ينبغي على الاتحاد الأوروبي التحرك ككيان سياسي موحد ذي ثقل كبير، بدون انقسام بين «قديم» و«جديد»، للحيلولة دون تجديد القرار ١٤٢٢ في تموز/ يوليو ٢٠٠٣، لكي تجتاز المحكمة الجنائية الدولية هذه الاعتداءات على فعالياتها ومصداقيتها، ولكي يبقى القرار ١٤٢٢ مثالاً منفرداً، بدون أية قيمة قانونية، للتعامل السيء مع الشرعية الدولية.

ترجمة: *لؤي المدهون*

المصدر: مجلة «أوراق للسياسة الألمانية والدولية»، مجلة علمية تخصصية تعنى بأبحاث العلوم السياسية المعاصرة.

Blätter f. deutsche u. internationale Politik, 1078, 2002

موضوعات حول الأخلاق

ولد الفيلسوف الألماني تيودور أدورنو في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٠٣ لعائلة يهودية ألمانية في فرانكفورت التي درس فيها أيضاً الموسيقى والفلسفة. وقد تردد كثيراً بين الفلسفة والموسيقى إلا أنه حسم خياره أخيراً لصالح الفلسفة ونال فيها إجازة الدكتوراة، إلا أنّ هذا لم يمنعه من مواصلة اهتمامه بالموسيقى.

بعد سيطرة النازيين على مقاليد الحكم في البلاد ترك أدورنو ألمانيا في عام ١٩٣٥ وسافر في البداية إلى إنكلترا ومن هناك إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث عمل في "معهد البحوث الاجتماعية" الذي كان قد أسسه الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني ماكس هوركهايمر في نيويورك، بدلاً من المعهد نفسه الذي كان في مدينة فرانكفورت وعرف بـ"مدرسة فرانكفورت". وباسم "النظرية النقدية" أنجزت في هذا المعهد دراسات نقدية عميقة للرأسمالية والاشتراكية. أصدر أدورنو وبالاشتراك مع هوركهايمر في عام ١٩٤٧ (في منفاه النيويوركي) أهم عمل نظري له بعنوان "جدلية التنوير". وعندما عاد "معهد البحوث الاجتماعية" في عام ١٩٥١ إلى فرانكفورت أصبح أدورنو رئيسه كما درس الفلسفة في جامعة فرانكفورت أيضاً. وحتى وفاته عام ١٩٦٩ كان أدورنو إلى جانب هايدغر أهم فيلسوف في ألمانيا.

تأثر أدورنو بديالكتيك هيغل كثيراً ورغم أنه اعتبر فيلسوفاً يسارياً إلا أنه لم يؤمن بإمكانية تطبيق الإشتراكية على أرض الواقع. فمهمة الفيلسوف عنده تكثفت في النقد، ليس لنقد المجتمع فحسب، بل المدارس والاتجاهات الفلسفية، خصوصاً فلسفة هايدغر، وأشكال مختلفة للفن الحديث والموسيقى.

وإلى جانب مؤلفاته الفلسفية المعقدة، نال أدورنو شهرته أيضاً من مقالاته النقدية حول الفن والأدب و «الموضوعات Aphorismen» التي جمعها عام ١٩٥١ في كتاب بعنوان "الأخلاق الصغرى Minima Moralia». وبمناسبة الذكرى المئوية لميلاده تقدم «فكر وفن»، وللمرة الأولى باللغة العربية، بعضاً من هذه الموضوعات.

تاريخ . مجتمع

في المجتمع الفرديّ، لا تتحقّق فقط تلك العمومية من خلال فاعلية كل فردٍ واحدٍ، بل إنّ المجتمع هو بشكلٍ خاصٍ، جوهرُ الفردانيةِ.

إنّ المجتمع يبقى لكل إنسان بجميع فاعلياته، ذلك الشخص الخفي المنتظر، الذي يبقى من جهة دائماً في حالة طارئة، كي يقدّم المساعدة، غير أنه من جهة أخرى، وبنظر الإنسان، يبقى حجرة عثرة أمام إمكانية التوظيف أو العمل، وكأنه يلعب دور ضابط الموت المرشّح أبداً.

إنّ المصطلح الاجتماعي للأشياء ليس أكثر من ذلك العذاب الماضي.

إنَّ عملية التعتيم وما يمكن تسميته بالكشف عن الغيب، ليس سوى ميتافيزيق الناس الأغبياء.

إنَّ اللغة هي ذلك العنصر الجوهريّ الموضوعيّ، حسب مصطلح المجتمع له، غير أنه يبقى نفس العنصر أيضاً، حتى عندما يُستعمل بنشازٍ فرديٍّ خالصٍ، بنظر المجتمع إياه.

إنَّ استحالة تقديم تفسير للفاشية أو عرض واضح لها، يكمنُ، من حيث أنها لا تفسح في المجال سوى للأقلِّ القليل، في كيفية تعاملها ووجهة نظرها للحرية التي تقدّمها للفرد، مقابل ما يقدّمه هذا لها؛ - إن الحرية اللامتكاملة يمكن التعرّف عليها، بغموضٍ والتباسٍ، لا تقديم ايضاحات أو شروح عن جوهرها.

إنَّ الجمعيات المنحرفة الضالة، لاتنمو بنفس الإيقاع الذي تنمو على أساسه المؤسسات الكبرى. إنّه نفس ذلك الإيقاع المدمّر.

إنَّ الحبَّ الأعمى المتحمّس للسيارات، يتأرجح معه دائماً شعور فيزيائي بالتشرّد المكانيّ.

إنَّه لاتوجد هناك حرية، طالما بقيَ لكلِّ شيءٍ ثمنه الخاص.

لوكان الناس ليسوا بشيءٍ يُمتلك، لكانوا أيضاً غير قابلين للتبادل مرة أخرى.

لايمكن أن يكون تحرّر ومساواة، في مجتمع ليس فيه أساساً عدالة وحرية.

الفردية

عند الكثير من الناس، اعتقاد مُسبق، بأنه شيء لا أخلاقي، عندما يبدأ الإنسان حديثه، بضمير المتكلم «أنا».

ليس هناك شيءٌ حقيقيٌّ في التحليل النفسي سوى المبالغة.

الحقيقة ـ الفلسفة

إنَّ التفكير الديالكتيكي ليس سوى محاولة، لكسر المنطق بنفس وسائل تقاليده وأساليبه المتعالية التعسّفية.

في النهاية يبقى هناك الأمل، الذي لايمكن الحصول عليه سوى من الواقع، الطريقة الذي يُنفى ويُستلب بها، عبر شكل وحيد، يتمّ ظهوره من خلال الحقيقة فحسب.

إنَّ الشيء الحقيقي، هو فقط تلك الأفكار التي لاتفهم ماهيّة نفسها.

إنَّ المتعارف عليه، هو أنه في أيِّ نصٍّ فلسفيٍّ، يجب أن تكون الجمل كلها متساوية، من دون نقطة ارتكاز محورية.

فقط الاغتراب هو السمُّ المقابل لمفهوم الاستلاب في الماركسية.

إنَّ الكلَّ المطلق هو اللاحقيقة.

إنَّ عود الخشب الذي في عينك هو أفضل عدسة تكبير.

الفلسفة هي تلك التي يُنظر إليها على أنها الوحيدة المسؤولة أبداً عن اليأس؛ فإذا كان من الممكن، بالتالي، محاولة النظر إليها، إلى كل الأشياء على هذا النحو، يصبح من الممكن استعراض نفسها، وتقديمها من نفس نقطة تحرّرها بالذات.

أخلاق

إنّه لمن المُستبعد وجود حياة طبيعية في أخرى فاسدة وخاطئة.

إنَّ واجب الوظيفة التي من اللاممكن حلّها، لاتتوقف فقط على قوة الآخرين، أو على احساسها الذاتي بالعجز بأن مشكلة تُحلّ، بل إنها تجعل من نفسها شيئاً تافهاً لا قيمة له.

إنَّ النقد الذاتي للعقل، هو أخلاقه نفسها.

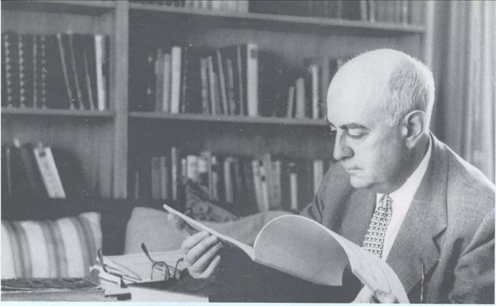
إنَّ الذكاء ليس من صنف الأخلاق.

لم يعد هناك أي شيء يمكن أن يكون بلا معنى.

إذا كان بإمكانك أن تصبح محبوباً، بالذات، فإنَّه يمكنك حينها أن تُظهر ضعفكَ بدون أن تثير حساسية القوة.

إذا استطاعت الحياة الزوجية أن تحمي آخر الإمكانيات، بحيث تتمكن من بناء خيمات إنسانية خصوصية في خيمات عمومية لا إنسانية، وقتها يصبح بمقدور تلك العمومية من أن تثأر من انهيارها.

إنَّ الحياة تحوّلت إلى سلسلة لانهاية لها من الرعب، بحيث غدت بين شقوقها، أماكنُ فارغة في المنتصف، متصدّعة منهارة.



أدورنو في سنة ١٩٦٣. Photo: Bildarchiv Preußischer Kulturbesitz

عندما يصبح الإنسان مشهوراً في آخر سنواته، أي عندما يصل إلى مرحلة إنسان حكيم ناضج، بشكل خاص، فإنَّه يمكن الاعتقاد، حينئذ، بأنَّ حياته إنما كانت سلسلة من أعمال سيئة السمعة.

جمال. فن

لا جمال، أو شقاء، باستثناء ما يوجد في أُفق النظر، الذي يحاول من داخل الفزع أن يسنده، ويُمسك به، وذلك بنفس رعونة وخشونة الوعي السلبيٍّ، يحدث هذا، كلّه من أجل إمكانية التحسين أو التجميل.

إنَّ الحداثة كانت قد أصبحت في الواقع، لا حداثةً أبداً، لأن الحداثة تتبع الكيفيّة، وليس التسلسل الزمني.

الفنّ هو السحر ذاته؛ يمكن أن يتحوّل إلى حقيقة عندما يتحرّر من الكذب.

يوتوبيا. سعادة

إنَّ البحث عن السعادة، هو نفسه كالبحث عن الحقيقة، فهي ليست فيما إذا كان المرء يحوز عليها؛ بلْ فيما إذا كانت هي فيه مكنونة.

على المرء ألاّ يكون كالحيوان مستلقياً أو طائفاً على الماء، وناظراً بسلام وطمأنينة إلى السماء؛ لأنه لايمكن بدون القوانين التنظيمية، المستمرة في تطورها، التحقّق في موقف ما، من إحدى القضايا أو المسائل ـ لذلك لابدَّ من وضع هذا التحقق موضع التنفيذ، كما أنه لابدّ من أن يفي المنطق الدياليكتيكي بوعده، ويصبَّ في منبعه، أو منشئه الأوليّ الأصل؛ ففي الحقيقة، لايوجد هناك، من بين جميع المصطلحات المجردة، مصطلح واحد قريب من «اليوتوبيا» ـ الوهم الخيال سوى ذلك المتكوّن من السلام الأبدي.

إنَّ الموقف الجيد، لايحتاج سوى للتفكير، وليس للافتراض، كما لو أنَّ المرء يمكن أن يكون بدون خوفٍ، شيئاً آخر غيره.

إنَّ الألماني إنسانٌ لايستطيع أن ينطق كذباً، دون أن يعتقد هو نفسه به ويصدّقه.

إنَّ الإنسان لايحتاج سوى أن يكون مستاءً أو غير راضٍ عما هو عليه، ليكون بالتالي، مهيّأً للشبهة بتغيير أو تحسين العالم.

ترجمة: *رياض العبيد*

استشهادات من: «حقائق أولية بسيطة حول الأخلاق». ردود فعل ناتجة عن حياة محطمة، (١٩٤٤ ـ ١٩٤٧)، مأخوذة من «تيودور ف. أدورنو»، أعماله الكاملة، الجزء الرابع، فرانكفورت على الماين ١٩٨٠.

المصدر: © Suhrkamp Verlag, Frankfurt a. M. 1951

٢٥ عاماً على «غاليري فكر وفن»

شهادات وانطباعات

الفنان ثروت البحر في عام ١٩٧٦ كلفني مدير معهد غوته الاسكندرية د. فولفغانغ أوله بعمل نشاط ثقـافي مكثف وشامل. وكان من الضروري عمل اطار لذلك، فتم استغلال الدور الأرضي من المعهد بمدخل خاص وأقيم «غاليري فكر وفن» بقاعة عرض وصالة استقبال. وقد سمي كذلك نظراً إلى ما تحظى به مجلة «فكر وفن» من جدية واحتـرام كبير لدى قراء الـعربية، حيث تعتـبر هي ومجلة اليـونسكو ضمن المراجـع التي يعتـد بها فـي الأبحاث الأكـاديمية. وقـد حظي «غاليري فكر وفن» بشعبية عريضة في الاسكندرية ومصر كلها، حيث أقيم به ما يزيد على ثلاثمائة معرض لفنانين ألمان ومصريين خـلال فترة إشرافي التي امتدت حوالي عـشرين عاماً. وبهـذا شكل معهد غـوته بالاسكندرية علامة فـارقة في الحركة الثقافية بالاسكندرية التي كـانت تمر بفترة ركود ثقافي حيث لم يكن هناك منافس حقيقي لمعهد غوته في دعمه للفنانين خاصة الشباب. وكان النشاط يشمل مـحاضـرات عن الآثار والموسـيـقى والأدب والشعـر وبالتـالي الفن في ألمانيـا والموسيقى والأدب. اضافة إلى لقاء أسبوعي يوم الجمعة في حلقة نقاش مفتوحة بلا قيود تناقش كل شيء مما جعل المكان متنفساً للتعرف على الذات وعلى الآخر في مناخ من الحرية كان الجميع بحاجة لـها وهذا ما لم يكن متاحاً في مكان آخر في ذلك الوقت.

لقد تم الاحتفال عـام ٢٠٠١ بمرور ربع قرن على تأسيس "غاليري فكر وفن". وكالعادة السنوية أقيم معرض الصالون السنوي لرواد المرسم الذين كانوا شباباً في ذلك الوقت مع الشبـاب الجدد. كنت قد انتقلت إلى القاهرة مـديراً لمتحف الفن المصري الحديث وقـد سعـدت برؤية أعمال رواد المرسم، وهي مـقتنيـات في المتحف، وسعدت أيضاً بدعوتهم لي للمـشاركة معهم في المعرض السنوي. لقد شعرت بأن ما قمنا به مـعاً في "غاليري فكر وفن" بالاسكندرية هو شيء نذكره بكل حب وتقـدير، ومن الضروري أن أذكر أنه لو لا تأيـيد ودعم المدراء الألمان المتعاقبين للمعهد أولاً فولفـغانغ أوله، أدولف تولمان، ديتر فولبريشت، ريتشارد شميـدت ما كان ليتحقـق شيء مما ذكرته. واليوم يقوم توماس ليـر بالتعاون مع رواد الغاليري الأوائل بالعـمل على استمرار النشاط بنـفس الحميمية. إن مـعهد غـوته كان خطوة فـعالة وصـائبـة لبناء جسـور تواصل بين الاسكندرية وألمانيـا المعاصرة التي تحظى بمكانة خاصة وتقدير عميق من المصريين.

الفنان ابراهيم الطنبولي يعبر عن رؤيته لـ "غاليري فكر وفن"، فيعتبره واحة ومكاناً خاصاً يلتـقي فيه بمجموعة من الفنانين يجـمعهم حب الفن، تثري لقاءاتهم حوارات فنيـة ومناقشات فكرية. أثر في الغاليـري أعمال هؤلاء الفنانين بأسلوب التعـبير الخـاص لكل منهم، وتأكيـدهم على أهمية حـرية التعبـير، مما يضعهم في مكانة خاصة في الحركة الفنية التشكيلية.



لوحة الفنان: مجدي موسى

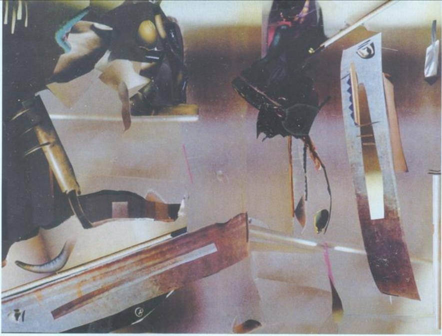
الفنان مجدي موسى تم تأسيس الغاليري في معهد غوته بالاسكندرية على يد الفنان السكندري ثروت البحر ومشاركة مستمرة من فنانين أصبحوا اليوم أسماء مؤثرة بعطائها الفني في الحركة التشكيلية. ربطت بين فناني الجاليري عوامل شكلت الوعي، والطريق، الانفتاح، الإيمان بالفن ودوره، والتمسك بقيم حرية الإبداع، خوض غمار مناطق جديدة في التعبير الفني، واحترام وممارسة قيم المشاركة والتواجد.

على مدى ٢٥ عاماً، انعقد، وانفرط عقد جماعات فنية عديدة، وبقي "غاليري فكر وفن"، وسيبقى ممارساً لدوره من خلال ممارسة ومشاركة فنية، في إثراء الحركة الفنية التشكيلية.

منذ البداية، جذبني الغاليري، ليكون مكاني الخاص كما هو لكل الفنانين ومازال، وعلى رغم اختلاف وتنوع أساليب وأشكال إبداعاتنا، نقف دائماً متفقين على احترامنا وحبنا للفن وإيماننا بضرورة استمرارنا.

٢٤ صالوناً سنوياً، ورش عمل مختلفة مع مشاركين فنانين ألمان، وآخرين. معارض خاصة وجماعية لفنانين عديدين من ألمانيا ومصر.

الفنان مدحت الكريوني لايمكن إغفال دور "غاليري فكر وفن" في الحركة التشكيلية السكندرية/ المصرية فقد وسع من رقعة الابداع التشكيلي، كان بمثابة النافذة، التي من خلالها دخل ضوء جديد ورؤية تشكيلية معاصرة، مغايرة. "غاليري فكر وفن" هو المكان الذي ولدت فيه تشكيلياً.



لوحة الفنان: سلامة فؤاد

الفنان سلامة فؤاد يحرص على إبراز مـا قدمه الغالـيري على مدى تاريخه من فكـر وفن ومناخ ووعي فني وثقافي خلال رحلة أثرت في الحياة الثقافية الفنية، مؤكداً على خصوصـيته كونه أنشىء داخل معهد غوته الذي احتضنه (الغاليري) طيلة هذه السنين.

الفنان والناقد التشكيلي عصمت داوستاشي يلخص تاريخ الغاليـري في أنه "نشاط متألق" ويـقول: "أنجز غاليري فكر وفن تنشـيطاً فعالاً في مسيـرة الفن التشكيلي بالاسكندرية طوال ربع قرن. منذ أن أنشـأه الفنان ثروت البحر. تجاوز فكر وفن مفهوم ومحدودية قاعة العرض، ليصبح ملتقى ابداعياً وثقافياً ومدرسة غير مباشر لأجيال جديدة من المبدعين هم الآن يتولون أمر الاشراف عليه، كما التحمت فكرة المعـايشة بين الحضارات والأفكار المتغايرة والأنماط المختلفة داخل هذا الرواق الفني الذي احتضنه معهد غوته.

تجاوز «غاليري فكر وفن» الثقافة الألمانية إلى مزجها بالثقافة المصرية، وطالما كان هناك عشق خفي ومعلن بين الثقافتين فظهر هذا جلياً في أنشطة «غاليري فكر وفن»، وخاصة من شباب الفنانين، محور اهتمامهم الكبير والأساسي.

الغاليري والمركز والمعـهد أصبح لها مكانة بارزة بين المحافل الثقـافية المتعددة الجنسية بالمدينة الـعالمية. الاسكندرية، كانت، ... وتعود من جديد مع افـتتاح مكتبتـها الشهيرة. ولعل في هذا الاطار الحـضاري والمتفائل الجديد يعـاود "غاليري فكر وفن" توجهه وطموحاته."



لوحة الفنان: عمرو هيبة

الفنان عمرو هيبة يلخص تجربته مع الغاليري، فيقول: "انضممت إلى مجموعة "غاليري فكر وفن" عام ١٩٧٩، وعرضت أعمالي فيه لأول مرة. ومن خلال الغاليري كان احتكاكي بالحركة التشكيلية في مصر وألمانيا. مناخ الغاليري الفني ساهم بشكل أساسي في تكوين شخصيتي الفنية.

الفنان النحات أحمد السطوحي يعرض رؤيته لفعاليات ونشاط الغاليري، فيقول: "ترجع قيمة غاليري فكر وفن بمعهد غوته بالاسكندرية إلى دوره الفعال والمؤثر في المحيط الفني الثقافي السكندري، وترتب على دور الغاليري حركة ناهضة تفاعلت بقوة مع مراكز ثقافية أخرى، أنتجت حصاداً فنياً وثقافياً رائعاً مما أكسب المناخ الثقافي زخماً تجسدت معالمه ونتائجه في جيل من الفنانين شاركوا في الحركة التشكيلية، ويتطلع مثقفوا الاسكندرية إلى اطار أرحب من التعاون، تحققه قاعة فكر وفن، يتلاءم مع معطيات المستقبل.

الثقافة العربية في معرض فرانكفورت

حوار مع رئيس معرض فرانكفورت للكتاب فولكر نويمان

اعتاد معرض فرانكفورت الدولي للكتاب منذ عام ١٩٧٦ أن يقدم سنوياً منطقة أو دولة من دول العالم ضيف شرف على فعالياته. الفكرة بدأت مع أمريكا اللاتينية واستمرت مع أفريقيا وأوروبا إلخ. إدارة المعرض اختارت العالم العربي ضيفاً للشرف على المعرض في عام ٢٠٠٤. «فكر وفن» تنشر هذه المقابلة مع رئيس المعرض عن أسباب ودوافع هذا الاختيار:

معرض فرانكفورت للكتاب يعد أكبر تجمع للمتخصصين في مجال النشر وفي عام ٢٠٠٤ سيستضيف العالم العربي كضيف شرف وذلك في إطار مواصلة برنامج ضيوف الشرف البارزين الذي تنامى بقوة منذ عام ١٩٧٦. ماذا يعني ذلك بالنسبة للعالم العربي؟

فولكر نويمان: يمكننا أن نشبه معرض الكتاب الدولي في فرانكفورت بأنه نوع من الألعاب الأولمبية للفكر والروح. في هذا العام كان لدينا أكثر من ٦٦٠٠ شركة من أكثر من مائة دولة وقامت بعرض أكثر من ٣٥٠٠٠٠ كتاب. وهذا يعني أن معرض فرانكفورت للكتاب قد صار بلا منافس. ويعني ذلك أيضا أن العالم العربي سيجد فرصة متميزة وفريدة لتقديم القيمة الحقيقية لأدبه وثقافته وكتابه.

كيف؟

فولكر نويمان: يوفر معرض فرانكفورت للكتاب أكبر ساحة إعلامية في العالم حيث يوجد به ١٢ ألف صحفي من ٩٠ دولة تقريبا يكتبون تقاريرهم الصحفية عن المعرض، بل إن حجم المشاركة الإعلامية في المعرض يفوق المشاركة الإعلامية في الألعاب الأولمبية ونهائيات كأس العالم لكرة القدم. وهذا يعني أنه لا توجد ساحة إعلامية مشابهة يمكنها أن تتيح للعالم العربي تقديم فنونه وثقافته المعاصرة.

لماذا قرر معرض فرانكفورت للكتاب دعوة العالم العربي ليصبح ضيف شرف في عام ٢٠٠٤؟

فولكر نويمان: يعد معرض فرانكفورت في المقام الأول وفي الأغلب حدثا تجاريا، لكنه يسعى جاهدا للتمهيد للحوار بين الثقافات. وهذا ما جعلنا نبدأ برنامج ضيوف شرف المعرض في عام ١٩٧٦ باستضافة أمريكا اللاتينية. ومنذ ذاك الحين قدمنا دولا ومناطق ثقافية متميزة من كل أنحاء العالم، وقد ساعد ذلك بالتأكيد على إبراز أصوات جديدة من هذه المناطق. وفي يومنا وعصرنا هذا تعد المبادرة بالحوار بين العالم العربي وباقي العالم أمرا ضروريا. ولنضع النقاط على الحروف ونقول بصراحة إنه لا العالم العربي ولا الغرب قد اجتهدا بالقدر الكافي لتعزيز التبادل المعرفي. فأعمال الكتاب والمثقفين العرب نادرا ما تترجم إلى الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، كما أنّ هناك القليل جدا من الكتابات الغربية المعاصرة المترجمة إلى العربية. لا بد لذلك أن يتغير ونحن نود أن نعطي دفعة قوية لهذا التغيير.

ماذا سيحدث في معرض فرانكفورت للكتاب عام ٢٠٠٤؟

فولكر نويمان: الإجابة على هذا السؤال مرتبطة بالمنظمين. والمسؤولية تقع على عاتق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليسكو) ومقرها في تونس. لقد قام الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى بتكليف السيد المنجي بوسنينة المدير العام لمنظمة أليسكو بالإشراف شخصيا على تنظيم الحضور العربي في المعرض. عموما تستفيد الدول من حضورها كضيف شرف للمعرض من خلال عرض فنونها وثقافتها التقليدية والمعاصرة على نطاق واسع.
ويضاعف ناشرو هذه الدول جهودهم لتقديم برامجهم وللتوصل إلى شركاء مستقبليين لعمل عقود الترجمة.

ما هي العوامل الضرورية لنجاح الحضور العربي في المعرض في العام القادم؟

فولكر نويمان: إن الحضور القوي للكتاب العرب في فرانكفورت سيكون حيويا لنجاح التواجد العربي في المعرض. لقد جلبت روسيا التي كانت ضيف الشرف لهذا العام أكثر من مائة كاتب وكاتبة، قرأوا من أعمالهم وناقشوها على أرض المعرض في فرانكفورت وفي كل

أنحاء ألمانيا. وقد ثبت أن هذه اللقاءات كانت معيارا لنجاح الحضور الروسي في المعرض: لقد استقبل الإعلام والجمهور هذا الاحتفال الأدبي بتلهف، ومن المؤكد أن الأدب الروسي المعاصر سيستمر في تعضيد حضوره في عالم الأدب.

ما الذي يجب عمله للحفاظ على هذا التأثير؟

فولكر نويمان: من الضروري أن يكون هناك برنامج قوي لدعم الترجمة. فالناشرون في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ليسوا على استعداد للمخاطرة باستثمارات ضخمة لتمويل الترجمة، وخصوصا بالنسبة للغات غير المعروفة كثيرا في "الغرب". وقد تكون تلك إحدى المشكلات. وسيواجه الكتاب العرب وكتبهم في دور النشر الكبيرة مشكلة المحررين الذين لا يستطيعون قراءة النصوص في لغتها الأصلية. لذلك فإن وجود نماذج من الترجمات مرفقة بتوضيح عام عن الكتاب، تعد من الأشياء الأساسية لجذب انتباه صانعي القرار في دور النشر. لقد بينت التجربة منذ عام ١٩٧٦ أنه طالما كانت هناك مثل هذه البرامج لدعم الترجمة فسيكون للحضور بمعرض فرانكفورت تأثير إيجابي مستمر على وضعية أدب البلد الضيف في أسواق النشر الرئيسية التي تنشر الترجمات عادة، وهي ألمانيا وفرنسا وهولندا وأسبانيا والدول الاسكندنافية. وحينما لا توجد برامج لدعم الترجمة فإن تأثير معرض فرانكفورت يميل إلى أن يكون لفترة قصيرة الأمد.

كيف يمكن للحضور في معرض فرانكفورت أن يؤدي إلى انتشار واسع للثقافة العربية؟

فولكر نويمان: يجب أن يتجاوز الحضور العربي نطاق المعرض، الحضور الثقافي للعالم العربي في معرض فرانكفورت للكتاب عام ٢٠٠٤ سيتوزع بين أرض المعرض حيث ستتركز الأضواء على ضيف المعرض وباقي ألمانيا. وهناك عادة تعاون ما بين العديد من المؤسسات الثقافية الألمانية والدول المستضافة بمعرض فرانكفورت للكتاب سواء كان ذلك بالتعاون مع المنظمين أم بدونهم. في عام ٢٠٠٣ تم تنظيم أكثر من ٧٥٠ حدثا ثقافيا في كل أنحاء ألمانيا حول موضوع "روسيا" بما في ذلك المعارض الفنية والأفلام والحفلات الموسيقية وأشياء أخرى كثيرة. وكل من هو مسؤول عن التنظيم لحضور دولة ضيف بمعرض الكتاب يجب أن يسعد بالاستفادة من هذا الحماس الذي جعل لهذا البرنامج نجاحا فائقا عبر السنين.

الإطار الزمني المحدد للمنظمين يبدو ضيقا جدا. فإذا سلمنا بأن هناك أقل من أحد عشر شهرا باقية للتحضيرات، فهل هناك جدوى من القول بأن هناك أمل في أن استضافة العالم العربي ستحقق نجاحا؟

فولكر نويمان: بالتأكيد! يجعل الإطار الزمني الضيق المنظمين أكثر تركيزا على عملهم ويقبلون عليه بحيوية ويعملون بفعالية في الاتجاه الصحيح. من الضروري تجنب



صادق جلال العظم، منجي بوسنينة، فولكر نويمان في المؤتمر الصحافي المشترك، فرانكفورت ٢٠٠٣. تصوير: Stefan Weidner

أي تدخل خارجي، فأي خطأ يمكن أن يلحق بالتنظيم ضررا جسيما. في الشهور الماضية اتضح لنا الهيكل التنظيمي الذي سنتبعه والعمل المرهق قد تم إنجازه بالفعل. لذا فإننا متفائلون بأن حضور العالم العربي سيحقق نجاحا كبيرا في عام ٢٠٠٤.

أجرى الحوار هولغر إيلنغ

ترجمه أحمد فاروق

فولكر نويمان (٦١ عاما) هو رئيس معرض فرانكفورت الدولي للكتاب منذ عام ٢٠٠٢ التحق بمؤسسة المعرض بعد تقلده للعديد من المناصب الكبيرة في صناعة النشر الألمانية لمدة ٣٠ عاما تقريبا. آخر منصب تولاه كان رئاسة التسويق الاستراتيجي لدار نشر راندم هاوس في وسط أوروبا وأمريكا اللاتينية و تولى كذلك منصب المدير الإداري لمجموعة برتلسمان بوك في ألمانيا.

أحمد حسو Ahmad Hissou

الشعر العربي في الأكاديمية الألمانية

العرب ومعرض الكتاب ٢٠٠٤

حين يخرج هذا العدد من المطبعة ويصبح بين يدي القارئ يكون عام ٢٠٠٣ قد لفظ أنفاسه الأخيرة. هذا العام شهد في نهايته حدثين مهمين للثقافة العربية في ألمانيا. الحدث الأول هو تبني معرض فرانكفورت الدولي للكتاب للعالم العربي كضيف شرف على المعرض لدورة ٢٠٠٤، (مقابلة مع رئيس المعرض في الصفحة ٧٦) هذه هي التسمية الرسمية التي درج المعرض عليها منذ عام ١٩٧٦ في استضافة أدب شعب من الشعوب؛ مايعني هو أنّ أدب وثقافة المنطقة (ضيف الشرف) يحتل الصدارة في نشاطات المعرض، بمعنى دعوة كتاب وإقامة أمسيات أدبية في أروقة المعرض وخارجها أيضاً. وحين سألت الروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف هل هذه الدعوة اعتراف متأخر بالأدب العربي، أجاب: "أن يأتي (الاعتراف) متأخراً خير من ألا يأتي إطلاقاً". وإذا علمنا أنّ الأدب الروسي العظيم، الذي أنجب تولستوي ودوستوفسكي وتشيخوف وباسترناك، كان ضيف الشرف لعام ٢٠٠٣ يزول استغرابنا. فنحن لسنا متأخرين والاعتراف، إذا كانت استضافة معرض فرانكفورت للكتاب تعني أصلاً اعترافاً، لم يأت متأخراً بالمقاييس الألمانية وحتى بأية مقاييس أخرى. المهم في الأمر أن يساهم الحضور العربي في معرض فرانكفورت إلى تنشيط حركة الترجمة بين اللغتين وخصوصاً من العربية إلى الألمانية وتقديم صورة حية للأدب العربي في هذا المحفل الدولي. وبلغة السياسة فإنّ الكرة الآن في مرمى الجامعة العربية، ممثلة العالم العربي الرسمية وفرعها الثقافي «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ أليسكو» لتقديم عرض يليق بالأدب العربي ويزيل سوء الفهم الذي رافق اختيار بعض الترجمات إلى الألمانية مثلاً، بدعوى تكريس ثقافة ألف ليلة وليلة أو الأعمال التي يجد فيها الغرب ضالته وتعزز الصورة التي كونها هو نفسه عن العالم العربي، ليأتي ويقول: ها قد شهد شاهد من أهله. ورغم مشروعية بعض التساؤلات حول أسباب اختيار هذا العمل أو ذاك، إلا أنّ تدقيقاً بسيطاً في قائمة الترجمات يكشف أنّ معظم الأعمال المترجمة إلى الألمانية تعكس إلى حد كبير واقع الأدب العربي (في الرواية: نجيب محفوظ، الطيب صالح، حنا مينة، عبد الرحمن منيف، إبراهيم الكوني، سحر خليفة ... وفي الشعر: بدر شاكر السياب، البياتي، محمود درويش، أدونيس، ..).

ربما تكون المشكلة في الجانب الآخر إن ظهرت! بمعنى كيف ستتعامل المؤسسات الثقافية العربية مع معرض فرانكفورت للكتاب؟ فاليد الواحدة لاتصفق، والألمان قدموا فضاءهم الثقافي (معرض الكتاب) للعرب والآن جاء دورهم. ثم إنّ دور النشر الألمانية لن تنشر الكتاب العربي من أجل "سواد عيون العرب"، فالكتاب أولاً سلعة في عين الناشر قبل أن يكون ثقافة، وهو بالنسبة إليه مشروع تجاري، إنه يختار الكتاب الذي يتوسم فيه الانتشار والقبول لدى القارئ الألماني.

اليوم تفصلنا عن المعرض عشرة أشهر، فماذا ستنجز الجامعة العربية واتحاد الناشرين العرب خلال هذه الفترة؟ سؤال نطرحه بقلق وكلنا أمل أن تكون وساسنا بلا أساس. فلننتظر ونر.

نزول الشعر العربي عن عرشه

الحدث الثاني، هو احتفاء الأكاديمية الألمانية للغة والشعر بالشعر العربي. فقد افتتحت هذه الأكاديمية العريقة، التي اتخذت من الذكرى المئتين لميلاد الشاعر الألماني العظيم غوته تاريخاً لتأسيسها ((٢٨/٨/١٩٤٩)، احتفالاتها لتوزيع أرفع جوائزها الأدبية بتكريم الشعر العربي (إقامة أمسية شعرية عربية في مدينة دارمشتات الألمانية، حيث مقرها، عطفاً على حلقة نقاش بين الشعراء العرب والألمان حول الشعر). وإذا كان ملهم الأكاديمية (غوته) سباقاً إلى إقامة جسور مع الشعر العربي والإسلامي فإنّ الأكاديمية لم تحذو حذو ملهمها بهذا المعنى. وإذا نظرنا إلى قائمة أعضاء الأكاديمية وأعضاء الشرف فسنجد اسم الشاعر السوري اللبناني فؤاد رفقة فقط من الجانب العربي مع شعراء وكتاب عالميين كثيرين. إلا أنّ احتفالات هذه السنة سدت نقصاً لدى هذه المؤسسة وربما لدى القارىء الألماني. بالطبع لن يكون لأمسية شعرية واحدة أثر السحر، لكنها جاءت في سياق طويل راكم حضوراً قوياً للشعر العربي في ألمانيا. بدأ هذا السياق بحركة الترجمة (ترجمة الشعر العربي إلى اللغة الألمانية) التي أطلقها خالد المعالي وشتيفان فايدنر وسليمان

توفيق وغيرهم، والتي وفرت للقارىء الألماني صورة عن الشعر الذي كان يجهله، وخصوصاً الأنطولوجيات الشعرية التي أصدرها المعالي وفايدنر ولعل آخرها أنطولوجيا الشعر الفلسطيني الجديد للمعالي (بعد السماء الأخيرة). وجاءت إقامة أدونيس في ألمانيا قبل سنتين والنشاطات التي قام بها من خلال القراءات الشعرية والمقابلات والكتابات المختلفة وكذلك مؤتمر الشعر العربي الألماني في صنعاء وصدور مجلة «ديوان»، كل هذه الجهود أعطت حضوراً جديداً للشعر العربي في ألمانيا.

في دارمشتات كان للجمهور الألماني لقاء مع الشعر العربي من نوع آخر، خصوصاً المناقشة التي تلت الأمسية الشعرية التي شارك فيها محمود درويش وفؤاد رفقة وقاسم حداد وعادل قرشولي ومحمد بنيس ونبيلة الزبير وسلوى النعيمي وصفاء فتحي. وكعادته كان الشاعر الفلسطيني الكبير سيد الموقف. وصفاء فتحي على حق حين ميزت بين حضور محمود درويش كظاهرة، كشاعر هو نسيج وحده، وبين بقية الشعراء العرب. ربما تكون هناك لغة سحرية تجمع بين درويش والمتلقي مهما كانت لغته. فإذا قرأ درويش في السوربون، اكتظت القاعة بالزوار وإذا حضر إلى قصر ناءٍ في مدينة صغيرة بألمانيا كدارمشتات تكرر الأمر نفسه، إذ حضر أكثر من خمسمئة شخص الأمسية الشعرية العربية.

وإذا كان درويش الفلسطيني أنشد محدداً مفهومه للسلام: "السلام كلام المسافر في نفسه/ للمسافر في الجهة الثانية" فإنّ مداخلته في المناقشة العربية ـ الألمانية حول الشعر، غيرت مسار الجلسة لتتحول إلى نقاش عربي ـ عربي حول الشعر العربي. كلام درويش في ألمانيا حول خصوصية الشعر العربي وهويته، حركت النقاش نحو الذات وكأنّ الشعراء العرب كانوا في توق إلى مكان بعيد يعيدون فيه إنتاج مقولاتهم عن الحداثة وقصيدة النثر والوزن والقافية.

وقد ساهمت أسئلة رئيس الجلسة الشاعر الألماني هارالد هارتونغ لتصب الزيت على النار وتحول المناقشة إلى نسخة من المعارك الثقافية العربية حول الشعر لكن بلغة أهل المكان هذه المرة. هارتونغ طرح أسئلة كثيرة من نوع: "أين تكمن خصوصية اللغة في القصيدة العربية؟ ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين الشعرين العربي والألماني؟ هل بمقدور الشعر الألماني التعلم من الشعر العربي؟"

هذه المناقشة الثرية أنزلت الشعر العربي من عليائه ووضعته في مكانه الصحيح في لوحة الشعر العالمي، "فسؤال الشعر العربي، لم يعد سؤالاً عربياً، بقدر ما هو سؤال إنساني عام، والشعر العربي يعيش في عزلة وفي هامش كما يعيش الشعر الأوروبي والأمريكي"، هذا ما انتهت إليه المداخلة الدرويشية. لكن الشاعر الكبير لم يكن أنانياً، فهو رأى أنّ هذه الظاهرة صحية وأنّ من حسن حظ الثقافة العربية أن يخسر الشعر تلك "المكانة" التي احتكرها لنفسه زمناً طويلاً لتأتي الأجناس الأدبية الأخرى، كالقصة والرواية والمسرح، كي تنافسه، بل تتفوق عليه أحياناً. ربما النتيجة الأهم التي انتهت إليها مناقشات العرب عند ضيوفهم الألمان ومعهم، هي أنّ الحالة النثرية أضحت السائدة في مشهد الثقافة العربية، وكل شاعر يكتب بالوزن أو بالإيقاع يعتبر شاعراً «سلفياً». وقد وحدت قصيدة النثر الثقافة العالمية، فلم تعد تعثر في أي قصيدة حديثة على خصوصية وطنية أو ثقافية، سوى اللغة، اللغة التي كتبت بها القصيدة.

وإذا كان الشعراء الألمان يطمحون إلى الاستقواء بزملائهم العرب والتعلم منهم حول كيفية إعادة القصيدة إلى عرشها، فقد اكتشفوا في دارمشتات أنّ الشعر العربي ليس أفضل حالاً من شعرهم، وأنّ الشعراء العرب لم يعودوا ملوكاً في أوطانهم كما اعتقد رئيس الأكاديمية الألمانية للغة والشعر حين قدم ضيوفه للجمهور الألماني.

محمود درويش ومحمد بنيس في دارمشتات، تصوير: Stefan Weidner



ألِيغيرو بويتي Alighiero Boetti

الفنان الايطالي وأفغانستان

سافر أليـغيرو بويتي Alighiero Boetti إلى أفغـانستان للمـرة الأولى في آذار/ مارس عام ١٩٧١ وبقى فـيها لمدة شـهر. وواظب على السفر إلى هناك سنويا حتى عام ١٩٧٩، حينما غزت القوات الروسية البلاد، وكان يمكث لفترات طويلة. في عام ١٩٧١ عـهد إلى النساء الأفغـانيات بتنفيـذ أولى صوره المزركشـة هناك. وكانت تلك بداية لإنتاج العـديد من الصور المزركشة على مدى سنوات طويلة، وذلك حتى موته عام ١٩٩٤. قام بويـتي بدراسة التراث العريق والهام للمبادئ اللغوية والرياضية المتنوعـة للشرق والغرب. ويهمنا في هذا السـياق بالذات أن نركز على النصوص المزركشـة والتي نعرض لواحد منها هنا، حيث أنـها ترمز للهدف الرئيسي للفنان، ألا وهـو أمنية امتزاج سلوكيـات ومُثل ومعتقـدات الشرق والغرب مع بعضها البعض من خلال عملية امتزاج النص بالصورة. كان بويتي يشعر بقربه من طريقة تفكير المتصوفة وقد قضى ساعات طويلة في النقاش مع شيخه، الشاعر الصوفي بيرانغ من إخوة البلخ الذي أبدى اهتماما كبيرا بالأعمال الفنية لتلميذه.

«فكر وفن» اختارت للغلاف الخارجي لهذا العدد لوحة بويتي منقوشة عليها القصيدتان أدناه:

٢٥في ٢٥

خمسة وعشرون في خمسة وعشرين
ستمائة وخمسة وعشرون حرفا
في مائة لون هي ألوان
العالم التي ستصبح فيما بعد لونا
واحدا، لون الأرض، ثم تنفصل مرة أخرى
لتتحلل بعد ذلك وتتبدد في الزمن
وزمن الصيرورة يصبح بعد ذلك ريحا في بيشاور
أليغيرو بويتي وناي
ناعم يتغلغل في قلبك ويجعلك قريبا
من الآلهة في تسعة وثمانين.

قلبي المكسور عطشان للون، مرة أخرى،
غارق في الدماء، هل لا يزال عاشقا للحرب؟
يا مجاهداً، حياتي وروحي ملك يديك
لا تزال خطاك تزركش كل صخرة تطأها
صرختك هي العدل وحق الله المجيد
لا تزال تقتفي آثار العدو الذي لم يعد سوى ثعلب أعرج
يعوض بلادنا ونملها وطيورها وجنادبها
لا تزال في عين الروس الملاعين نمورا وسباعا
تقهقر روسيا المهزومة له وجه العار
لا تتجاهل هزيمة الجيش الأحمر، لأن عين الثعلب
لا تزال مصوبة وسط الفوضى نحو الحدود.
البائس يرغب في العودة إلى السلطة، رغم أنه
لا يزال مفتونا بمتع الغرب المشينة
قصص كرمال وشاهمال ودافرمال
لا تزال تروي في مجالسنا ما حدث
من طرقي إلى نجيب، كلهم خانوا الله وخانوا أخوتهم
وبذروا الخزي في كل بيت من بيوت بلادنا
لا يعرف الملوك سر حريتنا، لأن
رجال ساحة القتال ليسوا سوى مفكرين ورعين.



الفنان أليغيرو بويتي مع موديل شاحنة أفغانية، ١٩٨٥. تصوير: Giorgio Colombo

صورة الغلاف الخارجي من الخلف:
Alighiero Boetti: "Venticique per venticinque..."
Embroidery, 1989, 103 x 110 cm.
From the catalog: "Alighiero e Boetti"
Exhibition from 8th April to May 1999
Galerie Guy Bärtischi, Geneva